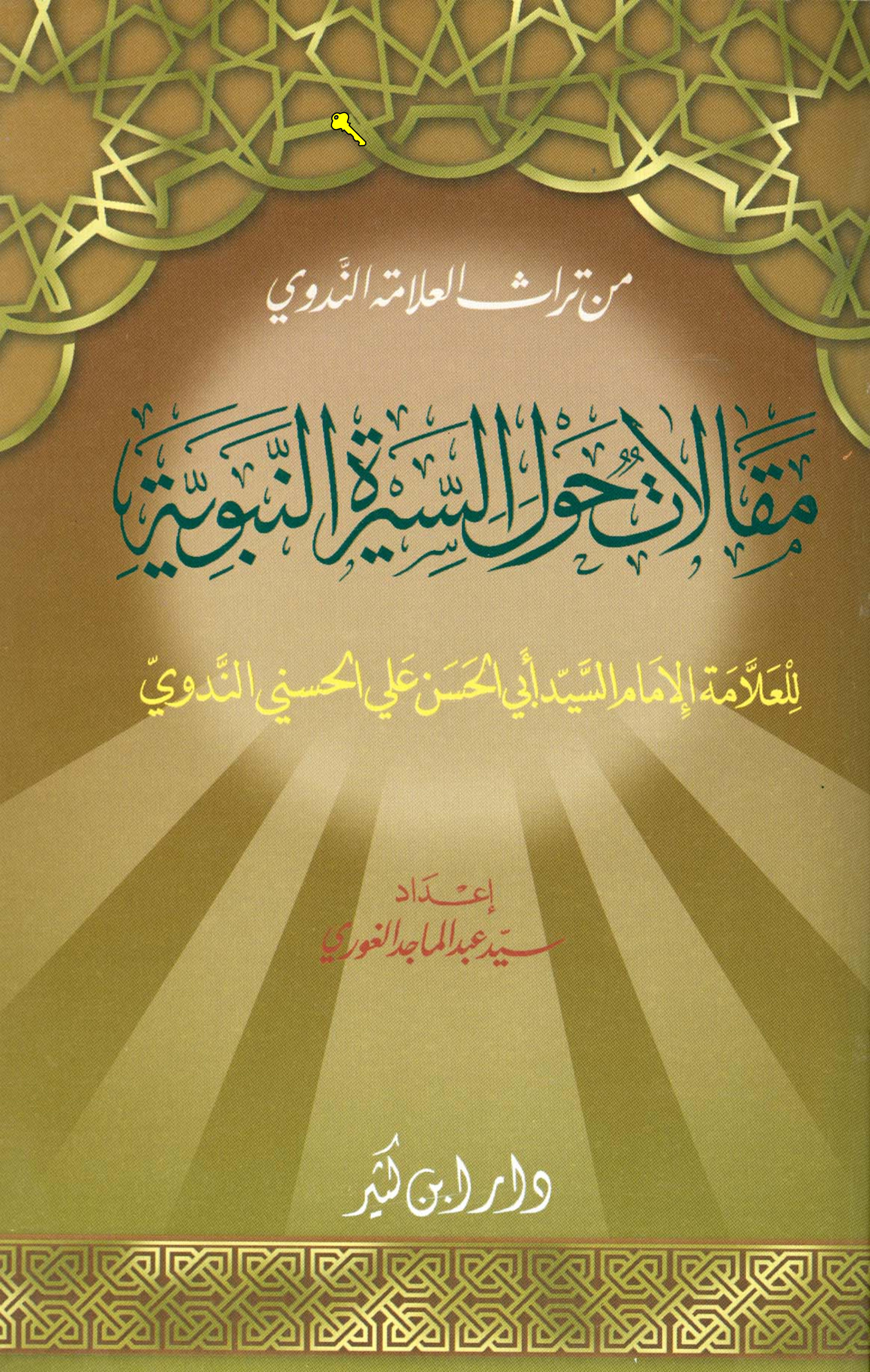


من تراث العلامة النَّدوي
مقالات حول السيرة النبوية
للعلاَّمة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النَّدويّ
إعداد
سيّد عبد الماجد الغوري
دار ابن كثير

من تراث العلامة النّدوي



مقالات حول السيرة النبوية

لِلعَلاَّمَة الإمَام السَّيِّد أبي الحَسَن علي الحسني النَّدويّ

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد

سيّد عبد الماجد الغوري



دار ابن كثير

دمشق . بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

مقدمة الكتاب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد : فكان يعتبر العلاَّمة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ السيرة النبوية الدوحةَ الأولى له ، وقد دخلها في سن مبكرة ، لا يدخل فيها الأطفالُ في عامة الأحوال ، ويرجع فيه الفضلُ إلى أخيه الأكبر[١] ـ وهو الّذي تولَّى تربيته وتثقيفه إثر وفاة أبيه ، وقد توفِّي وهو في التاسعة من عمره ـ الّذي كان موفقاً كل التوفيق في اختيار الكتب التي كان يجب أن يطالعها في صغره ، فقد قدَّم إليه أفضل ما كُتِبَ في السيرة بالأردوية ـ وهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربية في موضوع السيرة ـ وكان حريصاً على أن يُكثر من مطالعة كتب السيرة النبوية ، لأنَّها المؤثر الأكبر في تكوين السيرة والعقيدة والخلق وغرس الإيمان .

فلما صَارَ يشدو باللغة العربية عكف على أمهات كتب السيرة النبوية فيها كـ « السيرة النبوية » لابن هشام و « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم . وكذلك الكتب الأخرى ، عاش فيها زمناً طويلاً يذوق بها حلاوةَ الإيمان ويغذي بما جاء فيها من القصص والأخبار عاطفة الحب والحنان ، ثم ألف وكتب في هذا الموضوع الجليل عشرات من المقالات[٢] وعدة من الكتب

---

(١) هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني . الأمين العام الأسبق لدار العلوم ـ ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند) توفي في ٢٨ ذي القعدة عام ١٣٨٠هـ ، انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المؤلف « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام في القرن العشرين » .

(٢) ومن أشهرها « السيرة النبوية » و« خاتم النبيين » للأطفال ، وقد صدر الأولُ من =

في أسلوبٍ عصريٍّ علميٍّ مستعيناً بما كُتبَ في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، وبالمراجع الأجنبية التي توضح الكثير من السيرة ، والتاريخ المعاصر ، وحاول خلال تأليف الكتب وكتابة المقالات فيها أن يجمع بين الجانب العلمي والجانب التربوي البلاغي ، لا يطغى أحدهما على الآخر .

فجاء كلُّ ما كتَبه العلامةُ ـ رحمه الله ـ في السيرة النبوية من الكتب والمقالات ممتازاً عن غيرها من السير بسردها سرداً مستمراً دون انقطاع من ولادته إلى وفاته في كتابه القيم « السيرة النبوية » ومستعرضاً كل ما مرَّ به من أحداث جليلة غيرت مجرى تاريخ أمتنا ومستقبلها في مقالاته .

وهذا الكتاب الّذي بين يديك أيها القارىء هو مجموعة من المقالات التي جاد بها قلم العلامة الندوي في هذا الموضوع بين الفترة والفترة في مجلات مختلفة ، فوددت أن أفرزها من طيات تلك المجلات في كتابٍ مستقلٍ ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد ، ولتعمَّ بها الفائدة ، أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ويتقبله قبولًا حسناً ، إنه سميع مجيب .

كتبه

حيدر آباد ٢٤/ شوال المكرم ١٤٢٠هـ — المعتز بالله تعالى

عبد الماجد الغوري

* * *

= « دار ابن كثير » دمشق ، والثاني من « مؤسسة الرسالة » بيروت .

ملامح من حياة
العلاَّمة الإمام السيِّد أبي الحسن الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النورَ في ٦محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

• بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني ؛ الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاَّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُينَ أستاذاً في دار العلوم

ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دارالعلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرَّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء العرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّف فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١م ، واستمر عليها حتى وفاته .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

أهم مؤلفاته :

• نُشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيِّد رشيد رضا

المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونالَ قبولًا عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠م ، و « قصص النبيين » للأطفال و « القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألّف كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصْدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح »

للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافرَ إلى الشرق والغرب مرات داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً ، وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[١] .

تقدير وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافية العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته » جمع وترتيب وتعليق المؤلف ، صدر من دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

• ومنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

• اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

• أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستنابول « تركيا » .

• اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

• تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

• وعدا ذلك تولّى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

وفاته :

كان ـ العلامة الندوي ـ في حالة صحية جيدة قبل يومين من وفاته ، قضى عشرين يوماً من رمضان المبارك في مقره بدار العلوم ـ ندوة العلماء برفقة من أصحابه وزوّاره الذين يصومون معه في كل عام ،ولكنه في العشرين من الشهر

غادر لكهنؤ إلى مسقط رأسه « تكية كلان » (الواقعة في مديرية « رأي بريلي ») ، لكي يقضي هناك العشرة الأخيرة مع أفراد عائلته ، ولما كان يوم الجمعة (وهي جمعة الوداع في العالم الإسلامي كله) تهيأ لصلاة الجمعة ، واستحمَّ ، وغيَّر الملابس ، وتطيَّب (وكان في ذلك كله في غاية الاهتمام) فبدأ يتلو سورة الكهف قبل أن يقصد إلى المسجد إذ فاجأته نوبة قلبية ، توقف معها القلب وطارت الروح إلى بارئها ، وانضمَّ ـ رحمه الله ـ إلى صفوف أولئك الرجال من المؤمنين الذين أشاد الله بذكرهم في تنزيله ، فقال : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة شاملة[1] .

* * *

---

(١) انظر كتاب « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » للمؤلف ، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية وتعريف لأهمّ مؤلّفاته ، صدَر عن « دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م » .

في سبيل تعريف السيرة النبوية[١]

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد ؛ فقد كانت السِّيرة النبوية ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ المدرسة الأولى التي تعلم فيها مؤلف هذا الكتاب ، وقد دخلها في سنٍّ مبكِّرةٍ ، لا يدخل فيها الأطفال في عامَّة الأحوال ، والفضل في ذلك يرجع إلى الجو الذي كان يسود بيته وأسرته ، فقد كانت السيرة النبوية تكون عنصراً أساسياً في الثقافة التي يتلقَّاها أبناء الأسرة ، وأطفال البيت ، وإلى المكتبة الصغيرة البسيطة المؤلفة من منظومٍ ومنثورٍ ، التي كانت تنتقل من يدٍ إلى يدٍ ، ثم إلى تربية أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني ، وتوجيهه الحكيم ، فقرأ في صباه أفضل ما كتب في السيرة النبوية في « أردو » لغة مسلمي الهند ، وهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربية في موضوع السِّيرة ، وهي تحتوي على أقوى وأجمل ما كتب فيها في العصر الأخير[٢] .

ثم لما صار يشدو باللغة العربية عكف على كتب السيرة ، التي ألفت فيها ، وكانت في مقدمتها السيرة النبوية لابن هشام ، و « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن قيم الجوزية ، ولم يدرسهما دراسةً علميةً فحسب ، بل عاش فيهما زمناً طويلاً ، يذوق بهما حلاوة الإيمان ، ويغذي بما جاء فيهما من

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد الثاني والعشرون عام ١٩٧٧م .

(٢) اقرأ قصة صلة العلامة الندوي بكتب السيرة ، وتأثيرها في ثقافته وعقليته وسيرته في كتاب « الطريق إلى المدينة » المقال الأول بعنوان « الكتاب الذي لا أنسى فضله » .

القصص والأخبار عاطفة الحبِّ والحنان ، ومن المقرَّر أنَّ السيرة أقوى العناصر التربوية وأكثرها تأثيراً في النفس والعقل بعد القرآن ، ثم قرأ ما وصلت إليه يداه من كتب السيرة ، وهي المادة الأولى التي يعتمد عليها في كتاباته ومحاضراته ، يستمدُّ منها القوة في البيان ، والتأثير في العقول والقلوب ، والدَّلائل القوية ، والأمثلة البليغة ، لإثبات ما يريد إثباته ، وهي التي كانت ولا تزال تفتق قريحته ، وتشعل مواهبه ، وما من كتابةٍ ذات قيمة من كتاباته إلا وعليها مسحةٌ من جمال السيرة ، وفضل لدراستها ، والتأمُّل فيها ، وقد جمع ما كتب في جوانب السيرة المختلفة ، وعظمة البعثة المحمدية ، وما ألقاه من محاضراتٍ وأحاديث ، في كتابٍ أسماه « الطريق إلى المدينة »[١] .

وقد عاش المؤلف هذه المدَّة الطويلة وقد ألف عشراتٍ من الكتب لا يفكر في إفراد كتابٍ في السِّيرة النبوية ، رغم أنه كان يشعر بمسيس الحاجة إلى كتابٍ كُتِبَ في أسلوبٍ عصريٍّ علميٍّ ، واستُفيد فيه من خير ما كتب في القديم والحديث ، مؤسَّساً على مصادر السيرة الأولى الأصيلة ، مطابقاً لما جاء في القرآن والسنَّة الصحيحة ، لم يكتب في الأسلوب الموسوعي Encyclopedia الحاشد للمعلومات في غير نقدٍ وتمحيصٍ ، الأسلوب الذي اعتاده أكثر المؤلفين المتوسطين ، والمتأخرين ، وقليلٌ من المؤلفين المتقدِّمين ، والذي كان مثار كثيرٍ من التساؤلات التي برَّأ الله السيرة الكريمة منها ، وأغنى المسلمين عنها ، قد نالته يد التنقيح والتحقيق من غير تقليدٍ للاتجاهات العصرية ، وخضوعٍ لكتابات المستشرقين وأقوال المشكِّكين ، متمشيّاً مع المقررات الدِّينية التي تفهم في ضوئها الكتب السماوية وسِيَر الأنبياء ، والمعجزات ، والأخبار الغيبية ، قائماً على مبدأ أنَّه سيرة نبيٍّ من الأنبياء ، مبعوث من الله ، مؤيَّد منه ، لا سيرة عظيمٍ من العظماء ، أو زعيمٍ من الزعماء ، يسوغ أن يقدَّم إلى كلِّ مثقفٍ منصفٍ من المسلمين وغير المسلمين من غير تحفُّظٍ أو استثناء ، أو حاجةٍ إلى تأويلٍ ، يعتمد فيه المؤلف على

---

(١) ظهرت لهذا الكتاب عدة طبعات من المدينة المنورة ولكهنؤ ودمشق .

الحوادث والوقائع ، ومادَّة السيرة ، ويدعها تنطق بلسانها ، وتشقُّ الطريق بنفسها إلى القلوب والعقول ، أكثر مما يعتمد على فلسفته للحوادث وتعليله للأخبار ، ومقدِّماته الطويلة العريضة ، فالسِّيرة النبوية غنيَّةٌ بجمالها ، وروعتها ، وسحرها على النفوس والعقول ، ووقعها منها موقع القبول ، من شفاعة شافعٍ ، وتدليلٍ حكيمٍ ، وبراعة أديبٍ ، وجلُّ ما يحتاج إليه المؤلف ، هو جمال العرض ، وحسن الترتيب ، وجودة التلخيص .

ثم يتجلَّى فيه العقل والعاطفة جواراً بجوار ، فلا يكون فيه البحث العلميُّ والنقد التحليليُّ على حساب العاطفة ، والحبِّ ، والإيمان ، الذي لا بدَّ منهما في تذوُّق السيرة ، والاستفادة منها ، وفهم قضاياها ، وأحكامها ، وحوادثها ، فإنَّه إذا تجرَّد الكتاب من العاطفة ، والحبِّ ، والإيمان . كان خشبياً مصنوعاً لا حياة فيه ، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفيُّ العقيديُّ على حساب المتطلبات العقلية السليمة التي نمَّاها هذا العصر بصورةٍ خاصَّةٍ ، وعلى حساب المنطق السليم الذي لم يتجرَّد منه عصرٌ من العصور فيكون كتاب عقيدةٍ وتقليدٍ فحسب ، لا يطيق قراءته ، ولا يسيغ ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان ، والراسخون في الإسلام ، من الذين نشأوا في بيئةٍ دينيَّةٍ خالصةٍ لا شأن لها بالعالم الخارجيِّ ، وبالثقافة العصرية ، وذلك وإن كانت موهبةً من الله ، فإنَّ سيرةَ نبيٍّ أُرسل إلى الناس كافةً ، وأُرسل رحمةً للعالمين ، لا يجوز أن تُجعل مقصورةً على هذه الطبقة السعيدة المؤمنة ، محجورةً على منْ لم تسمح ظروفهم بالنشوء في هذه البيئة المسلمة المؤمنة ، وأرادت حكمة الله أن يولدوا في بيئاتٍ غير إسلامية ، ثم يدركهم اللطفُ الإلهي ، وتهبُّ عليهم نفحةٌ من نفحات هذه السيرة العطرة ، فينتقلون بقوتها وجاذبيتها إلى حظيرة الإيمان ، ومعسكر الإسلام ، وليس حقُّ غير المسلمين على هذه السيرة وحظهم فيها أقلَّ من حق المسلمين الذين نشؤوا في ظلال الإيمان والإسلام ، والدواء حاجة المريض أكثر من حاجة السَّليم ، والقنطرة يحتاج إليها من يعيش وراء النهر أكثر ممَّا يحتاج إليها من يعيش دونه .

ثم لا يسع المؤلف في السيرة صرف النظر عن البيئة التي كان فيه وجودها

وقيامها ، وعن العصر الذي كان فيه طلوعها وبزوغها ، فلا بدَّ من وصف الجاهلية العالمية الضاربة أطنابها على الأرض كلِّها في القرن السادس المسيحي ، ومدى ما وصل إليه هذا العصر من الفساد والانحطاط ، والقلق والاضطراب ، ووصف حالته الخلقية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، وما تضافر عليه من عوامل الإفساد ، والإضلال ، والتدمير ، والإبادة ، من حكوماتٍ جائرة ، وأديانٍ محرَّفة ، وفلسفاتٍ متطرِّفةٍ ، وحركاتٍ هدَّامة ، وحين أراد المؤلف أن يكتب فصلاً في تفصيل وتوسُّع على العصر الجاهلي يقدم به كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وجد في ذلك صعوبةً لا ينساها حتَّى اليوم ، واضطر إلى أن يجمع المعلومات من المراجع الأجنبية ، والكتب التي ألفت في تاريخ البلاد والأمم ، والدول المعاصرة لنشوء الإسلام ، في اللغات الأوربية ، فالتقطها من ثنايا هذه الكتب ، كما تُلتقط حبَّات السُّكر الدقيقة من أفواه النمل (حسب المثل الأردي) ، فجاء هذا الفصل الموسَّع[١] ، الذي يُنير الطريقَ لمن يقرأ كتب السيرة ، ويحاول أن يدرك عظمة البعثة المحمَّدية وضخامة المهمَّة التي اضطلعت بها ، والنتائج العظيمة الجسيمة التي أسفرت عنها ، وكان كلُّ كتاب يؤلف في السيرة النبوية في العصر الحديث جديراً بهذا النوع من البحث والنمط في التَّحقيق ، وإلقاء الأضواء القويَّة العلمية على العصر الجاهليِّ والتصوير الدقيق الأمين لما كان يجيش به من فسادٍ ، واضطرابٍ ، وانهيارٍ ، وانتحار .

وذلك شأن البيئة التي كانت فيها البعثة ، وظهور الإسلام ، والبلد الذي ظهرت فيه هذه الدَّعوة ، وولد فيه صاحب الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقضى فيه ثلاثاً وخمسين سنة من عمره ، وعاشت فيه الدَّعوة ثلاث عشرة سنة ، فلا بدَّ أن يعرف الدارس للسِّيرة مدى ما وصل إليه العقل فيه ، والوعي ، والمدنيَّة ، ومكانة هذا البلد الاجتماعية والسياسية ، وحالته

---

(١) جاء هذا الفصل في ٦٦ صفحة ، في كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » بعنوان : « الإنسانية في احتضار » راجع الطبعة الأخيرة المصححة والمنقحة ، طبعة دار ابن كثير الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، بعناية سيد عبد الماجد الغوري .

الدينية ، والعقائدية ، ووضعه الاقتصادي والسياسي ، وقوته الحربية والعسكرية حتى يعرف طبيعة هذا البلد ، وعقلية سكانه ، والعقبات التي كانت تعترض في سبيل انتشار الإسلام ، وشقِّه الطريق إلى الأمام .

وقل مثل ذلك وأكثر عن مدينة يثرب التي انتقل إليها الإسلام ، وهاجر إليها الرسول وأصحابه ، وأراد الله أن تكون مركز الإسلام الأول ، فلا يقدَّر مدى قيمة النجاح الذي حققه الإسلام وقدرته على التربية والبعث الجديد ، وحل المعضلات ، والجمع بين العناصر المتناقضة وعظمة المأثرة النبوية ، وإعجازها في تأليف القلوب وتربية النفوس ، إلا إذا عرف الإنسان وضعية هذه البيئة الغريبة المعقدة التي واجهها الرسول والمسلمون ، ولا تُفهم كثيرٌ من الحوادث والأحكام التي يمرُّ بها القارىء في كتب السيرة والحديث إلا إذا عرف حالة المدينة الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، وطبيعة أرضها ، وجغرافية هذا البلد ، وما حوله ، وما كان يتركَّب به من عناصر إنسانيةٍ وإقليميةٍ ، وصلاتِ أجزاء عمرانه بعضها ببعض ، والأعراف والمعاملات الشائعة قبل الهجرة ، وانتشار الإسلام فيه ، فإذا جهل القارىء كلَّ هذا ؛ وبدأ رحلته في كتب السيرة شعر بأنه يمشي في نفق لا يبصر فيه ما حوله ، وكان على غير بيِّنةٍ من الأمر .

وكذلك القول عن الحكومات المعاصرة ، والبلاد المجاورة ، فلا يتبيَّن القارىء خطورة الإقدام الذي قامت به الدعوة الإسلامية ، وقوة مغامرتها ، إلا إذا عرف حجم هذه الحكومات التي كانت تقوم حوله ، والتي خاطبها الإسلام ودعاها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإيمان برسالته ، وقبول حكم الإسلام ، وما وصل إليه من المدنيَّة والثقافة ، والقوَّة الحربية ، والرفاهية ، والعمران ، وما كان يتمتَّع به ملوكها من حَولٍ وطَولٍ ، وصولٍ وشوكةٍ ، وقد ألقى العلم الحديث ضوءاً على تاريخ هذه الحكومات والبلاد والمجتمعات التي كانت تعيش فيها ، ورفع الستار عن كثيرٍ ممَّا كان مجهولًا ، أو غامضاً ، أو ملتوياً في العصر القديم ، فكان من الواجب أن يستعين بكلِّ ذلك المؤلف العصريُّ في السيرة النبوية ، ويستعين بالحديث

الأحدث مما كُتب ونُشِر من كتب التاريخ والجغرافية ، والدراسة المقارنة .

كان المؤلف يشعر بكل هذا مع اعترافٍ بجهود المؤلفين في هذا الموضوع ، وبقيمة ما صدر عن أقلامهم في فتراتٍ مختلفةٍ ، ولغاتٍ مختلفة ، وفضله في الدَّعوة الإسلاميَّة ، وتحبيب السيرة إلى نفوس القرَّاء ، وتقريبها إلى أذهان الناشئة ، وكان يرى السعادة في تأليف كتابٍ جديدٍ في السيرة النبوية لينخرط في سلك المؤلفين النورانيين في هذا الموضوع الحبيب الجليل .

ولكنه كان يتهيَّب الكتابة في هذا الموضوع في توسُّع وتفصيلٍ ؛ لضيق وقته ، وضعف بصره ، ولأنَّه جرَّب : أنَّ كتاب سيرةٍ لعظيمٍ من العظماء فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء ، فضلاً عن سيِّد الأولين والآخرين ، وأشرف المرسلين من أصعب الموضوعات التي يعالجها المؤلفون وأدقها ، وقد مارس موضوع تأليف السير والتراجم للشخصيات المشهورة وأعلام المسلمين من القدماء والمحدثين والمعاصرين عملياً ، فقد اشتغل بكتابة السير وحياة العظماء من أئمة المسلمين وقادتهم ، والمصلحين والعلماء الربانيين بعدما شبَّ عن الطوق ، وأمسك القلم ، وعرف الكتابة ، وقد كتب بقلمه آلافاً من الصفحات في سيرة هؤلاء العلماء ، وعاش بين التراجم والسير منذ الصغر ، فقرأ منها الكثير ، وكتب منها الكثير .

ومن هنا عرف دقَّة هذا الموضوع ، وضخامة هذه المسؤولية ، فمن المؤلفين من تتغلب عليه نزعةٌ ، أو اتِّجاهٌ خاصٌّ ، فيخضع له من يترجمه من حيث يشعر ، ومن حيث لا يشعر ، فتأتي كتابته صورةً لعقليته وعاطفته ، ممثلةً لاتجاهٍ خاصٍّ كان يسيطر على مؤلف الكتاب ، ومنهم من يريد أن يصوِّر أحد العظماء فيصوِّر نفسه ، ويريد أن ينظر إليه نظرةً مجرَّدةً ، فيبدأ ينظر إليه من خلال ميوله ، وتجاربه ، ووجهة نظره ، ويسلط عليه مقاييسه الخاصَّة .

إنَّ مَنْ درس علم النفس والأخلاق ، وعُني بدراسة الشَّخصيات المعاصرة ، وعاش معها طويلاً عرف أنَّ النزول في أعماق نفس إنسانٍ ، والإحاطة بآفاقها ، وتصويرها تصويراً دقيقاً شاملاً من أصعب أنواع المعرفة وأساليب البيان وأدقها ، وأنَّه لا يحسن ذلك بعض الإحسان ، ولا يقدر عليه

بعض القدرة إلا من عرف شيئاً كثيراً من خوالج النفس، وخواطرها، وآمالها، وآلامها، وأحزانها، وأشواقها، والتهاب الروح، ولوعة القلب، وقد رأى كيف يبيت هذا الإنسان ليله، ويقضي نهاره، وكيف يعاشر أهله، ويعامل أصحابه، قد رآه في السِّلم والحرب، والرِّضا والغضب، وفي العسر واليسر، والضعف والقوة، ومن أحوال النفس الإنسانية ومشاعرها وأحاسيسها، ومن مظاهر الجمال والكمال ما لم توضع له ألفاظٌ بعد، ولا تفي به ثروةٌ لغويَّةٌ مهما اتَّسعت، ودقَّت.

والسيرة النبوية المحمدية تتميز من بين سير أفراد البشر ـ وفيهم الأنبياء وغير الأنبياء ـ بدقَّتها، وشمولها، واستيعابها لدقائق الحياة، وتفاصيلها، وملامحها، وقسماتها، وذلك بفضل علم الحديث الذي لا يوجد له نظير، لا في تاريخ الأنبياء، ولا في تاريخ العظماء، وكتب السير والشمائل، وما جمع، وحفظ من الأدعية[١] والأذكار النبوية، ومناجاته ﷺ لربِّه آناء الليل، والنهار، وما حفظ ونقل من جوامع الكلم، وما أثر عن الوصَّافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته في صفته؛ التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفةً أكثر منها دقَّةً، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخلقية[٢]، ولذلك لم يكن الأمر في تأليف السيرة النبوية من الصعوبة والغموض، والافتراض والقياس، كما هو في سير العظماء الأبطال، وأنَّ سيرته ﷺ أكمل السير، كما كانت أجملها، وهي مؤسسةٌ على نصوصٍ قرآنيةٍ، ووثائق تاريخيةٍ، ودقائق في الخَلق والخُلق، وتفاصيل في العادات والعبادات، والأخلاق والمعاملات، لا يتصوَّر فوق ذلك، وهي

---

(١) ليراجع مقال العلامة الندوي في هذا الكتاب بعنوان «دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة» في صلة الأدعية النبوية بالسيرة؛ وقيمتها وأهميتها في دراستها وأنها مرآة تجلَّت فيها خصائص النبوة وأسرارها وصلتها بالله وبالخلق، والمعرفة الدقيقة لحقائق الحياة الإنسانية، وعلم النفس والأخلاق ودقائقها.

(٢) اقرأ للتفصيل مقال العلامة الندوي «القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها، وكيف أمكن ذلك؟» في كتابه «النبي الخاتم».

أقرب إلى الحقيقة والواقع قرباً لا يتصوَّر فوقه ، ولا يطمع في أكثر منه ، بعد أن مضى على هذه الحياة الطيبة الكريمة مدَّةً طويلة .

ولكن رغم وجود هذا الفارق الكبير بين سيرته ﷺ وبين سير العظماء ، بل وبين سير الأنبياء ، ورغم دقَّتها التي لا دقة فوقها ، وشمولها الذي لا شمول فوقه ، لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ تصوير حياته وأخلاقه ، واستيعاب المعجزات التي اشتملت عليها سيرته ، ودعوته ، وحياته الانفرادية ، والاجتماعية ، ومعاملته مع الله ومع الخلق ، وآيات الحسن والإحسان في تكوين خَلْقِه وخُلُقه ، وفي حبه ورأفته ، وفي دعائه وابتهاله ، وفي تألمه للإنسانية ومصيرها ، وفي منطقه وحكمته ، وفي جامعيته وكماله يكاد يكون مستحيلاً ، وأنَّ ما جاء في كتب السير والشمائل ـ على جماله وروعته ـ هو بعض ما خصَّه الله به من جمال السيرة ، وكمال الخُلُق والخَلْق لا كلُّه ، وأنَّ جلَّ ما هنالك أنَّها محاولاتٌ وجهودٌ يشكر عليها هؤلاء المؤلفون ويؤجرون عليها ، وهي ثروةٌ عامَّةٌ خالدةٌ ، يجد فيها كلُّ إنسانٍ ، وكلُّ جيلٍ من البشر ، وكلُّ طبقةٍ من طبقات الإنسان حظَّها من الهداية ، والنور ، والتقليد ، والاقتداء ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

لكلِّ ذلك كنت أتهيَّب الكتابة في السيرة النبوية ، والتأليف فيها ، وأستعظمها ، وأستصغر نفسي ، وقد حثَّني عددٌ من الفضلاء وكرام الأصدقاء[1] على أن أؤلف كتاباً في السيرة النبوية في اللغة العربية أراعي فيه عقلية الجيل الجديد ، وذوقه ، ومستوى فهمه ، ونفسيته ، وما جدَّ من طلباتٍ وحاجاتٍ ، وأسلوبٍ كتابيٍّ ، ومنهجٍ علميٍّ ، فلكلِّ عصرٍ أسلوبه ، ولغته ، ومقادير ، وترتيباتٌ في الأدوية والأغذية ، وذلك كما قدَّمنا من غير إخضاع السيرة النبوية للأهواء والأغراض ، وللنظريات العلميَّة التي تتغيَّر صباح

(١) في مقدمتهم صديق العلامة الندوي فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف ـ رحمه الله ـ عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة .

مساء ، والشبه والاعتراضات التي يدفع إليها التعصُّب الدِّينيُّ ، أو الجهل العلمي ، أو الغرض السياسيُّ .

وشرح الله صدري أخيراً لهذا التأليف ، فعكفت على هذا الموضوع ، وعشت فيه ، أقرأ كتب السيرة والحديث وكل ما أستعين به في هذا الموضوع من القديم والحديث ، وبدأت أكتب معتمداً على أصحِّ ما كتب ، وأُلِّف في هذا الموضوع ، واستعنت بما كتب في هذا الموضوع في العصر القديم والعصر الحديث ، وبالمراجع الأجنبية التي توضح الكثير من السيرة ، والتاريخ المعاصر ، وتلقي ضوءاً على الحكومات والمجتمعات المعاصرة ، وحاولت أن يجمع الكتاب بين الجانب العلمي وبين الجانب التربويِّ البلاغيِّ ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، وأن يشتمل على أكبر مقدارٍ من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير ، الآسرة للقلوب والنفوس التي لا يوجد نظيرها في سيرة إنسانٍ ، ولا في تاريخ فردٍ أو جيلٍ ، أو دعوةٍ ، أو دينٍ ، وذلك كلُّه من غير تنميقٍ ، أو تلوينٍ ، أو تحبيرٍ أو تحسينٍ ، فجمال الطبيعة والحقيقة لا يحتاج إلى تجميلاتٍ خارجيَّةٍ ، أو تزييناتٍ صناعيَّة .

وكان هذا الكتاب شغلي الشاغل ما بين شوال ١٣٩٥هـ وشوال ١٣٩٦هـ (أكتوبر ١٩٧٥م - أكتوبر ١٩٧٦م) لم أشتغل بغير هذا الموضوع إلا اضطراراً ، تتخلَّل ذلك فتراتٌ قليلةٌ من المرض ، ورحلاتٌ طويلة في الشرق والغرب ، حتى يَسَّرَ الله إتمامه في غرَّة شوال سنة ١٣٩٦هـ ، وهاهو الآن بين يدي القراء .

وأرى لزاماً علي أن أشكر صديقين فاضلين لقيت منهما مساعدةً كبيرةً في تأليف هذا الكتاب ، وهما فضيلة الشيخ برهان الدين السنبهلي أستاذ الحديث والتفسير في دار العلوم ندوة العلماء ، وقد أعانني في تخريج الأحاديث ، والبحث عنها ، والتحقيق في بعض ما جاء في كتب السيرة ، جزاه الله خير الجزاء ، والأستاذ محيي الدين أحمد[١] فقد ساعدني مساعدةً غاليةً في دراسة

(١) وهو الذي وفق أخيراً لنقل هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، وقد صدرت له طبعتان.

المراجع الأجنبية ، والتقاط المعلومات المفيدة من كتاب تاريخ الأمم والبلاد ، والموسوعات الأجنبية ، والمؤلف شاكرٌ لفضله ، معترفٌ لجهوده وإخلاصه . ولما كان هذا الكتاب كلُّه إملاءً لعجز المؤلف عن الكتابة مباشرةً استعان ببعض الإخوان في كتابته ، وكان في مقدمتهم العزيزان محمد معاذ الأندوري النَّدوي ، وعلي أحمد الكجراتي النَّدوي ، وساهم في ذلك الأستاذ نور عالم الأميني النَّدوي .

وقد كان للأستاذ محمد حسن الأنصاري فضلٌ في وضع الخرائط التاريخية الجغرافية التي زيِّن بها الكتاب ، وزاد في قيمته العلمية ، كما كان للأستاذ الكبير الدكتور محمد شفيع رئيس قسم الجغرافية في جامعة « علي كره » الإسلاميَّة ومساعد نائب رئيس الجامعة ، وللقسم الجغرافي في الجامعة فضلٌ في تحسينها ، وإكمالها ، والمؤلف شاكر للإخوان جميعاً .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يتقبَّله تقبلاً حسناً ، وأن يجعله ذخراً للآخرة ، ووسيلةً لدراسة هذه السيرة الطاهرة ، والاستزادة منها ، والانتفاع بها ، وكفى للمؤلف شكراً ، وللكتاب قيمةً إذا أثار كامن الحبِّ ، والإيمان في نفس مؤمن ، وانجذاباً في قلب أحدٍ من غير المسلمين إلى هذه السِّيرة الطاهرة العطرة ، وحملته على دراسة الإسلام وتفهُّمه ـ إنه وليُّ التوفيق .

* * *

لماذا اختار الله سبحانه الجزيرة العربية لكي تكون منطلق الدّعوة الإسلامية[١]؟

وبالرغم من هذه المواهب التي أكرم الله بها العرب ، والمزايا التي امتازت بها الجزيرة العربية ، التي تجلّت بها حكمة الله في اختيارها مهداً للبعثة المحمدية ، وظهور الإسلام ، لم تكن في الجزيرة العربية أمارات يقظة ، أو آثار قلقٍ ظاهر ، وما كان « الحنفاء[٢] والباحثون عن الحقّ ، الذين لا يجاوز عددهم رؤوس الأصابع ، إلا كعددٍ ضئيلٍ من اليراع ، يطير في ليلةٍ شاتيةٍ ، مطيرةٍ ، شديدة الظلام ، فلا يهدي تائهاً ، ولا يدفىء مقروراً .

وكانت هذه الفترة ـ التي بعث فيها محمد ﷺ من أشد الفترات التي مرَّت بها الجزيرة العربية ظلمةً وانحطاطاً ، وأبعد من كلِّ أملٍ في الإصلاح ، وأصعبَ مرحلةٍ واجهها نبيٌّ من الأنبياء ، وأدقَّها .

وقد أحسن أحد الكتاب الإنجليز في السيرة النبوية (Sir William Muir) (وهو معروف بتحامله على الإسلام وصاحب رسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ) تصوير هذه الفترة ، والإنكار على ما قاله بعض الكتاب الأوربيين : إنَّ البركان كان متهيئاً للانفجار ، فجاء محمَّد ﷺ في أوانه ومكانه ، فناوله شرارةً من النار ، فانفجر ، يقول : « لم تكن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية صالحةً لقبول أيِّ تغيُّر ، أو نهضةٍ عندما كان

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الأربعون ، عام ١٩٤١م .

(٢) الذين نبذوا الوثنية ، وتمسكوا بعقيدة التوحيد التي دعا إليها سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

النبي الكريم ﷺ شاباً ، ولعلَّ اليأس عن إصلاح القوم لم يصل ذروته مثل ما وصل في عصره ، ولكن حينما تضعف الثقة بسببٍ واحدٍ لنتيجة خاصَّة ، تفتعل له أسباب أخرى ، وتعتبر أسباباً لحدوث هذه النتيجة .

من ذلك ما يقوله الناس : إنَّ محمداً ﷺ حين نهض ، نهض معه العرب كلُّهم لإيمانٍ جديدٍ ، ووقفت الجزيرة العربية وقفة رجلٍ واحدٍ ، ثم يستنتجون من ذلك : أنَّ الجزيرة العربية كلّها كانت متهيئةً متحمسةً إذ ذاك لتحوُّلٍ مفاجىءٍ عظيمٍ ، ولكنَّ التاريخ عندما يكذب هذه النتيجة ، إذا تأملنا في تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام بقلبٍ هادىءٍ ، فلم تنجح جهود المسيحيين المتواصلة ، ودعوتهم وموعظتهم المستمرة خلال خمسة قرون إلا في كسب عددٍ قليلٍ جداً من بعض القبائل ، فتمرُّ موجةٌ صغيرةٌ على سطح بحر الحياة العربية الهادىء ، نتيجة لتلك الجهود الحقيرة الضعيفة ، التي قام بها دعاة المسيحية ، تتخلَّلها حيناً بعد حين موجاتٌ أكثر قوَّةً وعمقاً ، يتجلَّى فيها تأثير الدَّعوة اليهودية ، ولكن موجات الوثنية العربية والأوهام الإسماعيلية كانت أعنف وأطغى ، كان هذا التيار الجاهليُّ الوثني يضرب جدران الكعبة » .

وقال في مكان آخر من هذا الكتاب :

« وكانت أوضاع العرب قبل البعثة المحمدية بعيدةً عن كلِّ تغيير ديني ، كما كانت بعيدةً كلَّ البعد عن وحدة الصفوف واجتماع الشمل ، وكان دينهم يقوم على أساس وثنيةٍ سخيفةٍ تعمَّقت جذورها ، واصطدمت بصخرتها محاولات نصارى مصر والشام للإصلاح ، فباءت بالفشل »[١] .

وبهذه الحقيقة التاريخية التي تشبة لغزةً علميةً يشيد العالم الغربي الشهير Baiwarth Smith في إيجاز ولكن في قوةٍ ووضوحٍ :

« إنَّ مؤرخاً يمتاز من بين زملائه بالاتجاه الفلسفي يقرر بأنَّه لم تكن من بين الثورات التي تركت ارتساماتٍ خالدةً على تاريخ البشرية العمرانيِّ ـ ثورةٌ

---

(١) انظر حياة محمد لسير وليم ميور .

أبعد من القياس والأمل عند العقل البشري من ظهور الإسلام في العرب ، فقد كان حادثاً لم يكن يتوقَّع حدوثه .

إننا مضطرون إلى أن نسلم أنَّ علم التاريخ ـ إذا كان هنالك شيء يستحقُّ أن يسمَّى علم التاريخ ـ يبقى حائراً مرتبكاً في العثور على حلقات الأسباب والعلل التي يجب عليه البحث عنها (بحكم منصبه ووظيفته) لحدوث هذا الانقلاب »(١) .

الحاجة إلى نبي مرسل :

كانت الأوضاع الفاسدة ، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ، ومعلمون من أفراد الناس ، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد ، أو إزالة عادةٍ من العادات ، أو قبول عبادةٍ من العبادات ، أو إصلاح مجتمعٍ من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون ، والمعلمون الذين لم يخلُ منهم عصرٌ ولا مصر .

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاضٍ جاهليةٍ ، ووثنيةٍ تخريبيةٍ ، تراكمت عبر القرون والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وجهود المصلحين والمعلمين ، وإقامة بناء شامخٍ مشيد البنيان ، وواسع الأرجاء ، يسع العالم كله ، ويؤوي الأمم كلها ، قضية إنشاء إنسان جديدٍ ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ ، كأنَّه ولد من جديد ، أو عاش من جديد : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، قضية اقتلاع جرثومة الفساد ، واستئصال شأفة الوثنية ، واجتثاثها من جذورها ، بحيث لا يبقى لها عينٌ ولا أثر ، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً ، لا يتصوَّر فوقه ، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته ، وخدمة الإنسانية ، والانتصار للحقِّ ،

---

(١) انظر : Mohammad And Mohammadism by: Baiwarth smith.

يتغلب على كلِّ رغبة ، ويقهر كلَّ شهوةٍ ، ويجرف بكلِّ مقاومةٍ ، وبالجملة ، الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة ، والسلوك بها على طريقٍ أوَّلُها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون ، وآخرها جنة الخلد التي وعد المتقون ، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قول الله تعالى في معرض المن ببعثة محمد ﷺ : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إنه لم يُعرف في تاريخ البشرية كلِّه عملٌ أدقُّ وأعقد ، ومسؤوليةٌ أعظم وأضخم ، من مسؤولية محمد ﷺ كنبيٍّ مرسلٍ ، كما أنَّه لم يعرف غرسٌ أثمر مثل غرسه ، وسعيٌ تكلل بالنجاح مثل سعيه ، إنها أعجوبة العجائب ، ومعجزة المعجزات ، وقد شهد بذلك أديبٌ وشاعرٌ فرنسيٌّ في قوةٍ وبلاغةٍ ، ووضوحٍ وصراحةٍ ، يقول « لامارتين » (Lamartine)[1] :

« إنَّ إنساناً لم ينهض أبداً ـ متطوعاً أو غير متطوع ـ لمثل هذا الهدف الأسمى ، لأنَّ هذا الهدف كان فوق طاقة البشر ، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام ، التي حالت بين الإنسان وخالقه ، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربِّه ، وتحقيق عقيدة التوحيد النقيَّة العقلية المعقولة الساطعة ، في ضباب هذه الوثنية السائدة ، والآلهة المادية ، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى ، إنَّه لم يحمل إنسانٌ مثل هذه المسؤولية الضخمة ، والمهمة العظيمة الجليلة ؛ التي تخرج عن طوق البشر ، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة » .

إلى أن قال : « وأروع من ذلك : أنَّه هزَّ تلك الأصنام والآلهة ، والأديان ، والتصوُّرات ، والعقائد ، والنفوس الإنسانية هزةً عنيفةً ، إنَّه بنى على أساس ذلك الكتاب الذي يعتبر كلَّ كلمةٍ منه مصدر التشريع قوميةً ربانية ،

---

(١) لامارتين (Lamartine) في كتابه Histoire de la Turguie . ج/ ٢ . ص٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

ألفت بين أفراد كلِّ جيل ، وسلالةً ، ولغةً ، إنَّ الميزة الخالدة لهذه الأمة ، التي كوَّنها لنا محمَّد ﷺ أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة ، شديدة الحبِّ لله الواحد ؛ الذي يتنزه عن المادة وشوائبها ، وهذا هو الحبُّ الذي يدفعه إلى الثأر ، والانتصاف من كلِّ إهانةٍ توجَّه إلى الذات الإلهية ، وهذا الحبُّ يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمة .

لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريب ، لكنَّ الأصح أنَّه كان معجزةَ العقل ، لا معجزه فردٍ واحدٍ ، إنَّ الإعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانت تئن فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها كان معجزةً مستقلةً بذاتها .

وما لبث محمد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادتها فلا داعي فيها ، ولا مجيب ، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الإيمان » .

إنَّما كان يحتاج هذا الانقلاب الشامل ، وهذا البعث الجديد للإنسانية إلى رسالةٍ جديدةٍ ، من أعظم الرسالات ، وإلى رسول يرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه ، وصدق الله العظيم : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ١ ـ ٣] .

* * *

لماذا بعث النبي في جزيرة العرب[١]؟

قد اقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس التي تبدِّد الظلام ، وتملأ الدنيا نوراً وهدايةً من أفق جزيرة العرب التي كان أشدَّ ظلاماً وكان أشدَّ حاجة إلى هذا النُّور السَّاطع .

وقد اختار الله العرب ليتلقوا هذه الدعوة أولًا ، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم ، لأنَّ ألواح قلوبهم كانت صافيةً ، لم تكتب عليها كتاباتٌ دقيقةٌ عميقةٌ يصعب محوها وإزالتها شأن الروم ، والفرس ، وأهل الهند ؛ الذين كانوا يتيهون ، ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية . ومدنياتهم الزَّاهية ، وبفلسفاتهم الواسعة . فكانت عندهم عقد نفسيةٌ وفكرية . لم يكن من السهل حلُّها . أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتاباتٌ بسيطةٌ خطتها يد الجهل والبداوة ، ومن السهَّل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوشٍ جديدةٍ مكانها . وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب « الجهل البسيط » الذي تسهل مداواته . بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية في هذا العصر مصابةً بـ « الجهل المركب » الذي تصعب مداواته وإزالته .

وكانوا على الفطرة ، واصحاب إرادةٍ قويةٍ ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه ، واحتضنوه . واستماتوا في سبيله .

يعبر عن هذه النفسية العربية خير تعبير ما قاله سهيل بن عمرو حين سمع ما جاء في كتاب الصلح في الحديبية : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الثاني والعشرون ، عام ١٩٧٨م .

ﷺ : « والله لو كنا نعلم أنَّك رسول الله . ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك[١] » . وما قاله عكرمة بن أبي جهلٍ حين حمي الوطيس في معركة اليرموك . واشتدَّ عليه الضغط : ـ قاتلت رسول الله ﷺ ـ في كلِّ موطنٍ وأفرُّ منكم اليوم ؟! ثم نادى من يبايع على الموت ، فبايعه من بايعه . ثم لم يزل يقاتل حتى أثبت جراحاً وقتل شهيداً »[٢] .

وكانوا واقعيين جادين ، أصحاب صراحة وصرامة ، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم ، اعتادوا القول السديد ، والعزم الأكيد . يدلُّ على ذلك دلالةً واضحةً ما روي عن قصَّة بيعة العقبة الثانية ؛ التي تلتها الهجرة إلى المدينة . قال ابن إسحاق : « لما اجتمعت الأوس والخزرج في العقبة ليبايعوا رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الخزرجي : « يا معشر الخزرج ! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةٌ ، وأشرافكم قتلٌ ؛ أسلمتموه ، فمن الآن . فهو والله إن فعلتم خزيُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة[٣] الأموال ، وقتل الأشراف ؛ فخذوه . فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال . وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَيْنا ؟! قال : الجنة . قالوا : ابْسُطْ يدك ، فبسط يده ، فبايعوه »[٤] .

وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وبايعوا رسوله . وقد قال سعد بن معاذ على لسانهم يوم بدر : « فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك . والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك »[٥] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية .
(٢) راجع تاريخ الطبري : ٦/٤ . ص/٣٦ .
(٣) نقصها .
(٤) سيرة ابن هشام ، القسم الأول : ص/٤٤٦ (طبع مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية) .
(٥) زاد المعاد : ج/١ ، ص/٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، سيرة ابن هشام : ق/١ ، ص/٦١٥ =

وقد تجلَّى هذا الصدق في العزم ، والجدُّ في العمل . وروح الامتثال للحق في الجملة التي تؤثر عن عقبة بن نافع القائد العربي المسلم ، فقد خاض البحر الأطلسي بجيشه وخيله ، ثم قال : « يا رب ! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك »[1] .

أما اليونان والرومان ، وأهل إيران . فقد اعتادوا مجاراة الأوضاع ومسايرة الزمان . لا يهيجهم ظلمٌ . ولا يستهويهم حقٌّ . ولا تملكهم فكرةٌ ودعوة . ولا تستحوذ عليهم استحواذاً يتناسون فيه أنفسهم ، ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم .

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدينة والترف . التي يصعب علاجها . والتي تحول دون التحمس للعقيدة والتفاني في سبيلها .

وكانوا أصحاب صدقٍ ، وأمانةٍ ، وشجاعةٍ . ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم . وكانوا مغاوير حرب . وأحلاس خيل . وأصحاب جلادة وتقشف في الحياة . وكانت الفروسية هي الخلق البارز الذي لا بدَّ أن تتَّصف به أمة تضطلع بعملٍ جليل . لأنَّ العصر كان عصر الحروب والمغامرات . والفتوة والبطولة .

وكانت قواهم العلمية والفكرية . ومواهبهم الفطرية مذخورةً فيهم . لم تستهلك في فلسفات خيالية . وجدال عقيم « بيزنطي » ومذاهب كلامية دقيقة . وحروب إقليمية سياسية . فكانت أمةً بكراً ، دافقةً بالحياة والنشاط . والعزم والحماس .

وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة . وحبِّ الطبيعة . والسَّذاجة ، لم تخضع لحكومةٍ أجنبية . ولم تألف الرقَّ والعبودية . واستعباد الإنسان للإنسان . ولم تتمرَّس الغطرسة الملوكية الإيرانية أو الرومانية .

= والقصة في الصحيحين .

(١) الكامل لابن الأثير : ج/ ٤ ، ص/ ٤٦ .

واحتقارها للإنسان والإنسانية . فكان الملوك في إيران ـ المملكة المجاورة للجزيرة ـ فوق مستوى الإنسان والإنسانية . فكان الملك إذا احتجم . أو فصد له . أو تناول دواء . كان ينادي في الناس ألا يمارس إنسان من رجال البلاط . أو سكان العاصمة عملاً . ويكفوا عن كلِّ صناعةٍ أو ممارسةٍ لنشاطٍ[١] . وإذا عطس ؛ فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له . وإذا دعا أن يؤمن عليه ، لأنه فوق مستوى البشر . وإذا زار أحداً من وزرائه أو أمرائه في بيته كان يوماً مشهوداً خالداً يؤرخ به في رسائله ويصبح تقويماً جديداً . ويعفى عن الضريبة إلى مدة معينة . ويتمتع باستثناءات أو مسامحات وتكريمات . لأن الملك شَرَّفه بالزيارة[٢] .

هذا فضلاً عن الآداب الكثيرة التي يتقيَّد بها رجال البلاط ، وأركان الدولة ، وأفراد الشعب ، ويحافظون عليها محافظةً دقيقةً ، من الوقوف بحضرته ، والتكفير له[٣] . وقيام كقيام العباد أمام الربِّ في الصلوات . وهو تصوير حال كانت عليه إيران الساسانية في عهد أفضل ملوكها بالإطلاق . وهو كسرى الأول المعروف بأنوشيروان العدل (٥٣١ ـ ٥٧٩م) فكيف في عهد الملوك الذين اشتهروا في التاريخ بالظلم ، والعسف ، والجبروت ؟

وقد كانت حرية إبداء الرأي والملاحظة ـ فضلاً عن النقد ـ مفقودةً تقريباً في المملكة الإيرانية الواسعة . وقد حكى الطَّبريُّ حكايةً طريفةً عن عهد أفضل ملوكها وأعدلهم « كسرى أنوشيروان العادل » تدلُّ كلَّ الدلالة على مدى

---

(١) « إيران في عهد الساسانيين » : ص/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦ .

(٢) نفس المصدر : ص/٥٤٣ .

(٣) كفر له : خضع ؛ بأن يضع يده على صدره ، ويطأطىء رأسه ، ويتطامن تعظيماً ، وكانت عادةً متبعةً في إيران : ومن هنا شاع هذا التعبير ، ودخل في لغة العرب ، جاء في « لسان العرب » والكفر تعظيم الفارسي لملكه والتكفير لأهل الكتاب أن يطاطىء أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا ، وقال في شرح شطر بيت لجرير : فضعوا السلاح وكفروا التكفيرا . كما يكفر العلج للدهقان يضع يده على صدره ويتطامن له (لسان : ج/ ٧ ، ص/٤٦٦ ، مادة كفر) .

ما وصل إليه الحكم الإيراني من الاستبداد ، والحظر على إبداء الرأي الحرِّ والتعليق الجريء في البلاط الإيراني . فيقول : « أمر الملك قباذ بن فيروز في آخر ملكه بمسح الأرض سهلها وجبلها ليضع الخراج عليها . فمسحت ، غير أن قباذ هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة . حتى إذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون والجماجم . ثم أمر كتَّابه ، فاستخرجوا جعل ذلك ، وأذن للناس إذناً عاماً . وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليه الجعل التي استخرجت من أصناف غلَّات الأرض ، وعدد النخيل والزيتون والجماجم فقرأ ذلك عليهم . ثم قال لهم كسرى : إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصي من جريان هذه المساحة من النخل ، والزيتون ، والجماجم وصنائع . ونأمر بإنجامها في السنة في ثلاثة أنجم . ونجمع في بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا من ثغر من ثغورنا ، أو طرف من أطرافنا فتقٌ ، أو شيءٌ نكرهه واحتجنا إلى تداركه ، أو حسمه ؛ ببذلنا فيه مالًا ؛ كانت الأموال عندنا معدَّةً موجودةً . ولم نرد استئناف اجتبائها على تلك الحال . فما ترون فيما رأينا من ذلك . وأجمعنا عليه؟ فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورةٍ ، ولم ينبس بكلمةٍ . فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات . فقام رجل من عرضهم . وقال لكسرى : أتضع أيها الملك ـ عمرك الله ـ الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرمٍ يموت . وزرع يهيج . ونهرٍ يغور . وعينٍ أو قناةٍ ينقطع ماؤها ؟ فقال له كسرى : يا ذا الكلفة المشؤوم ! من أيِّ طبقات الناس أنت ؟. قال : أنا رجل من الكتَّاب . فقال كسرى : اضربوه بالدوي حتى يموت . فضربه بها الكتاب خاصةً تبرُّؤاً منهم إلى كسرى من رأيه ، وما جاء منه . حتى قتلوه . وقال الناس : نحن راضون »[١] .

ولم يكن الرومان يختلفون عن الإيرانيين كثيراً ، وإن لم يبلغوا شأوهم في الوقاحة ، وامتهان الإنسانية ، وإهدار كرامتها . فقد روى المؤرخ الأوربي

(١) تاريخ الطبري : ج/ ٢ ، ص/ ١٢١ ـ ١٢٢ ، وروى القصة بطولها مؤلف كتاب « إيران في عهد الساسانيين » نقلاً عن الطبري .

(Victor Chopart) في كتابه : « العالم الروماني » ما ترجمته : « كانت القياصرة آلهةً . ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة . بل كان كلُّ من تملك زمام البلاد كان إلهاً . وإن لم تكن هناك أمارةٌ تدل على وصوله إلى هذه الدرجة ، ولم يكن لقب : « أغسطس » الملوكي المفخم ينتقل من إمبراطور إلى إمبراطور بموجب دستور أو قانون . ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ الروماني إلا أن يؤكد صحَّة كلِّ حكم يصدر بحدِّ السيف . ولم تكن هذه الامبراطورية إلا صورة لدكتاتوريةٍ عسكرية »[١] .

ولم يكن السجود للملوك نادراً ، فقد حكى أبو سفيان بن حرب في القصَّة التي رواها عن هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام . وقد جاء في آخر هذه القصة :

« فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان . قال : ردُّوهم عليَّ . وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدَّتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه . فكان ذلك آخر شأن هرقل »[٢] .

أما الهند فقد بلغ فيها إهدار كرامة الإنسان . وازدراء الطبقات ؛ التي اعتبرها الشعب الآريُّ المحتلُّ للبلاد . والقانون المدنيُّ الذي وضعه مشرعوه مخلوقاً خسيساً لا يتميَّز عن الحيوان الدَّاجن إلا بأنه يمشي على اثنين . ويحمل صورة الآدمي . وإن كانوا سكان البلاد الأصليين . مبلغاً يصعب تصوره . فقد نصَّ هذا القانون على أنه : « إذا مدَّ أحد المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ، ليبطش به ؛ قطعت يده . وإذا رفسه في غضب ؛ فُدعت رجله[٣] وإذا ادَّعى أن يعلمه سقي زيتاً فائراً[٤] ، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدع والوزع ، والغراب ، والبومة ، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء »[٥] .

---

(١) The Roman World. (London 1928) p. 418.

(٢) رواه البخاري في الجامع الصحيح : باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » .

(٣) « منوشاستر » الباب العاشر .

(٤) « منوشاستر » الباب العاشر .

(٥) R.C.Dutt. Ancient India. p. 324-343.

إذا قورن ذلك بما اعتاده العرب من الحرِّية ، وعزَّة النفس ، والاقتصاد في التعظيم والأدب قبل ظهور الإسلام . ظهر فرقٌ هائلٌ بين طبيعة الأمَّتين ، ووضع المجتمعين : العجميِّ ، والعربيِّ . فكانوا يخاطبون ملوكهم بقولهم : « أبيت اللعن » و « عم صباحاً » وقد بلغت هذه الحرية والتماسك والاحتفاظ بالكرامة بالعرب إلى حدٍّ كانوا يمتنعون في بعض الأحيان عن الخضوع لمطالب بعض ملوك العرب وأمرائهم . ومما يستطرف في ذلك : أنَّ أحد ملوك العرب طلب من رجلٍ من بني تميم في الجاهلية فرساً لهم . يقال لها « سكاب » فمنعه إياها . وقال أبياتاً أولها :

أبيت اللعن إنَّ سكاب علقٌ نفيسٌ لا تُعارُ ولا تُباع

وآخرها :

فلا تطمع أبيت اللعن فيها ومنعكها بشيءٍ يستطاع[1]

وقد سرت هذه الحرية . والاعتداد بالنفس . والأنفة من التذلل . إلى جميع طبقات الشعب ، وعمَّت الذكور والإناث ، يدلُّ على ذلك ما ذكره المؤرخون العرب عن سبب قتل عمرو بن كلثوم الفارس المشهور والشاعر الفحل ، لعمرو بن هند ملك الحيرة ، فقد ذكروا : أنَّ عمرو بن هند ملك الحيرة أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ، ويسأله أن يزير أمه . فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعةٍ من بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه ، فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، ودخل عليه عمرو بن كلثوم في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق ، قد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالظرف ، وتستخدم ليلى ، فدعا عمرو بمائدة ، ثم دعا بالظرف ، فقالت هند : « ناوليني يا ليلى ذلك الطبق ! » فقالت ليلى : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها ، وألحَّت . فصاحت ليلى : « واذلاه !

---

(١) ديوان الحماسة . باب الحماسة : ص/ ٦٧ ـ ٦٨ .

يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدَّم في وجهه . ووثب إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرُّواق ، فضرب به رأس عمرو بن هند ، وانتهب بنو تغلب ما في الرواق ، وساروا نحو الجزيرة . وقال في ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التي عدَّت من المعلقات السبع[١] .

ولما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم ، وهو في أبهته وسلطانه ، جلس معه ـ على عادة العرب ـ على سريره ووسادته فوثبوا عليه ، وأنزلوه ، ومغثوه . فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام . ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواءٌ ، لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه . فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أنَّ بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ، ولكن دعوتموني »[٢] .

وفي جزيرة العرب ، وفي مكة كانت الكعبة ، التي بناها إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ليُعبد الله فيها وحده ، ولتكون مصدر الدَّعوة والتوحيد إلى آخر الأبد .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ[٣] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقد بقيت كلمة « وادي بكة » في التوراة على ما دخل فيها من التحريف والتغيير ، إلا أن المترجمين حولوها إلى « وادي البكاء » وجعلوها اسم نكرة بدل علم ، وقد جاء في مزامير داود ما نصه : « طوبى لأناسٍ عزُّهم بك . طرق بيتك في قلوبهم . عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً » [مزامير[٤] ٨٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧] .

---

(١) مقتبس من كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة : ص/ ٣٦ .
(٢) الطبري : ج/ ٤ ، ص/ ١٠٨ .
(٣) بكة « علم للبلد الحرام » ، ومكة وبكة لغتان فيه وكثيراً ما يقع التبادل بين الميم والباء في اللغة العربية ، كلازم ولازب ، وثميك ونبيط .
(٤) الكتاب المقدس في مطبعتها في ساحة أستور من مدينة نيويورك . لندن ١٨٠٤م .

وقد انتبه علماء اليهود بعد قرون إلى أن هذه الترجمة كانت خاطئةً ، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية اعتراف بأنه وادٍ مخصوص لا ماء فيه . وأن في ذهن من صدرت عنه هذه العبارة صورة لوادٍ له أوضاع طبيعية عبر عنها بهذه الكلمة(١) .

وقد كان ناقلو هذه الصحف إلى الإنجليزية أكثر أمانة ودقةً في الترجمة من الذين قاموا بالترجمة العربية . فقد تركوا كلمة « بكة » كما كانت في الأصل ، وكتبوها بالحرف الاستهلالي . كما تكتب الأعلام ، ففي الترجمة الإنجليزية كما يلي(٢) :

Blessed is the man whose strength is in thee: In whose heart are the ways of them who passing thorough the Valley of Baca make it well. (psalms 89-5-6).

وكانت بعثته ﷺ استجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفعهما لقواعد الكعبة . وكان دعاؤهما كما نقله القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقد جرت سنة الله باستجابة أدعية المخلصين المبتهلين ـ فضلاً عن الأنبياء والمرسلين ـ والصُّحف السماوية والأخبار الصادقة مشحونةٌ بأمثلتها ، وقد جاء في التوارة نصٌّ يدل على استجابة هذا الدعاء الذي دعا به إبراهيم . فقد جاء في سفر التكوين ما لفظه :

« وعلى إسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جداً ، فسيلد اثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير » .

(١) jewish Encyclopedia. Y. 11p.415.

(٢) مستفاد من « التفسير الماجدي » للأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي وكتاب « رحمة للعالمين » : ج/١ . للقاضي سليمان المنصور فوري .

ولذلك صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول عن نفسه : « أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى »[١] .

وفي التوراة ـ على ما أصابها من التَّحريف ـ شواهد على أن هذا الدعاء قد استجيب . فقد جاء في كتاب التثنية (١٨ ـ ١٥) على لسان نبي الله موسى . ما نصه :

« يقيم لك الرب إلٰهك نبياً من وسطك من إخواتك مثلي ، له تسمعون » .

وقد دلت كلمة « إخوتك » على أن المراد بهم هم بنو إسماعيل . الذين هم أبناء عمومة بني إسرائيل ، وقد جاء ما يؤيد هذا ، بعد آيتين (١٨ ـ ١٩) من نفس الصحيفة . وهو كما يلي :

« قال لي الرب : قد أحسنوا فيما تكلموا ، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه . فيكلمهم بكلِّ ما أوصيه به » .

(سفر التثنية : ١٧ ـ ١٨) .

وكلمة « أجعل كلامي في فمه » يعني محمداً ﷺ فهو النبي الوحيد الذي جاء بكلام الله نصّاً وفصّاً . وأعلن الله عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] . وبقوله : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

أما صحف أنبياء بني إسرائيل . فهي لا تدَّعي أنها من كلام الله لفظاً ومعنىً ، ولا يتحرَّج علماء هذه الطوائف من إضافة تأليفها إلى الأنبياء ، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية ما يلي :

« إنَّ الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة ، من تأليف النبي موسى ، باستثناء ثماني آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى ، وما زال الربيون يعنون بتناقضات

---

(١) رواه الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ في مسنده .

واختلافات وردت في هذه الصحف ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم »[١] .

وأما الأناجيل الأربعة التي تسمى « العهد الجديد » فهي أبعد من أن تكون كلاماً إلهياً لفظاً ومعنىً ، يقتنع بذلك كل من أجال النظر فيها وتصفَّحها ، وفي الحقيقة هي بكتب السيرة والأخبار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله ، المبنية على الوحي والإلهام[٢] .

ثم إن موقع الجزيرة العربية الجغرافي ، يجعلها جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعمُّ العالم ، وتخاطب الأمم ، فهي مع كونها جزءاً من قارة آسيا تقع بمقربةٍ من قارة إفريقيا ، ثم قارة أوربا ، وكلٌّ منها مركز الحضارات ، والثقافات ، والدّيانات ، والحكومات ، القوية الواسعة ، وتمرُّ بها القوافل التجارية ، التي تصل بين بلادٍ مختلفة . وقد تصل بين قاراتٍ تحمل من بلد ما يستطرف وينتج فيه إلى بلدٍ يفتقر إليه .

وتقع هذه الجزيرة بين قوتين متنافستين : قوة المسيحية ، وقوة المجوسية ، وقوة الغرب ، وقوة الشرق ، وقد ظلَّت رغم ذلك كله محتفظة

---

(١) jewish Encyclopedia Vol. 9p. 589.

(٢) راجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » فصل الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ : ص/١٩٨ ـ ٢١٣ الطبعة الرابعة صدر عن دار القلم بدمشق .

أعلن الدكتور حسين كمال الدين رئيس قسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة الرياض في حديث صحفي نشر في القاهرة . أنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التي تؤكد أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في الكرة الأرضية ، أي : مركز الأرض ، وقد بدأ بحثه برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض عن مدينة مكة المكرمة ـ وذلك لتصميم جهاز عملي رخيص يساعد على تحديد القبلة ـ وفجأةً اكتشف على الخريطة أن مكة المكرمة تقع في وسط العالم .

ومن خلال بحثه هذا توصل إلى معرفة الحكمة الإلهية في اختيار مكة المكرمة لتكون مقرّاً لبيت الله الحرام ، ومنطلقاً للرسالة السماوية « الأهرام » ١٥/١/١٣٩٧هـ الموافق ٥/١/١٩٧٧م العدد ٣٢٨٩٨ السنة ١٠٣ .

بحرِّيتها وشخصيتها ، ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا في بعض أطرافها ، وفي قليلٍ من قبائلها ، وكانت في خير موقف لتكون مركزاً لدعوةٍ إنسانيةٍ عالميةٍ ، تقوم على الصعيد العالمي وتتحدَّث من مستوى عال ، بعيدةً عن كل نفوذٍ سياسيٍّ . وتأثيرٍ أجنبيٍّ .

لذلك كلِّه اختار الله الجزيرة العربية ، ومكَّة المكرمة ، لتكون مبعث الرسول ، ومهبط الوحي ، ونقطة انطلاقٍ للإسلام في العالم .

و ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

* * *

مكة زمن البعثة
وعند ظهور الإسلام(١)

مكة مدينة لا قرية :

يتخيَّل كثير من الناس ممن لا علم لهم بأحوال العصر الذي كانت فيه البعثة ، وليس لهم اطلاعٌ واسعٌ على أيام العرب ، وأخبارهم ، وشعرهم ، وعوائدهم أن مكة كانت قريةً صغيرةً ، وكانت الحياة فيها في طور الطفولة العقلية ، والاجتماعية ، والحضارية ، وكانت أشبه بمسكن للقبائل ، فيه مضارب من الشعر ، تسود فيها حياة الخيام ، بين معاطن الإبل ، ومرابض الغنم ، ومرابط الخيل ، متناثرةً في حواشي الوادي ، وشعاب الجبال ، يتبلغ أهلها ببلغةٍ من العيش ، ويتعيشون على الخبز القفار ، أو لحم الإبل الذي لم يحسن شواؤه ولم يكمل استواؤه ، يلبسون اللباس الخشن الذي يتَّخذونه من أصواف الإبل ، وأوبارها ، لا شأن لهم بتوسع في المطاعم والمشارب . أو تأنقٍ في اللباس ، أو لينٍ من العيش ، ورقةٍ في الشعور ، وتوسعٍ في الخيال .

إنَّ هذه الصورة القاتمة لمكة فضلاً عن أنها تقلِّل من أهمية البعثة المحمدية وعظمتها ، لا تتَّفق مع الواقع التاريخيِّ ، ومع ما تناثر في كتب التاريخ ودواوين الأدب ، والشعر الجاهليِّ من وصف مكة ، وما كان عليه أبناؤها في منتصف القرن السادس المسيحي من آدابٍ ، وأعرافٍ ، وعاداتٍ ومظاهر كثيرةٍ في الحياة . قد انتقلت من طورٍ بدائيٍّ بدويٍّ إلى طور بدائي

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد الثالث والعشرون عام ١٩٧٨م .

مدنيٍّ ، ولا تتَّفق مع ما وصفها القرآن بنعوتٍ وأسماءٍ لا تليق بقريةٍ صغيرةٍ ، وحياةٍ بدويَّةٍ ، فقد سماها « أم القرى » في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] وقوله ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين : ١ ـ ٣] وقوله ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[1] [البلد : ١ ـ ٢] .

والحق أنَّ مكة قد انتقلت في منتصف القرن الخامس الميلادي ، من طور البداوة إلى طور الحضارة ، وإن كانت حضارة بالمعنى المحدود ، وخضعت لنظام يقوم على اتفاق تطوعي ، وتفاهم جماعي ، وتوزع للمسؤوليات والمهام ، وكان ذلك على يد قصيٍّ بن كلاب جدِّ الرسول الخامس ، وكان عمران مكة بطبيعة الحال محصوراً في نطاقٍ ضيّقٍ ، وكانت مكة بين الأخشبين ، وهو جبل « أبي قبيس » المشرف على الصفا ، والآخر الجبل الذي يقال له « الأحمر » ، وكان يسمى في الجاهلية بـ « الأعرف » وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، إلا أن وجود البيت في هذا الوادي ، وما كان يتمتع به جيرانه وسدنته بصفةٍ خاصة ، وسكان الوادي بصفةٍ عامَّة ، من شرفٍ ومكانةٍ ، وأمنٍ ، كان مغرياً لكثير من القبائل العربية ، وخصوصاً المجاورة ، للانتقال إلى جوار البيت ، فازداد العمران ، وتوسَّع النطاق على مرِّ الزمان ، وحلَّت البيوت المرصوفة بالحجر ، أو المبنية بالطين والحجر محل الخيام والأخبية ، وانطلقت الحركة العمرانية ممايلي المسجد الحرام إلى بطحاء مكة في أعلاها وأسفلها ، وكانوا يبنونها أول الأمر بحيث لا تستوي على سقوف مربعة احتراماً للبيت ، ثم هان عليهم ذلك بالتدريج ، فلم يروا ذلك بأساً ، وتوسعوا فيه ، إلا أنهم كانوا لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة .

وزعم بعض أهل الأخبار أنَّ أهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مدورةً تعظيماً

---

(١) ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، فكثير ما يطلق لفظ القرية على البلد ، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : « والظاهر أنَّ مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » ، تفسير ابن كثير ، ج٦ ، ص٢٢٥ دار الأندلس .

للكعبة وأول من بنى بيتاً مربعاً ، « حميد بن زهير » فاستنكرته قريش .

وكانت بيوت أثريائها وساداتها مقامةً بالحجر ، وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان ليتمكن النساء من الخروج من الباب الآخر ، عند وجود ضيوف في الدار . (ج٤ ، ص٥٢) .

نشأة مكة الجديدة وصاحبها :

كانت نشأة مكة الجديدة على يد قصيٍّ بن كلاب ، فهو الذي جمع قريشاً ، وأسكنهم مكة ، وخطَّ لهم الرباع[1] ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم ، واختط بنوه من بعده مكة رباعاً ، فكانوا يقطنونها ، ويبيعونها ، وأقامت على ذلك قريش معهم ، ليس بينهم اختلاف ، ولا تنازع .

تنظيم حياة وتوزيع مناصب ومسؤوليات :

تملك قصيٌّ على قومه وأهل مكة ، وكانت إليه الحجابة ، والسقاية[2] والرفادة[3] ، والندوة ، واللواء .

وهو الذي أسس دار النَّدوة لاصقةً بالمسجد الحرام ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة وهي دار قصيٍّ بن كلاب ، وهي دار الشورى لقريش ، ودار الحكم والمجتمع في مكة ، فما تنكح امرأة ، ويتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في امر نزل بهم ، ولا يعقدون لواءً لحرب قومٍ من غيرهم إلا في هذه الدار ، وما تدرع جاريةٌ إذا بلغت إلا في هذه الدار ، يشقُّ عليها فيها درعها ، ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، وكان أمره في قومه في حياته

(١) ذكرها أبو الوليد الأزرقي (م٢٢٣هـ في كتابه « أخبار مكة » بتفصيل ، والرباع المنازل ، وما حولها ، واحد ربع بالفتح .

(٢) معنى سقاية الحاج أنهم كانوا يملؤون للحجاج حياضاً من الماء يحلُّونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكَّة .

(٣) الرفادة : طعام كان يصنع للحجاج على طريق الضيافة ، وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدِّمه له من الخرج الذي تخرجه كلَّ سنة (الخضري ـ ٣٦) .

ومن بعد موته كالدين المتبع ، لا يعمل بغيره ، ولم يكن يدخل دار الندوة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة ، ويدخلها بنو قصي جميعاً ، وحلفاؤهم كبيرهم ، وصغيرهم ، وكانت دار الندوة خاصةً بهاشم ، وأميَّة ، ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وتيم ، وعدي ، وأسد ، ونوفل ، وزهرة ، وهؤلاء عشرة رهط من عشرة أبطن .

وانقسمت المناصب بعد موته ، فكان في بني هاشم السقاية ، وفي بني أمية العقاب راية قريش ، وفي بني نوفل الرفادة ، وكان في بني عبد الدار اللواء والسدانة مع الحجابة ، وكان في بني أسد المشورة ، فلم يكن رؤساء قريش يتفقون على أمر حتى يعرضوه عليه ، فإن وافقه ؛ ولا هم عليه ، وإلَّا تخيَّر ، وكانوا له أعواناً .

وكانت المسؤوليات موزعةً بين رجالٍ من قريش ، أقرَّت لهم بالفضل وحصافة الرأي ، فكانت إلى أبي بكرٍ الصديق ـ وهو من بني تيم ـ الأشنان وهي الديات والمغرم . فكان إذا احتمل شيئاً ، فسأل فيه قريشاً صدَّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتمل غيره ، خذلوه ، وكان إلى خالد بن الوليد ـ وهو من بني مخزوم ـ القبَّة والأعنة ـ أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنَّة فإنه كان على خيل قريش في الحرب ، وكان إلى عمر بن الخطاب ـ وهو من بني عدي ـ السفارة ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيْرهم حرب بعثوا سفيراً ، وإن نافرهم حيٌّ بمفاخره ؛ جعلوه منافراً ، ورضوا به ، وكان إلى صفوان بن أميَّة ـ وهو من بني جمح ـ الأيسار ، وهي الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر هام حتى يكون هو الذي يسيره على يديه ، وكان إلى الحارث بن قيس الحكومة والأموال المحجرة ؛ التي سموها لآلهتهم ، وكانوا يتوارثون هذه المكارم كابراً عن كابر .

النشاط التجاري وحركة التصدير والاستيراد :

وكانت لقريش رحلتان تجاريتان ، إحداهما إلى الشام في زمن الصيف ، والأخرى إلى اليمن في زمن الشتاء ، وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً ،

يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب البيت داخل حدود الحرم ، والناس يهرعون إلى هذه الأسواق ويؤمونها من جهات الجزيرة البعيدة ، ليقضوا منها حاجتهم ، ويتزودوا لقومهم ، وقد ذكرت أسواق كانت في مكة يستدلَّ بها على ما وصلوا إليه من مدنية وتطوُّر ، منها سوق العطارين ، ومنها سوق الفاكهة ، وسوق الرطب ، وكان مكان للحجامين والجلاقين ، وكانت رحبةً واسعةً ، كانت تباع فيها الحنطة ، والسمن ، والعسل ، والحبوب ، يحملها العير من الخارج ، وكان اليمامة ريف مكة[1] ، وكان زقاق للحذائين ، وسوق للبزازين .

وكانت لأهل مكة منتزهات ينتجعها المكيُّون في الأصائل ، من شهور القيظ ، وكان المتنعِّمون فيهم يشتون بمكة ، ويصطافون بالطائف ، وكان كثيرٌ من فتيانهم اشتهروا بالأناقة في الحياة ، والتجمُّل في اللباس ، وكانت كسوة بعضهم تقوَّم بمئاتٍ من الدَّراهم .

وقد نشطت الحركة التجارية في مكَّة ، فكان تجارها يتجوَّلون في بلادٍ كثيرةٍ من أفريقيا ، وآسيا ، ويحملون من كلِّ بلدٍ ما يُستطرف ، ويُستظرف فيها ، وما تشتدُّ إليها الحاجة في بلادهم ، فكانوا ينقلون من أفريقيا : الصمغ والعج ، والتبر ، وخشب الأبنوس ، ومن اليمن : الجلود ، والبخور ، والثياب ، ومن العراق : التوابل ، ومن حاصلات الهند : الذهب ، والقصدير ، والحجارة الكريمة ، والعاج ، وخشب الصندل ، والتوابل ، والزعفران ، ومن مصر والشام : الزيوت ، والغلال ، والأسلحة ، والحرير ، والخمور ، وكانوا يرسلون إلى بعض الملوك والأمراء ما يستطرف من بضائع مكَّة ، وكان من أعجب ما يختار منها الأدم ، وهي الجلود ، كما فعلت قريش حين بعثت إلى النجاشيِّ ـ ملك الحبشة ـ عبد الله بن ربيعة وعمرو بن

---

(١) لذلك لما منع ثمامة بن آثال ـ سيد بني حنيفة ـ حمل الحنطة إلى مكة بعد ما أسلم ، جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (زاد المعاد ، ج١ ، ص٣٧٧ ، ورواه مسلم في صحيحه) .

العاص بن وائل لاسترداد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فأرسلوا معهما من الهدايا مما يستطرف من متاع مكّة ، وكان الأدم .

وكانت من النساء تاجرات ، لهنَّ نشاط في إرسال القوافل التجارية إلى الشام وغيرها ، اشتهرت فيهن خديجة بنت خويلد ، والحنظلية أم أبي جهل ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء : ٣٢] .

الحالة الاقتصادية والعملة والمكاييل :

وهكذا فاقت مكة في التجارة وأثرى كثيرٌ من أبنائها ، وتضخّمت رؤوس أموالهم ، يدلُّ على ذلك أنَّ عير قريش التجارية التي كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر بلغت ألف بعير ، وبلغ المنقول على أثقالهم خمسين ألف دينار .

وكانوا يتعاملون بالعملة الرومانية البيزنطية والعملة الإيرانية السّاسانية(١)

---

(١) يبدو من الاستقراء الكثير ، وتتبع ما كتب في الموضوع : أنَّ العملة في العصر الجاهلي ، وفي صدر الإسلام كانت على نوعين : (١) دراهم (٢) دنانير . أما الدراهم فكانت على نوعين كذلك . نوع عليه نقش فارس . وتسمى بغلية ، وسوداء دامية ، والآخر عليه نقش الروم ، وتسمى غالباً طبرية وبيزنطية ، وكانت كلُّها من الفضة ، وكانت مختلفة الأوزان ولهذا كان أهل مكة في الجاهلية يتعاملون بها وزناً لا عداً ، ويتلخَّص من أقوال العلماء . أنَّ الدرهم ـ وهو الذي اعتبره الشرع خمساً وخمسون حبة من الشعير الوسط في الوزن . وتزن العشرة من الدراهم سبعة مثاقيل من الذهب ، ووزن المثقال من الذهب الخالص اثنتان وسبعون حبة ، وعلى ذلك حكى ابن خلدون الإجماع .
وكانت النقود الفضية هي الشائعة ، الكثيرة الاستعمال عند العرب في عصر النبوة ، ولهذا قال عطاء : « إنما كان إذ ذاك الورِق ، ولم يكن الذهب » (مصنف ابن أبي شيبة ج ـ ٣ ، ص٢٢٢) .
أما الدَّنانير فكانت من الذهب ، وكانت في الجاهلية وأول الإسلام بالشام ، وعند عرب الحجاز ، كلها رومية تضرب ببلاد الروم عليها صورة الملك ، واسم الذي ضربت في أيامه مكتوبة بالرومية ، كما قال ابن عبد البر في التمهيد ، وكلمة « الدينار » معربة من DENARIUS ، وكانت عملة رومية قديمة ، ولا يزال لها رواج =

وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم والمكاييل ، منها : الصاع ، والمدُّ ، والرَّطل ، والأوقية ، والمثقال ، ويعرفون من مفردات أثقالها أنواعاً كثيرة ، وعندهم علم بالحساب اعتمد عليه القرآن في ذكر السِّهام والفرائض .

أثرياء قريش ومترفوها :

وكانت بيوتٌ وأسرٌ اشتهرت بالثراء وسعةٍ في المال ، ورقَّةٍ في العيش ، يمتاز فيها بنو أمية ، وبنو مخزوم ، وكان ممن اشتهر في الثراء ، وجمع الأموال ، واقتنائها وتنميتها ، الوليد بن المغيرة ، وعبد العزَّى (أبو لهب) ، وأبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية ، وهو الذي أسهم بثلاثين ألف دينار في القافلة التي كان يقودها أبو سفيان ، وعبد بن أبي ربيعة المخزومي ،

= في بعض البلاد الأوربية ، وقد جاء ذكرها في الإنجيل مراراً . وكان الدينار يزن مثقالاً . ووزن المثقال من الذهب الخالص كما قدمنا اثنتان وسبعون حبة من الشعير الوسط ، والمشهور أنَّه لم يتغير في جاهلية ولا إسلام ، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية : أنَّ الدينار البيزنطي يزن ٤,٥٥ من الجرامات وأثبت المستشرق ـ زمباور ـ في هذا الكتاب : أنَّ المثقال المكي (كذلك) يبلغ وزنه ٤,٥٥ من الجرامات (راجع مادة « دينار » ، ج٩ ص٢٧٠) والنسبة بين الدرهم والدينار : هي نسبة ٧ : ١٠ فالدرهم ٧/١٠ من المثقال .

أما المعادلة في الثمن ، فقد ثبت من كتب السنة . ومذاهب الفقهاء وتقرَّر تاريخياً : أنَّ الدينار يصرف في ذلك العصر بعشرة دراهم ، وقد جاء في سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : كانت قيمة الدية على عهد الرسول ﷺ ٨٠٠ دينار أو ٨٠٠٠ درهم ، وبذلك عملت الأمة من الصحابة فمن بعدهم حتى استقرَّ الإجماع على ذلك ، ويدلُّ على ذلك دلالةً صريحةً ما جاء في الأحاديث المشهورة من التصريح بنصاب الدرهم ، أو بمقدار الواجب فيها ، وما ذهب إليه الجمهور الأكبر من الفقهاء : أنَّ نصاب الذهب عشرون ديناراً ، فثبت من ذلك أن الدينار الواحد في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام كان يساوي في الثمن عشرة دراهم ويعادلها ، وقد قال الإمام مالك في الموطأ : السنة التي لا اختلاف فيها عندنا ، أنَّ الزكاة تجب في عشرين ديناراً عيناً ، كما تجب في مئتي درهم ، (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) للآلوسي (التراتيب الإدارية) لعبد الحي الكتاني (فقه الزكاة) ليوسف القرضاوي ، « التفسير الماجدي » وأكثره من فقه الزكاة) .

واشتهر منهم عبد الله بن جدعان التيمي الذي كان يشرب في كأسٍ من الذهب ، وكان يطعم عدداً كبيراً من المساكين والجيعان ، وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء قريش ، ينفق أمواله في الناس ، ويتعامل بالربا ، حتى جاء الإسلام ، وكان الفتح ، وأعلن رسول الله ﷺ بإلغاء الأموال الرِّبوية ، وبدأ ذلك بعمه العباس بن عبد المطلب ، وأعلن في فتح مكة « وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

وكان منهم مترفون لهم مجالس سمر ، ولهم أرائك منصوبةً وموائد ممدودةً ، ونواد للشراب يلهون فيها ، ويسكرون .

وكانت عامة مجالس أشرافهم أمام البيت ، ينشدون فيها الشعر ، ويحضرها بعض كبار شعراء الجاهلية ، مثل لبيد بن ربيعة صاحب المعلقة المشهورة ، وقد ذكر أنَّ عبد المطلب بن هاشم كان يوضع له فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه في ذلك ، حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له .

الصناعات والثقافة والآداب في مكة :

ولم تكن للصناعات مكانةٌ كبيرةٌ عند أهل مكَّة ، بل كان عندهم نوع احتقار لها ، وتعيُّرٍ منها ، ولم يباشرها في عامة الأحوال إلا الموالي ، وأبناء العجم ، إلا أنَّه قد وجدت بعض الصناعات كانوا مضطرين إليها ، ومارسها بعض أبناء مكَّة العرب ، فقد روي أنَّ خبَّاب بن الأرت كان قيناً يعمل السيوف ، وكانوا يلجؤون في صناعة البناء ـ وكان لا بدَّ منه ـ إلى عمالٍ من الروم ، أو الفرس .

وكان منهم كتاب يعرفون الكتابة والقراءة ، وإن كانت الأمِّيَّة غالبةً عليهم ، ولذلك سماهم القرآن بـ « الأميين » ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وكانت مكة وأهلها مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذَّوق ، والظُّرف ، والأناقة ، شأن العواصم والمدن الرئيسية في كلِّ قطرٍ ، عريقةً في الآداب ، أما

لغتهم فكانت هي الميزان ، وهي المرجع ، وعليها الاعتماد في سائر أطراف الجزيرة ، وكانوا أبلغ العرب ، وأفصحهم ، وأصحَّهم تعبيراً ، ونطقاً ، وأبعدهم عن الهجنة ، أو الرطانة ، وتأثير الاختلاط بالعجم ، وكان حظُّهم من تناسب الأعضاء في اعتدال الخلق ، والخلق ، والهندام ، وحسن الشارة أكثر من أهل النواحي الأخرى ، حتى كانوا شامةً بين الناس ، يجمعون بين الصفات التي يسمى مجموعها بـ « الفتوة » و « المروءة » ، وتغنى بها الشعراء العرب وخطباؤهم ، لذلك كانوا أئمة الناس في الشر والخير .

وكان أكثر عنايتهم بالأنساب وأخبارها ، ثمَّ بالشعر ، ثم بالنجوم ، والأنواء ، والعيافة ، وبشيءٍ يسير من الطبِّ يقوم على التجربة ، والتناقل ، وشيءٍ كثير من حلية الخيل ، والمعرفة الدقيقة بأعضائها وصفاتها ، والتفرُّس بالرجال والخيل ، وشاعت فيهم طرقٌ للعلاج ، كالكي ، والبتر ، والفصد ، والحجامة ، وتناول الأدوية .

القوة الحربية :

أمَّا قوَّة مكة الحربية ، فكانت قريش تؤثر السلم والهدوء في عامة الأحوال ، إذا تركت وشأنها ، شأن الشعوب والمجتمعات التي أكبر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة ، ومسير القوافل ، وتنظيم الأسواق ، وتوجه الرواد من كل صوبٍ إلى بلدها ، والتقائهم التقاءً يفيدها إجلالًا دينياً ، وفائدةً اقتصادية ، ويدرُّ عليها الأرزاق الكريمة ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣ ـ ٤] .

لذلك كانت قريش ـ ما لم تُتحدَّ عقيدتها ، ولم تثر غيرتها الدينية أو القبلية ـ تؤمن بمبدأ « التعايش السلمي » ، ولكنَّها رغم كل ذلك كانت قوةً حربيةً يحسب لها الحساب ، وكانت شجاعتها مضرب المثل ، وكانت مشهورةً بالفروسية العربية ، و « الغضبة المضرية » معروفة في جزيرة العرب وآدابها وأمثالها .

ولم تكتف قريش بقوتها الذاتية في الحروب ، ولكنَّها كانت تستخدم قوة الأحابيش ، وهم بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة ، من كنانة وخزيمة بن مدركة ، تحالفوا مع قريش ، وكان لقريش عددٌ كبيرٌ من العبيد والموالي ، الذين كانوا يقاتلون في صفوفها ، فكانت تستطيع أن توجِّه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل ، وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب ، وأكبر قوةٍ حربيةٍ عرفها تاريخ الجزيرة العربية في العصر الجاهلي .

كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية :

وبهذا المركز الديني ، والمكانة الاقتصادية ، وقيادة النشاط التّجاري ، والتقدُّم في المدنية والآداب ، مكة كبرى مدن الجزيرة العربية ، وبدأت تنافس صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة ، بل إنَّها تفوَّقت عليها ، بعد ما حدث باليمن من استيلاء الحبشة عليها ، وتملك الفرس لها في منتصف القرن السادس المسيحي ، وفقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان الشيء الكثير من العظمة والأبَّهة . فأصبحت مكة بعد ذلك كله هي عاصمة جزيرة العرب الرُّوحية ، والاجتماعيَّة من غير منافسٍ ولا مشارك .

الناحية الخلقية :

وكانت الناحية الخلقية ضعيفةً ـ غير الأعراف والآداب والقيم الجاهلية التي كانوا يؤمنون بها ، ويعضُّون عليها بالنواجذ ـ فقد فشا فيهم القمار ، والميسر ، وافتخروا به ، وفشت فيهم الخمر ، وانتشرت القيان ، ومجالس اللهو . وحفلات العزف ، يُقدَّم فيها الشراب ، وفشا فيهم بعض الفواحش ، وقد وجد الظلم والقسوة ، وغمط الناس ، وبطر الحق ، وأكل أموال الناس بالباطل .

ولا تصوير للحالة الخلقية التي كان يعيشها أهل الجزيرة بصفةٍ عامَّةٍ وأهل مكة بصفة خاصَّة ، أبلغ وأصدق من تصوير جعفر بن أبي طالب الهاشمي

القرشي ـ وهو ابن مكة الأصيل ـ للحياة العربية والأخلاق الجاهلية أمام النجاشي ، وقد جاء فيه :

« أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضعيف[١] » .

الناحية الدينية :

وكانت الناحية الدينية أضعف ـ بحكم بُعْدِ العهد بالنبوات ، وفشو الجهل ، وانتشار الوثنية ؛ التي اقتبسوها من الأمم المجاورة ، فغلوا فيها ـ من الناحية الأدبية والحضارية ، فأغرقوا في الوثنية ، وأولعوا بالأصنام ، فكان في جوف الكعبة وفنائها ثلاثمئة وستون صنماً وكان كبيرهم عندهم « هبل » وهو الذي نادى به أبو سفيان بعد وقعة أحد ، فقال : « أعل هبل » وكان على بئرٍ في جوف الكعبة وهي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة ، وكان بالعقيق الأحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب . وكان أمام البيت صنمان « أساف » و« نائلة » ، وموضعهما عند الكعبة ، أحدهما بلصق الكعبة والآخر بموضع زمزم ، فنقلت قريش الذي بلصق الكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ، وكان على الصفا صنم ، يقال له « نهيك مجاود الريح » وعلى المروة صنم ، يقال له « مطعم الطير » .

وكان في كل دار من مكة صنم يعبدونه ، وكانت « العزَّى » قريباً من عرفات ، وكان عليها بيت ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام ، وكانت « الخلصة » بأسفل مكة . وكانوا يلبسونها القلائد ويهدون إليها الشعير والحنطة ، ويصبون عليها اللبن ، ويذبحون لهـا ، ويعلقون بيض النعام بها ، وكانت الأصنام يطاف بها في

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ، ق١ ، ص٢٣٦ .

مكة ، فيشتريها أهل البادية ، ويخرجون بها إلى بيوتهم .

وكذا وصلوا ـ رغم ما طبعوا عليه من الفتوة ، وخلال المروءة ، وكثير من الأخلاق العربية الكريمة ـ إلى درجةٍ سخيفةٍ راعنةٍ من الوثنية ، وعبادة الأصنام ، والتمسك بالخرافات والأوهام ، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحية ، والبعد عن الإبراهيمية الحنيفية السمحة ، درجة لم يصل إليها إلا النادر من الشعوب والأمم .

هذه مكة في منتصف القرن السادس المسيحي عند بعثة الرسول الأعظم ﷺ وطلوع شمس الإسلام من أفقها المظلم ، وصدق الله العظيم : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1] [يس : ٦] .

* * *

(١) اعتمد العلامة الندوي في كتابة هذا الفصل على إشاراتٍ عابرةٍ في كتب التفسير ، والحديث ، ومعلوماتٍ مبعثرة جاءت في كتاب « الأصنام » للكلبي (م١٤٦هـ) و « السيرة النبوية » لابن هشام (م٢١٣هـ) ، و« أخبار مكة » للإمام أبي الوليد محمد الأزرقي (م٢٢٣هـ) ، و« بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للسيد محمود شكري الآلوسي (م١٣٤٢هـ) واستفاد من كتاب « تاريخ مكة » للأستاذ أحمد السباعي ، وكتاب مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف .

مأثرة النبوة المحمَّديَّة(١)

أهمية الإنسان :

إنَّ مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان ، وفيه سرُّ سعادته وشقائه ، فإذا وجد الإنسان الحقيقيُّ ، وفقد كلَّ ما يعتزُّ به هذا العالم من ثروةٍ وزينةٍ ، وجمال ؛ لم يكن رزءاً كبيراً ، أو خسارةً فادحة ، وكان وجود الإنسان الحقيقيِّ خلفاً لكلِّ فائت ، وعوضاً عن كلِّ مفقود ، وسدَّاً لكل عوز ، وأعاد الإنسان إلى العالم بنشاطه ، وحيويته ، وإنتاجه ، وعزيمته كلَّ ما فقده هذا العالم ، أجمل وأكمل ، وأكثر وأوفر ، وإذا خير هذا العالم ، أو من يهمُّه أمره بين الإنسان من غير شيءٍ وبين كلِّ شيءٍ من غير الإنسان ، واستعمل عقله ، وما وهبه الله من قوَّة الرشد والتمييز ؛ لكانت خيرته « الإنسان » من غير شكٍّ ، ومن غير تردُّدٍ ، فالإنسان هو الذي خلق له هذا العالم ، وبسببه نال هذه القيمة والشرف .

ليس شقاء هذا العالم في فقد الآلات والوسائل إنَّ شقاءه في سوء استعمالها ، وفي وضعها في غير محلِّها . إنَّ سبب كلِّ نكبةٍ نكب بها هذا العالم في تاريخه الطويل المليء بالأحداث ، هو ضلال الإنسان وانحرافه عن الجادَّة المستقيمة ، وعن فطرته السليمة ، أمَّا القوى والوسائل ؛ فلم تكن إلا آلاتٍ صماء بريئةً في يده ، تمتثل أمره ، وتنفِّذ رغباته ، وإذا كانت لها جناية ؛ فهي أنَّها ضمَّت إلى هذه النكبة سرعةً في الوصول ، والانتشار ، وسعةً في المساحة والامتداد .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد الثامن ، عام ١٩٦٣م .

أسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها :

إنَّ هذا الكون الواسع مليء بالأسرار مليء بالعجائب ، وإنَّ جماله ليبهر الألباب ، ويثير الدَّهشة والاستغراب ، ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانيَّة وعجائبها ، وكنوزها ، ودفائنها ، وإلى سعة القلب الإنسانيِّ ، وبعد أغواره ، وإلى سموِّ الفكر الإنسانيِّ ، وسعة آفاقه ، وإلى لوعة الرُّوح الإنسانيَّة ، وقلقها ، إلى آمالها البعيدة ؛ التي لا تكاد تنتهي ، وإلى طموحه ؛ الذي لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدارٍ من الفتوح ، واللَّذات ، والخيرات ، والمسرَّات ، والملك ، والسيادة ، والنعيم ، والسعادة ، وإلى مواهبه المتنوعة المتناقضة ، الواسعة ، الكثيرة ؛ التي لا تعدُّ ولا تحدُّ ؛ كان هذا الكون الواسع أمامه قطرةً من بحرٍ ، أو ذرَّةً من صحراء ، وغاب في سعة القلب الإنسانيِّ وأعماقه ، كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزَّاخرة ، إنَّ الجبال تتضاءل أمام إيمانه الواثق الراسخ ، وإنَّ النار لتنطفيء ، وتحقر نفسها أمام حبِّ الولوع الوهاج ، وإنَّ البحار لتخجل أمام دمعةٍ طاهرةٍ انحدرت من عين الإنسان خشيةً لله ، أو رحمةً على ضعيفٍ ، أو ندامةً على تفريطٍ . إنَّ الإنسان إذا تجلَّى جمال سيرته ، وحسن خلقه ، ورقَّة عاطفته ؛ أزرى بكلِّ جمالٍ في هذا العالم ، وبهر كلَّ حسنٍ في هذا الكون . إنَّه واسطةُ العقد ، وبيت القصيد ، وأعظم آيةٍ من آيات الخلاَّق المبدع الحكيم ؛ الذي خلقه في أجمل صورةٍ وأكمل سيرةٍ ، وأحسن تقويم .

الإنسان فوق كلِّ مساومةٍ وتقويم :

إن العالم بما فيه من خزائن ، وكنوز ، وثروات ، وحكومات ، لا يستطيع أن يقوِّم عقيدة الإنسان التي لا تعرف الشكَّ والضعف . والحبَّ الذي لا يعرف المادة والأشكال ، والعطف الذي لا يعرف الفوارق والحدود ، والإخلاص الذي لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التي لا تعرف المساومة، وجزاء الشر بالشر ، والخدمة المخلصة التي لا تريد جزاءً ولا شكوراً . إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه ، وطلب قيمته عجز العالم عن مساومته ، وإذا اتَّسع وأرخى

لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها ؛ ضاق هذا العالم ، وانضوى حتى أصبح قفصاً صغيراً لا هواء فيه ، ولا نور ، إنه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ أغواره ، ولا يحاط بأسراره ، ولا تكتنه حقيقته ، ولا تنفد عجائبه ، وعلمه ، وحلمه ، وكرمه ، ونبله ، ومحبته ، ورحمته ، وعطفه ، وإحسانه ، ورقة شعوره ، ودقة إحساسه ، وإيثاره ، وزهده ، واعتداده بكرامته ، ونفيه لذاته ، واستعداده القريب لمعرفة ربِّه ، والتفاني في سبيل مرضاته ، وفي سعادة بني نوعه ، وتلقيه لكلِّ علمٍ دقيق عميقٍ ، ولكلِّ علمٍ مفيدٍ جديدٍ ، كلُّ ذلك مما تحار فيه الألباب ، ويقصر عنه ذكاء الأذكياء .

مأثرة النبوة المحمدية :

إنَّ وجود هذا الإنسان مفتاح كلِّ سعادة وخير ، وحلُّ كلِّ أزمةٍ ومشكلةٍ ، وإنَّ تقويمه إذا زاغ ، وتهذيبه إذا فسد ، وتكثيره إذا عز وندر ، وإعادته إذا ضاع وفقد ، موضوع كلِّ نبوة ، ومهمة كلِّ نبيٍّ في عصره ، وإنَّ وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة ، وبهذا الانتشار ، وفي صورةٍ أتمَّ لم يسمع بمثلها في التاريخ ، ولم تقع عليها عين السماء ، ولم تطلع عليها الشمس ، وإن انخراطهم في سلكٍ واحدٍ ، واجتماعهم في شملٍ واحدٍ ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحدٍ ، وهدفٍ واحدٍ مأثرة النبوة المحمدية ، ومعجزاتها الكبرى .

إنَّ محمداً ﷺ بدأ عمل تكوين الأفراد ، وتهذيب الإنسان من مستوى لم يبدأ نبيٌّ أو مصلحٌ عمله منه ، ولم يكلف به ؛ لأنَّه وجد مستوى أرفع منه بكثيرٍ ، وبلغ رسول الله ﷺ بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبيٍّ إليه ، بدأ من مستوى تنتهي هنالك الحيوانية ، وتبتدىء منه الإنسانية ، وبلغ به إلى مستوى هو منتهى الإنسانية ، ولا منزلة فوقه إلا النبوة ، وقد ختمت بمحمدٍ ﷺ .

واقعٌ أجمل من الخيال والشعر :

إنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء الأفراد معجزةٌ مستقلةٌ ، وآيةٌ من آيات النبوة ، ومأثرةٌ من مأثرها الخالدة ، وبرهانٌ ساطعٌ على أشرفية النوع الإنسانيِّ ، إنَّ

مصوِّراً لم يصوِّر بريشته البارعة ، ومخيِّلته السَّخيَّة صورةً أجمل ، وأبدع ممَّا كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإنَّ شاعراً لم يتخيَّل بخياله الخصب ، وقريحته الفيَّاضة ، ومقدرته الشعرية ، أوصافاً أجمل ، وسيرة أعطر ، وجمالاً أكمل ممَّا وجد في هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيدٍ واحدٍ ، فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً ؛ لم يصل بهم الخيال ، إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشؤوا في حجر النبوة ، وحضانتها ، وتخرَّجوا في مدرستها ، إنَّ إيمانهم الرَّاسخ وعلمهم العميق ، وقلبهم البار ، وحياتهم البعيدة عن كلِّ تكلُّفٍ وصناعةٍ ، وعن كلِّ رياءٍ ونفاقٍ ، وتجرُّدهم من الأنانية ، وخشيتهم لله ، وعفَّتهم ، ونزاهتهم ، وعطفهم على الإنسان ، ورقَّة مشاعرهم ، وشجاعتهم ، وجلادتهم ، وحرصهم على العبادة ، وحنينهم إلى الشهادة ، وفروسيتهم ، وفتوَّتهم ، وإحياؤهم الليل ، وزهدهم في حطام الدنيا ، وزخارف الحياة ، وعدلهم ، وسهرهم على مصالح الرعية ، وإيثار راحتها على راحتهم ، كلُّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في الأمم ولا سوالف في التاريخ .

الفرد الصالح في مختلف مظاهر ومجالات الحياة :

أبرز رسولُ الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدُّنيا ، المستهين بالمادَّة ، المتغلب عليها بإيمانه ، وقوته الرُّوحية ، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له ، وأنَّه خلق للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجراً ؛ فهو التاجر الصَّدوق الأمين . وإذا كان فقيراً ؛ فهو الرجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملاً ؛ فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً ؛ فهو الغنيُّ السخيُّ المواسي ، وإذا كان قاضياً ؛ فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً ؛ فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً ؛ فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادماً ، أو أجيراً ؛ فهو الرجل القوي الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامَّة فهو الخازن الحفيظ العليم .

اللبنات التي قام عليها المجتمع الإسلاميُّ :

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ وتأسست الحكومة الإسلاميَّة في دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورةً مكبَّرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً ، أميناً ، مؤثراً للآخرة على الدُّنيا ، متغلباً على المادة ، غير محكوم لها ، انتقل إلى صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته ، وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوَّة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومةً راشدةً مؤثرة للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياةٌ عامَّةٌ ، كلُّها إيمانٌ ، وعملٌ صالحٌ ، وصدقٌ وإخلاصٌ ، وجدٌّ واجتهادٌ ، وعدلٌ في الأخذ والعطاء ، وإنصافٌ مع النفس والغير[١] .

نجاح هذا الفرد في المحن والتجارب :

إنَّ هذا الفرد قد نجح في كلِّ اختبارٍ ومحنةٍ تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وبرز فيها كالإبريز الخالص والتبر المسبوك ، لا غشَّ فيه ، ولا زيف ، وأبرز في كلِّ موقفٍ دقيقٍ محرجٍ من قوَّة الإيمان ، وقوَّة الإرادة ، وقوَّة النفس ، وتأثير التربية النبويَّة ، ومن رقَّة العاطفة ، ومن دقَّة الشعور بالمسؤولية ، ومن المستوى الرفيع للأمانة ، والزهادة ، والإيثار ما لم يتوقعه علماء النفس ، والأخلاق ، ومن جربوا الإنسان ، وكتبوا تاريخه في العصور والأزمان المختلفة .

وكان من أدقِّ هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مسؤولًا أمام أحد ، ولا تراقبه عين ، ولا تناقشه محكمةٌ أو لجنةٌ ، يزهد فيما أبيح له ، وفي

---

(١) من رسالة « من غار حراء » للمؤلف .

خاصة ماله ، وفي النزر اليسير التافه الذي أباحته الشريعة ، وجرى به العرف ، واستهّان به الناس في كلِّ زمان .

زهد الولاة وتقشُّفهم في الحياة :

ومن أروع الأمثلة لذلك أنَّ امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين اشتهت حلوى ، واستفضلت من نفقتها من عدَّة أيامٍ ما تشتريه به ، فلما علم ذلك ردَّ الدريهمات إلى بيت المال ، وأسقط من نفقته كلَّ يومٍ ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنَّه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان ، وليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم ، وتتوسَّع به في المطاعم .

وهنا تصويرٌ أمين لموكب الخلافة ، وحكاية رحلةٍ رسميَّةٍ في مصلحةٍ حكوميَّةٍ لحاكم من أقوى الحكام في ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكةً ، والذي كان اسمه يخلع القلوب ، ويرجف البوادر من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكي هذه الرحلة العجيبة ويصوِّرها بقلمه البليغ .

« قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيليا على جملٍ أورق ، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ، ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وطاؤه كساءٌ أنبجاني ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة ، أو شملة محشوةٌ ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رمم وتخرَّق جنبه ، فقال : أدعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس فقال : اغسلوا قميصي ، وخيطوه ، وأعيروا لي ثوباً ، أو قميصاً ، فأتي بقميص كتان ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : كتان ، قال : وما الكتان ؟ فأخبروه ، فنزع قميصه فغسل ، ورقع ، وأتي به ، فنزع قميصهم ، ولبس قميصه . فقال له : الجلومس : أنت ملك العرب ، وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا ، وركبت برذوناً ، لكان ذلك أعظم في أعين الروم ! فقال : نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب لغير الله بديلاً ، فأتي ببرذون ، فطرح عليه قطيفة بلا سرج ،

ولا رحل ، فركبه بها ، فقال احبسوا احبسوا ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ! فأتي بجمله[١] » .

وروى الطبري قال : « خرج عمر وخلف علياً رضي الله عنهما على المدينة ، وخرج معه الصحابة ، وأغذُّوا السير ، واتخذ أبلَّة (على ساحل البحر الأحمر) طريقاً حتى إذا دنا منها تنحَّى عن الطريق ، واتبعه غلامه ، فنزل ، فبال ، ثم عاد فركب بعير غلامه ، وعلى رحله فروٌ مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس ، قالوا : أين أمير المؤمنين ؟ قال أمامكم (يعني نفسه) فذهبوا إلى أمامهم فجاوزوه ، حتى انتهى هو إلى أبلَّة ، فنزلها وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين أبلَّة ، ونزلها ، فرجعوا إليه[٢] .

نموذج إنساني رائع :

إنَّ هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهدٍ ، وتواضعٍ ، وإيثارٍ ، وعطفٍ ، ومواساةٍ ، وشجاعةٍ ، وعدلٍ ، وحكمةٍ ، وصدقٍ ، منتشرة في وصف الخلفاء الراشدين ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، لو جمعها مؤرخٌ ، أو أديبٌ ، أو عالمٌ من علماءِ النفس والأخلاق ، وكوَّن منها شخصيةً واحدةً ، أو صورةً موحَّدةً لكانت من أسمى السير البشرية ، ومن أجمل الصور الإنسانيَّة في المصوَّر الإنسانيِّ الكبير ، وفي المعرض البشريِّ التاريخيِّ العالميِّ ، ولكننا إذا لم نجد مع الأسف وصفاً كاملاً شاملاً ، وتصويراً جامعاً لهذه الجماعة الفردية التي أبرزتها للعالم تربية الرسول ﷺ وصحبته ، فإنَّنا نجد وصفاً لبعض الشخصيات ، يتَّسم بالبلاغة ، وحسن التصوير ، ودقَّة التعبير ، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ، ومدى نجاحها ، وإبداعها ، ونرى نموذجاً رفيعاً لهذا الجيل الذي ظهرت فيه معجزة الرسول في أروع مظاهرها ، وهي صفة علي بن أبي طالب ابن عمِّ الرسول ، ورابع الخلفاء الراشدين ،

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص٥٩ ، ٦٠ .

(٢) الطبري ج٤ ص٢٠٣ ، ٢٠٤ .

الذي نشأ في بيت الرسول ، وفي حضانته ، وتربيته ، وهي قطعةٌ تستحقُّ أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيراً ، وتعبيراً ، وتصويراً .
قال ضرار بن ضمرة ، وقد طلب منه الخليفة معاوية بن سفيان رضي الله عنه أن يصف له عليَّ بن أبي طالب الذي صحبه طويلاً ، وعرفه من قرب . فقال : « والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجَّر العلم من جوانبه ، ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدَّمعة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منَّا لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدِّين ، ويحبُّ المساكين ، لا يطمع القوي في باطله . ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه ، وهو يقول :

يا دنيا ! أبي تعرضت ، أم لي تشوفت ! هيهات ! هيهات ! غرّي غيري ، قد بَتَتُّكِ ثلاثاً لا رجعة فيك ! فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ! آه من قلة الزاد ، وبعد السَّفر ، ووحشة الطريق ! »[١] .

الجيل الإسلامي الأول :

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذي أنشأته دعوة الرسول ﷺ . وأحكمته تربيته من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كلِّه ، وأجملها ، وأكملها ، وأجمعها للمحاسن الإنسانية ، وقد وصفه أحد أفراده ، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ببلاغةٍ نادرةٍ ، وكلماتٍ موجزةٍ ، عميقةٍ ، دقيقةٍ ، زاخرةٍ

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي .

بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى ، فقال : « أبرز الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلُّهم تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإعزاز دينه »[١] .

وإذا قورن هذا الجيل بجيلٍ آخر ، رجح عليه في المجموع ، وكانت مآخذه ، ومما لا يخلو منه بشر ضئيلاً في جنب محاسنه ، ومظاهره العظيمة البشرية ، وروائع الكمالات الخلقية التي يخلو عنها التاريخ الإنساني ، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغاً ، ودقيقاً في قوله :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة ، فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم . وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قيس ما يوجد في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثير ، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض ، وهذا من الجهل والظلم »[٢] .

تأثير الرسالة المحمدية في الأجيال المتأخرة :

ولم يكن تأثير دعوة الرسول ﷺ وتعليماته ، وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلَّت ولا تزال المثل الكامل ، والنبراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميع الأحوال ، قاصراً على العهد الذي بعث فيه ، والجيل الذي أدركه ، وسعد بصحبته ، إنَّما كان كالشمس التي تونع في نورها وحرِّها الزروع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوَّة والحيوية من مكانها العالي ، فينتفع بها القاصي والداني ، لأنَّ دعوته إلى الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، واستحضار رقابة الله ، والخوف من سخطه ، وعقابه ، والطمع في أجره وثوابه ، والإشفاق من

---

(١) رواه الدارمي في مسنده .

(٢) منهاج السنة ج٣ ص٣٢٤ .

النار ، والحنين إلى الجنَّة ، وسيرته ﷺ في الزهد في حطام الدُّنيا ، والرغبة في الآخرة ، والشظف في العيش ، وإيثار الناس على نفسه ، وأسرته ، وعشيرته ، فيما يرفههم ويعينهم ، وكلَّما كان الرجل أبعد كان في الإيثار أحقَّ وأقرب ، وكلَّما كان أقرب كان في المنافع واللذائذ أبعد ، وفي الجهاد والمشقَّة والتضحية أقرب ، وكان أخذه بمكارم الأخلاق ، والأحاسيس الدقيقة الرقيقة التي لا يتخيلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال . كان كلُّ ذلك مدرسةً جامعةً عالميةً خالدةً ، ينسب إليها ، ويلتحق بها أجيالٌ بعد أجيال ، ويتخرَّج فيها علماء ، وزعماء ، وملوك ، وحكَّام ، وعباد ، وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق ، والإنسانية الأولية ، ثم فاقوا فيها ، وبذُّوا العالم والأمم في سموِّ أخلاقهم ، ولطافة حسِّهم ، ورقة شعورهم ، ودقة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملُّكهم لأسباب البذخ والترف ، ومفاتيح الخزائن ، وأَزِمَّة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفرادٌ يتفاوت بهم الزمان ، ويبعد بهم المكان ، ولكنَّهم زرع الإيمان ، وغرس النبوة ، وثمرة الدعوة الإسلامية ، ومأثرة نبوَّة محمَّدٍ ﷺ وإنتاجها ، وكل حسنٍ في سيرتهم وأخلاقهم مقتبسٌ من مشكاة النبوة المحمَّدية العالمية ، لا منة لآبائهم ، وبيئتهم ، وثقافتهم ، وذكائهم على هؤلاء الأفراد في هذه العقيدة ، وفي هذه السيرة ، وفي هذه الأخلاق ، فلولا دعوة رسول الله ﷺ وتعليماته ، ولولا حبهم العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته ، ولولا فضل الإسلام ؛ لكانوا في العقيدة عباد الأصنام ، وفي الأخلاق أشبه بالسباع والأنعام ، لا توحيد ، ولا تقوى ، ولا زهد ، ولا إيثار ، ولا عفو ، ولا سماحة ، ولا رقة عاطفة ، ولا كرم خلق .

بعض تلاميذ المدرسة المحمَّدية العالمية الخالدة وأمثلةٌ من حياتهم وأخلاقهم :

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجيها ، ومما غرسته النبوة المحمدية بعيداً عن مهد الإسلام ، وعن جزيرة العرب ، بعيداً عن عهد الرسالة والصحابة بعيداً عن الأصل المضريِّ ، والدَّم العربيِّ ، وهو السُّلطان صلاح

الدين بن أيوب الكرديُّ العجميُّ في القرن السادس الهجري[١] يقول عنه صديقه ورفيقه ابن شدَّاد :

إنَّه ملك ما ملك ، ومات ، ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية ومن الذهب إلى جرم واحدٌ صوريٌّ ، ما علمت وزنه .

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في خزانته ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل درهمٌ واحد .

وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السَّعة ، وكان نوَّاب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال ؛ حذراً أن يفاجئهم مهمٌّ ؛ لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته يقول في معرض حديث جرى : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب ، فما سمعته يقول : أعطينا لفلان[٢] .

ولما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب ، لم يوجد في خزانته ما يكفنونه ، وينفقون على تجهيزه ، يقول ابن شداد :

ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبَّةً واحدةً إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجًّى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلٍّ عرفه[٣] .

---

(١) توفي صلاح الدين عام ٥٨٩هـ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شدَّاد ص١٣ ، ١٤ .

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص٣٥١ .

ويتحدَّث مؤرخه الإنجليزي الشهير (Stanely Lan pool) في كتابه المشهور (صلاح الدين) فيقول :

إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئاً عن صلاح الدين غير ذلك الكرم ، وتلك السماحة التي عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه وردِّه للإسلام كان ذلك كافياً ليثبت : أنه لم يكن أعظم رجل في عصره فحسب ، في علو الهمَّة ، وفي العظمة ، والشهامة ، والفتوَّة ، بل كان أعظم رجل في هذا الشأن في كلِّ عصرٍ وزمان[١] .

ولم يزل هذ التأثير قويَّاً سخيَّاً بعيد المدى واسع الأرجاء والآفاق ، يصنع عجائبه ، ويظهر روائعه في بلادٍ تقع في أقصى العالم الإسلاميِّ ، وفي شعوبٍ حديثةِ العهد بالإسلام ، وفي رجالٍ لا يتصلون بدعاة الإسلام الأولين في نسبٍ ، أو لغةٍ أو ثقافةٍ ، يسلم أحدهم على يد داعيةٍ إسلاميٍّ ، أو مرشدٍ روحانيٍّ ، وينشأ في أولاده وأحفاده الأقربين ملكٌ في صورة ملك ، وزاهدٌ فقير في لباس ملك ، خشيةٌ وتقوى ، وعدلٌ وقسطٌ ، وعطفٌ ومواساةٌ ، ورحمةٌ وبرٌّ ، واحتسابٌ ونيَّةٌ ، وصدقٌ وإخلاصٌ ، لا توجد أمثلته في زهَّاد الأمم الأخرى ، وأحبارها ، ورهبانها ، فضلاً عن ملوكها وسلاطينها ، وأقتصر هنا في تاريخ الهند الإسلامي الطويل الزاهي بهذه النماذج الرفيعة ، على قصةٍ واحدةٍ لا تبلى جدَّتها وطرافتها ، ولا تنتهي روعتها على مرِّ الأيام وكثرة الإعادة والتكرار .

كان بين السلطان مظفر الحليم ملك كجرات (م٩٣٢هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجي ملك ماندو منافسةٌ قديمةٌ ، وقد كان الخلجي معتدياً مهاجماً دائماً يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الإسلامية ، التي يحكمها مظفر الحليم ، ويضطرُّ الحليم إلى الدفاع عن ملكه ، وردِّ الغارة عليه ، حتى حدث ما غيَّر الوضع ، وجعل من الملك المعتدي المدلِّ بقوته ، وأبَّهته طريداً لاجئاً يطلب من عدوِّه الكريم النفس الغوث والنجدة ، فقد استولى على ملكه

---

(١) أيضاً ص٣٠٥ .

الواسع الجميل وزيره الوثني مندلي راي ، واغتصب بلاده ، ولم يجد السلطان محمود ملجأً إلا في عطف عدوِّه القديم مظفر الحليم ، وفي حميَّته الإسلامية ، فلقي منه من البرِّ والكرم ، وحسن الإجابة ، وسرعة الإغاثة ما لا يصدر إلا عن رجل لا تأخذه حميَّةُ الجاهلية ، ولا يؤمن بالفلسفة المادِّيَّة « الانتهازية » فلم يستغلَّ هذا الوضع ، ولم يشمت بالعدو ، والسليب الضعيف ، بل انتهز هذه الفرصة لإرضاء الله وحده ، ولإخزاء الشيطان ، فتقدم بجيوشه الكثيفة المنصورة إلى مندو ، واهتمَّ بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته وحرية بلدٍ إسلاميٍّ منافس ، وإعادة الإسلام إلى مركزه واعتباره في هذه الدولة ، وتقدَّمت القوات البرهمية والإمارات الوثنية إلى إغاثة صديقها مندو ، ووقعت حرب طاحنةٌ مجنونةٌ كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد ، وهزم العدوَّ هزيمةً منكرةً ، وأحرقت الأميرات الوثنيات ، والحرم الملكي أنفسهنَّ على عادة ملوك راجبوت ، وعادت البلاد إلى الإسلام .

وهنا تجلَّى النبل الإنسانيُّ ، والخلق الإسلاميُّ في أروع مظاهرها ، فقد أشار أهل الرأي من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنيَّة الزاهية ، لقصورها البديعة التي لا يوجد لها نظير في الهند ، وقلاعها الحصينة ، وخزائنها الحافلة ، وخيراتها الدارَّة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف ، وقد فتحها الملك فتحاً جديداً واسترقَّها ، فاستحقَّها ، والملك للقوة والغلبة ، والبلاد للمنتصر .

ولما سمع الملك هذا الرأي ، وعرف ما تحدَّث به القادة نفوسهم ، أرسل إلى السلطان محمود يأمره بألا يأذن لأحدٍ من جيشه في دخول البلد ، وسأله السلطان البقاء في القلعة ، والاستجمام فيها مدَّةً من الزمان ، فلم يقبل ، وأمر جيوشه بالانصراف إلى أحمد آباد ، والعودة إلى ثكناتها ، وقال للخلجي إنني لم أتقدَّم إلى هذه البلاد إلا لرضا الله تعالى وحده ، وطمعاً في ثوابه ، وعملاً بقوله : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ [الأنفال : ٧٢] و « المسلم

أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله »[١] وقد تحقَّق ذلك ، وبيَّض الله وجهي ووجهك ، وبيَّض وجه الإسلام ، وقد سمعت من أصحابي ما لو عملت به لحبط عملي ، وضاع جهادي ، والفضل لك ليس لي ، فقد أكرمتني ، وكنت سبباً في هذه السعادة ، وأنا قافلٌ إلى بلادي ، لا أدري أن أحبط عملي ، وأخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهنا تحرَّك الجيش المنصور اللجب ، ورفع الفرسان أعنة خيلهم ، وانصرفوا راشدين .

وبعد أن فتح المظفر « مندو » ودخل محمود في البلد عزيزاً مكرماً ، أخذ صديقه المظفر ؛ ليتنزه ، ويطَّلع على ما في هذا البلد من خيرات وخزائن ، وجواهر ، وتحف ، فكان الأمر عجباً ، وكان البلد آيةً في الجمال ، والخصب ، والثروة ، وكثرة الترف ، وكثرة الجواري الحسان ، والفتيات البارعات في الجمال ، والسلطان مظفر مطرقٌ رأسه غاضٌّ بصره لا ينظر لا إلى هذا المال ، ولا إلى هذا الجمال ، فقال له محمود ، وهو يمرُّ بصديقه أمام الأميرات والحشم وبين الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ويحيين بثغورٍ بواسم : ما لك يا سيدي لا ترفع رأسك ، ولا تنظر إلى هذا المنظر ؟! فقال المظفر إنه لا يحلُّ لي يا محمود ! وقد قال الله : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور : ٣٠] فقال الملك الذكي إنهنَّ إمائي ، وأنا عبدك قد أسرتني ، وملكتني بإحسانك ، فهم عبيدٌ ، وهنَّ إماءٌ لك مرَّتين . ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق وعرف : أنَّ ما حرمه الله لا يحلُّه أحد .

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه ، وعفَّة باطنه ، وروحه ، وشدَّة خضوعه لتأثير الإسلام ، ولتأثير المثل العليا الإسلامية ؛ التي نشأ على حبها ، والتمسُّك بها في حياته .

إنَّه رجلٌ يغيب نسبه الإسلامي بعد واسطتين ، أو ثلاث في دياجير الكفر ، والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسَّابة الأسماء الإسلامية بعد جدِّه الذي

---

(١) معنى الحديث .

أسلم في أيام فيروز تغلق في القرن الثامن الهجري ، وتفاجئه أسماء عجمية هندية ، لا يعرف أصلها ، ولا يفهم معناها ، فلم يتعلَّم مظفر هذا النبل ، وهذا الورع إلا في مدرسة محمد ﷺ التي دخلها مخلصاً ، جادّاً ، مقدراً للإسلام نعمته ، ولمحمد ﷺ فضله ، ورفده . مقبلاً على هذا الدين بشغفٍ وإجلالٍ ، كارهاً للدين الذي كان عليه آباؤه ، وأبناء قبيلته ، وأسرته .

إنتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كلِّ الأممِ وفي جميع العصور :

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجية المنتجة من أبناءٍ كرامٍ بررةٍ في بلاد الشرق والغرب ، وفي بلاد العرب والعجم ، وفي قرونٍ متقدِّمةٍ ، ومتوسِّطةٍ ، ومتأخِّرةٍ ، وكم لهؤلاء الأبناء البارِّين العظماء من مآثر ، وبطولاتٍ ، ومحامد ، ومكارم في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة الإنسانيَّة ، وقد تجلَّى تأثير تربيتها ، وفضل مؤسسها في فتوة طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمَّة موسى بن نصير ، وذكاء أبي حنيفة والشافعي ، وصلابة مالك ، وأحمد بن حنبل ، وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالي ، وروحانية عبد القادر الجيلاني ، وتأثير ابن الجوزي ، وطموح محمد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوي ، ورقَّة عاطفة نظام الدين الدَّهلوي ، وسماحة فيروز شاه الخلجي ، وتبحر ابن تيمية الحرَّاني ، وحسن إدارة شير شاه السُّوري ، وقوة إرادة أورنك زيب التيموري ، وفي معارف شرف الدين يحيى المنيري ، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، ودعوة محمد عبد الوهاب التميمي ، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، ومن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين ، والعلماء الربانيِّين ، وإنَّ الفضل في كلِّ هذه العبقرية ، وفي مآثرهم العلمية والعملية الخالدة يرجع إلى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها ، وإلى العهد الزاهر الجديد الذي افتتح ببعثة محمدٍ ﷺ ، ووجدت فيه المواهب الإنسانيَّة الفائقة سبيلها ، ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها ، وينتفع بها ، ولا تزال هذه المدرسة ـ مهما قسا عليها الزمان ، وتنكَّر لها المتنكرون ـ تنجب أفذاذاً في التاريخ وتؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها ، وتغيث الإنسانيَّة

بقادةٍ مخلصين ، وعلماء ربَّانيين ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] ولسان الغيب يهتف ، ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

* * *

نبوّة تتحدّى ؛ ومعجزة تتحقّق[(١)]

نبوءات القرآن إحدى معجزاته الكثيرة التي يتضمنها بين دفتيه ، والمعجزة هي تلك الخوارق التي تظهر بمجرَّد قدرة الله لتصديق نبيٍّ ، ويعجز دونها العقل البشري عن تقديم أي تعليل ، أو توجيه لها ، إنَّ كيفية ظهور هذه النبوءات والظروف التي ظهرت فيها إنَّما هي معجزة بذاتها ، وتحمل هذه النبوءات في جنبها جانبين من الإعجاز ؛ أولاً : الإخبار بالوقائع المهمَّة التي تبدو شبه مستحيلة في مثل هذه الظروف غير الملائمة (في الظاهر) ثانياً : ظهورها طبق ما أخبر به القرآن مئة في المئة ، ولكن نبوءة غلبة الروم من بين هذه النبوءات كلها أبعث للغرابة والدَّهشة في النفس ، وأكثر صراحةً ووضوحاً ، يتحدَّث عنها القرآن بقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ١ ـ ٧] .

إنَّ أسلوب هذه النبؤة وسياقتها يدلَّان على أنَّها لم تظهر إلا كمعجزةٍ للقرآن والرسول ﷺ ، وكدليل على صدقهما ، وأنَّ ذلك ليس كسائر الحوادث العادية ؛ لأنَّ غلبة الروم هذه لم تقع إلا بعد انهزامهم الشديد ، ولذلك فإنَّ أول الآيات تتضمَّن ذكر غلبهم مرتين . أما الجانب الثاني لغرابة هذا الحادث ؛ فهو أنَّه سيقع في ظرف تسعة أعوام ، وهي مدَّة قليلةٌ لا تكفي لانتعاش أمَّةٍ

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧٠م .

مغلوبةٍ ، ومملكةٍ مندحرةٍ ، وتحوُّل الفاتح مفتوحاً ، والجزء الثاني للآيات يؤكد أنَّ هذا الحادث سيظهر كخارقٍ للعادة خلافاً للعلامات الظاهرة ، والقرائن الموجودة ، وعلى عكس القياس الإنساني والتوقع البشري ، ولذلك قال : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم : ٤] . وفيها إشارةٌ صريحةٌ إلى أنَّ الله قادرٌ على كل شيءٍ في كلِّ حين ، فهو يستطيع أن يجعل الغالب مغلوباً ، والمغلوب غالباً من غير تأخيرٍ ، ولا تقيد بالوقت والظروف ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] .

وفي الآية التي تليها إشارةٌ إلى أنَّ هذا الحادث سيكون من ثمار النصرة الإلهية ، وأنَّ المسلمين بحكم قربهم من الروم بإزاء الفرس ، ومن أجل طعن الكفار إيَّاهم سيفرحون أكثر مما حزنوا بانهزام الروم ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٤ و٥] ويمكن أن يكون ذلك إشارةً إلى انتصار المسلمين العظيم الذي وقع لهم في معركة بدر في نفس ذلك اليوم الذي غلب فيه الروم على الفرس ، وقد يخطر بالبال : لماذا ينصر الله الروم النصارى ؟ فقال ردّاً عليه ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الروم : ٥] وأردف ذلك بذكر صفاته التي لها صلةٌ ماسَّةٌ بظهور هذا الحادث المدهش ، وتعتبر في مقدمة لإمكانه ووقوعه ، فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ٥] .

ولا شكَّ أنَّ هاتين الصفتين تجلَّتا في هذا الحادث . فقد تجلَّت فيها عزة الله وغلبته للفرس الذين كانوا في سكرة الانتصار يعمهون ، وفيها الرحمة الإلهية للروم الذين كانوا مقهورين مغلوبين أنهكت الحرب قواهم ، وكانت مملكتهم تلفظ نفسها الأخير ، وكان خمسون ألفاً من رجالهم ، يعانون من ذلة الأسر والعبودية ، كما أنَّ هذا الحادث إنَّما كان سبب الفرح لأولئك المسلمين الذين حزنوا طبيعياً بانهزام الروم أمام الفرس ، وكان ينبئهم بغلبهم في بضع سنين مؤكِّداً لهم ذلك من غير أن يتخلف عنهم بأي حالٍ .

وختم الحديث بذكر أنَّ هذا الحادث سيكون خارقاً للعادة والتجربة

ومعلومات الإنسان الظاهرة ، ويعجز أكثر الناس عن تصديقه قبل وقوعه ، ولا يسعهم قياس ذلك بعلمهم الظاهر ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٦ ـ ٧] . ويجب أن ندرس الآن تلك الظروف القاسية القاتمة التي جعلت هزيمة الروم أمراً مستحيلاً بعيداً عن القياس حتى إنَّ القرآن تعرض لها بمثل هذه الأهمية ، وأولاها شيئاً كبيراً من الاهتمام والعناية . وقدَّمها كآيةٍ للقدرة الإلهية ، وكدليلٍ على صدق القرآن ، فإنَّ التاريخ يزخر بذكر الأمم التي مرَّت بالانتصار تارةً ، وبالاندحار أخرى ، والدول التي تغلبت حيناً ، وانهزمت حيناً آخر ، فليس مثل هذا الحادث شيئاً غريباً للتاريخ الإنساني ، ولكن ما الذي جعل القرآن يولي هذه الأهمية البالغة لحادث غلبة الروم .

إذاً ينبغي لنا أن نستعرض ذلك الوسط الذي احتلَّ فيه هذا الحادث محلَّ المعجزة ! هل كان الروم في الواقع مغلوبين ، منهوكي القوى إلى هذا الحدِّ ، وكان الفرس قد انتصروا انتصاراً عظيماً ، وأسَّسوا في الحدود الرُّوميَّة وولاياتها دولةً قويَّةً بحيث يعتبر انعكاس الأمر في ظروف تسعة أعوام ، وتحول المغلوب إلى غالب ، حادثاً خارقاً للعادة ، وهل كانت يد الله الخفية تعمل في إحداث هذا الأمر ، ألا يمكن تأويل ذلك بوجه عقليٍّ ؟ إننا نردُّ على هذا السؤال من تصريحات مؤرخي الغرب ، ونعتمد في معظمه على كتاب « تاريخ انحطاط الروم » للمؤرخ والأديب الإنكليزي الشهير « جين » .

أسباب هجوم الفرس :

إنَّ كسرى أبرويز (حفيد أنوشيروان وابن الهرمز) التجأ إلى الروم فاراً من بهرام الذي كان قد استولى على العرش السَّاساني ، وتغلب على هرمز ، وكان ذلك في أيام الملك موريقس (Maurice) فتلقى الأمير الفارسي بحفاوةٍ وإكرامٍ بالغين ، وأحسن وفادته ، وتبنَّاه ، ثم أرسل جيشاً بقيادة الجنرال الرومي « مارس » الذي استطاع أن يعيد الملك خسرو إلى عرش آبائه بتعاونٍ من

الفرس انفسهم سنة ٥٩٠م ، وظلَّ خسرو مديناً لما صنع به مارس ، واعتبره كأبٍ شفيق .

وقد دامت العلاقات الودِّية بين الدولتين الفارسية والرومية ما كان « مارس » على قيد الحياة . وتمتَّعت الدولة الروميَّة بالمنافع السياسية والمادية ، ولكن حدثت ثورة ضدَّ الملك بقيادة رئيس عسكري ، يقال له ؛ فاكس (Phocas) في سنة ٦٠٢م ، فقتل فاكس الملك والأسرة الحاكمة كلَّها بقساوةٍ ، وتربع على عرش قسطنطينية ، وأخبر ملك الفرس بجلوسه على عرش المملكة ، كما جرت بذلك عادة الملوك البيزنطية والفارسية لعلاقاتهم الودِّية ، وبعث إلى خسرو سفيره الجديد (Lilius) وهو نفس الرجل الذي كان قد قدم رؤوس موريقس وأولاده إلى فاكس ، وكان موريقس ممَّن أحسن إلى خسرو .

فلما وصل السفير الرومي « ليليس » إلى البلاط واطلع خسروا على تفاصيل الواقع المؤلم الذي كان قد تم على يد هذا السفير ، اشتاط غضباً ، وحبسه ، ورفض الاعتراف بالحكم الجديد ، وأعلن أن سينتقم لولده وصديقه ، وأشعل فيه دافع النقمة تلك العصبية القومية والدِّينية التي كان يحملها الحكام الفرس ، حتى إنَّه شن حملة على الروم في عام ٦٠٣[١] .

امتداد الفتح الفارسي :

وكان فاكس قد أمر بإحراق نارسيس قائد القوات الرومية حياً في سوق القسطنطينية ، ولم يوجد في المملكة الرومية قائد أحسن منه ، فقد كان مرهوباً ، تخيف الأمهات أولادهن باسمه ، ثم ديست القوات الرومية بأقدام الأفيال ، وقد كان خسرو هدم التحصُّن الرومي على الثغور ، فاحتلَّ مدن الشام عابراً نهر الفرات ، وفتح إنطاكية العاصمة الشرقية للمملكة البيزنطية بعد ما احتل « هيروبلس » و « جالسس » و « حلب » في الشام .

(١) قبل البعثة بسبع سنوات .

إنَّ تيار الفتح الفارسي الجارف يعتبر دليلاً على انحطاط المملكة الرومية ، وتخاذل فاكس ، وقد تسنَّى بعد ذلك للفرس أن يفتحوا « قيسارية » عاصمة « كيبي دوشيا »[١] (Cappadocia) ثم احتلوا القدس بعد أن فتحوا دمشق ، والخليل ، والأردن ، وأحرقت كنائس « هيلينا » مدفن المسيح (كما يعتقد المسيحيون) وقسطنطين ، وجعلت النذور الدينية التي كان يرجع تاريخها إلى ثلاثة قرون مضت وقفاً عاماً في يوم واحدٍ فقط ، ونقل أصل الصليب إلى إيران ، وقتل تسعون ألف مسيحي .

وامتد الفتح الفارسي إلى مصر بعدما استتب في الشام ، وتوسّعت حدود المملكة الفارسية إلى الحبشة ، وطرابلس الغرب ، واستولى الفرس على المستعمرات الرومية ، والإفريقية أيضاً ، ورجع الفاتح الفارسي عن طريق صحراء ليبيا يقتفي آثار اسكندر ، واحتلَّت وحدةٌ للقوات الفارسية من الفرات إلى باسفورس وجالسيدن[٢] وظلت المخيمات الفارسية منصوبةً أمام القسطنطينية إلى عشر سنوات ، فلو كان خسرو يملك القوة البحرية ، لأخضع ولايات أوربا إلى حكمه أيضاً .

هرقل يتسلَّم زمام الحكم :

ثار هرقل حاكم إفريقية ضدَّ فاكس في نفس تلك اللحظة التي كانت تعاني فيها المملكة الرومية من صراع الموت والحياة ، إنه قتل فاكس وتسلَّم زمام الحكم في سنة ٦١٠م ، حيث كانت المملكة الرومية قد أوشكت على النهاية ، فكان أول خبر سمع به الناس فور تسلمه زمام الحكم هو سقوط إنطاكية .

وكان من المتوقع أن يشفي خسرو غليل النقمة من فاكس بعد قتله ، وكان

---

(١) منطقة آسيا الصغرى المرتفعة التي تمتد في ٢٥٠ ميلاً طولاً ، و١٥٠ ميلاً عرضاً ، وتقع فيها سلسلة جبال تارس ، ونهر الفرات شرقاً ، غليشيا ولائي كونيا غرباً ، وبانديس شمالاً ، وجبال تارس جنوباً (موسوعة بريطانيا) .

(٢) كان موقعها على الطريق الرئيسي الذي يبعد من ملتقى الفرات والساجر ١٦ميلاً جنوباً ، حيث يلتقي سبيريا الشمالية وميسوبتيما .

ينبغي عليه أن يعرض صنيع هرقل الذي كان قد قتل غاصب مملكته ، وقاتل محسنه الذي أحسن إليه ، ولكن الإمبراطور الفارسي لم يكن مخلصاً في نيَّته ، واستمر في اعتداءاته ، وأتمَّ ما نقص من انتصاراته .

مشكلات الرُّوم :

وقد غلب الروم في عام ٦١٦م كلياً ، وفقدوا مملكتهم الرُّوميَّة على يد الفرس ، وواجهوا عدا هذه الأضرار في الشرق ثورةً عارمةً في أوربا كلِّها ، فقد كان آفارس (Avars) يعيثون ظلماً وفساداً من ثغور أستريا (Istria) إلى جدار (ثربس) أمَّا الدَّم الإنساني البريء ، الزكي الذي كان قد أريق في الحرب الإيطالية لم يكن جف حتى قتل الأسارى من الرجال في ساحة بنونيا (Pannonia) المقدسة واستعبدت النساء والأطفال ، وانحصرت رقعة المملكة الرومية في جدار قسطنطينية وأجزاء من اليونان ، وإيطاليا ، وإفريقية ، وفي عدَّة بقاع لسواحل آسيا من صور إلى طرابزون .

وهجمت على العاصمة المجاعة ، وأمراضٌ وبائيةٌ منذ سقوط مصر ، فقد كانت القسطنطينية تستورد الطعام من مصر ، فلما استولت الفرس على مصر توقف استيراد الطعام إليها ، وقد كانت القسطنطينية يوزَّع فيها الطعام توزيعاً عاماً منذ أيام قسطنطين ، لكي يرغب الناس في الإقامة فيها ، ولكنَّ هذا التوزيع توقف في سنة ٦١٨م لأول مرة حينما واجهتهم المجاعة ، واحتجب استيراد الغلاَّت من الخارج .

اتجاه هرقل العملي :

أجمع المؤرخون على أنَّ هرقل لم يكن يستند إلى حماسٍ عملي وحيويَّةٍ بالرَّغم مما مرَّ عليه من الحوادث ، بل إنَّه بالعكس من ذلك كان يشاهد نهاية المملكة الرومية بأمِّ عينيه ، ولا يتألَّم لذلك شيئاً ، يقول جبن : « كان هرقل في أيام حكمه الأولى والأخيرة كسولاً متخاذلاً راكناً إلى الدعة والتَّرف ، متوهماً ، متفرجاً على مصائب شعبه ، كمن لا حميَّة له ، ولا رجولة » .

نبوءة القرآن :

لقد نبأ القرآن في سنة ٦١٦ عندما كانت المملكة الرومية تلفظ نفسها الأخير أنَّ الروم سيغلبون في بضع سنين ، يقول جبن :

« إنَّ محمَّداً ﷺ تنبا بغلبة الرايات الرُّومية بانتصارٍ جديدٍ في بضع سنين ، بينما كان الفتح الفارسيُّ في أوجه ، وحينما ظهرت هذه النبوءة لم يكن هناك شيءٌ أكثر استغراباً واستحالةً منها ، وذلك لأنَّ هرقل في سنواته الاثنتي عشرة الأولى كان يعلن نهاية الحكم الرومي وتوليه من غير عودة » .

في السنة الخامسة من بعثة النبي ﷺ كان المشركون في مكة يتظاهرون بشدَّة فرحهم على انتصار الفرس الرائع ، واندحار الرُّوم ، وكانوا يتفاءلون بانتصارهم ، ويعتبرون ذلك انتصار أصدقائهم .

« كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإيَّاهم أهل الأوثان ، وكان المسلمون يحبُّون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : أما إنَّهم سيغلبون ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً . فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإنْ ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : ألا جعلته إلى دون ، قال : أراه العشرة ، قال : قال سعيد : والبضع ما دون العشر ، قال : ثم ظهرت الروم بعد »[1] .

ظهور النبوءة :

وأراد هرقل بعدما واجه من الصعوبات والمشاق التي أسلفنا ذكرها أن ينتقل من قسطنطينية إلى كارتيج حيث الأمن والسلامة ، ويتَّخذها مركزاً له ، وكانت سفنه المشحونة بالجواهر ، والأموال تنتظر الرحيل ؛ إذ اضطره

(١) جامع الترمذي ـ كتاب التفسير .

البطريق إلى المقاومة والخوض في الحرب وشجعه ، فجاء إلى « سانت صوفيا » وأقسم أن موته وحياته مع الذين أكرمه الله برعايتهم .

ويمكن لنا تقدير تخاذل الإمبراطور الرومي أنَّه بعث عن طريق قائد فارسي وبعض الضباط الروم رسالةً إلى ملك فارس يطلب فيها العفو والأمن ، فردَّ عليهم الملك الفارسي قائلاً : إنَّ هذا الأمر ليس ما يسمَّى بالسفارة ، وإنما هو الإمبراطور الرومي الذي يخضع أمامي ، وإنني سوف لا أقرُّ له بالأمن ما لم يكفر بإلهه المصلوب ، ويقبل على عبادة الشمس .

ولكنَّه رفع يديه عن فتح قسطنطينية بعدما جرَّب الروم إلى ست سنوات ، وكتب لهم الأمن على شرط أن يقدِّموا له كل عام ألف « تولنت »[١] من الذهب وألف « تولنت » من الفضة ، وألف حلة من الحرير ، وألف فرس ، وألف بنت عذراء ، كخراج سنوي ، فاستفزَّ الروم هذا الشرط واستند إليه هرقل في إشعال غيرتهم وحميتهم ، وهنالك أعلن هرقل حرباً دينية ، واستقرض لتغطية نفقات الحرب من أوقاف الكنائس ومواردها ، بشرط أن يردَّ ذلك بعد الحرب بالربح الرِّبوي .

تغير هرقل :

تغير هرقل بعد هذا الإعلان ، الذي نفخ فيه روحاً جديدة ، وبعث عزمه من جديد ، ومنحه حياةً جديدةً ، فلم يعد ملكاً كسولًا متقلباً في النعيم واللذات ، بل إنَّه عاد ملكاً شجاعاً ، ذا همَّةٍ عاليةٍ ، وقائداً متحمساً ، وفاتحاً طموحاً ؛ كان جدّ قلق لاستعادة ملكه ، ونفخ الروح في جسد أمته ، وبعثها من جديد ، يقول « جبن » :

« صار كالضباب الذي ينذاب بأشعة الشمس ، وإذا بـ« أكورديوس » القصور يتحوَّل إلى « سيزر » ساحة القتال ، وهكذا وفقوا إلى الاحتفاظ بكرامتهم ، وعزَّتهم بأحسن طريق » .

---

(١) عملة رومية قديمة .

زحف هرقل وانتصاراته :

حلَّت قوات هرقل في خليج إسكندرونة ، وقد خلفت الساحل الغربي الجنوبي لآسيا الصغرى إلى اليسار ، وأمر هرقل بترميم الحصون التي تقع في البلدان المجاورة للبحر ، وأضاف إلى التدريب العسكري أعضاء جدداً ، وحثَّ الروم على الانتقام من عبدة النار ، ونفخ فيهم روح النقمة والعداء ضدَّهم في خطابٍ حماسيٍّ ألقاه بمناسبة افتتاح تمثال للسيِّد المسيح عليه السلام ، وقد توجه هرقل إلى « كيبي دوشيا » بعدما فتح « سليشيا » وتوغَّل إلى قلب فارس عابراً البحر الأسود وجبال أرمينيا ووصل من القسطنطينية إلى « طرابزون » مشياً على الأقدام برفقة خمسمئة رجلٍ من خيرة الجنود ، واستولى على مدينة « طوروس » ومناطق « غندزاكا » و « موغان » وهدم النصارى كنائس « ماغي » وأحرقوا تماثيل خسرو ، وأهانوا مولد « زراشتر » بإزاء « مدفن المسيح » وأطلقوا سراح خمسين ألفاً من أسرى النَّصارى .

توغل هرقل إلى فارس ووصل إلى مدن « قزوين » و « أصفهان » وواجهت المملكة الفارسية خطراً عظيماً ، فاستدعى الفرس القوات الفارسية من وادي النيل وباسفورس ولكن هرقل هزمها هزيمةً نكراء ، وعبر دجلة بعد أن قطع جبال الكرد ، ودخل إلى ساياط بعد حربٍ داميةٍ ، ونشبت المعركة الحاسمة في ساحة « نينوا » وأتى بعدها إلى « رستجرد » ومضى من المدائن عدة أميال ثم دخل القسطنطينية دخول الفاتح العظيم .

النبوءة تتحقق :

تزلزلت قوائم عرش المملكة الفارسية ، وتجاوز الروم عن حدودهم التاريخية القديمة ، وداسوا الفرس . ورفعوا الراية الرومية في قلب المملكة الفارسية خفاقةً ، وهكذا تحقَّقت نبوءة القرآن حول غلبة الروم في السنة الثانية للهجرة أي سنة ٦٢٥م أيام غزوة بدر في ظرف تسعة أعوام ، على أنَّه لم يكن هناك من الآثار ، والقرائن في ظاهر الأمر ما يشير إلى هذه الغلبة .

هرقل يتكاسل من جديد :

أجمع مؤرخو أوربا وكتابها على أنَّ أروع عهود هرقل هو ما هزم فيه الفرس ، واستعاد مجد المملكة الرُّومية ، أما زمن هرقل الأول والأخير فلا يضارعان أيامه التي توسطت بينهما في شيء ، ويبدو أنَّ الحكمة الإلهية اختارته لهذا العمل الجليل وحده ، حتى إذا أنجزه عاد إلى مثل ما كان عليه في السابق من التكاسل ، والتنعم . وكما يقول « جبن » إنه لم يبال بتسليمه تلك الولايات التي استعادها بتضحياتٍ بالغةٍ وحروبٍ دامية من أيدي الروم إلى أيدي العرب .

يحتار المؤرخون في تأويل ما طرأ على هرقل من أحوال وتغيُّرات في بدء الأمر ونهايته ، والانتفاضة التي حدثت فيه بين العهدين ، إنَّهم حاولوا تأويل هذه الظاهرة العجيبة ، والتعارض بين أحواله التي مرَّت عليه بأساليب متنوعة ، يقول « جبن » :

« كان من واجب المؤرخين البيزنطيين أن يشرحوا أسباب الغفلة واليقظة في هرقل ، ولا يمكن لما بعد هذه المدَّة الطويلة إلا أن نقول على سبيل التقدير : إنَّ الجراءة الشخصية وجدت فيه أكثر من العزيمة السياسية ، وأن ابنة أخيه « مارتينا » كانت تستولي عليه بجمالها الساحر ، التي تزوج منها زواجاً غير مشروع ، وأنه قبل ما أشار عليه المستشارون من أنه لا ينبغي لملك أن يقضي أيامه الغر في ساحة القتال ، ولعله استشاط غضباً على مطالبات الفاتح الفارسي السخيفة » .

ويتحدَّث كاتب المقال في دائرة معارف بريطانيا :

« سيرة هرقل لغزٌ عجيبٌ لا ينحلُّ بسهولة ، وبالرغم من أنه كان شجاعاً في نفسه ، ومحنَّكاً في سياسته ، وقائداً ناجحاً ولكنه ظلَّ صامتاً على الأحداث التي واجهته ، واحتمل تمزُّق مملكته بصبرٍ وأناةٍ ، لم تكن حياته ومؤهلاته مختلفةً بعضها عن بعض فحسب بل كانت تتعارض بعضها مع بعض ، أما معلوماتنا عن حياته الشخصية فهي ناقصةٌ إلى حدٍّ كبير ، ولذلك يمكن أن

يكون هناك سبب لا نعلمه لهذا التعارض ولو أنَّه لا يعتَبر مبرراً لأعماله التي باشرها ، وإذا كان وافاه الأجل فور انتصاره على الفرس ، ضمن ذلك دوام سمعته الطيبة » .

اعترف مؤرخو أوربا في جميع ما كتبوا حول هذا الموضوع بحدوث انقلابٍ عجيبٍ في هرقل أيام حربه مع الفرس ، فقد نشأت فيه روح لم تدم بعد انتهائه من الحرب ، وقد أضاع كلَّ ما حصل عليه من الفرس بيد العرب ، ولكنَّنا لنتأكد أنَّ هذا الأمر الأخير له صلة ما بالحقيقة ؛ إذ نحن لا نصدِّق : أنَّ هرقل لم يقاوم الحملات الإسلاميَّة ، وأنَّ الذي جرَّ إلى انهزام الروم هو ضعف المملكة الرومية ، وغفلة هرقل ، لا قوة الإسلام وأخلاق المسلمين .

* * *

فَضْلُ البعْثَةِ المحمَّدِيَّة عَلى الإنْسَانِيَّة ومنحِهَا العَالمِيَّة الخَالِدَة[1]

إعلانٌ فريد في تاريخ الرسالات والدِّيانات :

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] هذا إعلان فريد من نوعه ، جاء في كتابٍ خالدٍ قدَّر الله سبحانه وتعالى له أن يتلى في كلِّ مكانٍ وزمانٍ ، ويبلغ عدد قرَّائه ملايين الملايين ، وقال عنه : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

إنَّ سعة هذا الإعلان ، وإطاره الكبير ، ومساحته بحساب الزمان والمكان ، تجعلان هذا الإعلان خارقاً للعادة ، لا يمكن أن يمرَّ به الإنسان الواعي مرَّاً عابراً سريعاً ، فإنَّ مساحته الزمنية تحوي جميع الأجيال ، والأدوار التاريخية التي تتلو البعثة المحمدية ، ومساحته المكانية تسع العالم كله ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يقل : إنا أرسلناك رحمة لجزيرة العرب ، أو للشرق ، أو للغرب ، أو لقارة ، مثل آسيا مثلاً ، بل إنه قال : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

الحقُّ إنَّ سعة هذا الإعلان ، وشموله ، وعظمته ، وسموَّه ، واستمراره ، وخلوده ، كلُّ ذلك يقتضي أن يقف عنده مؤرخو العالم ، وفلاسفته ، ونوابغه ، وأذكياؤه حيارى مشدوهين ، بل يقف أمامه الفكر الإنسانيُّ كلُّه حائراً مشدوهاً ، وينقطع إليه كلِّياً ـ ردحاً من الزمن ـ يبحث في مدى صدق هذا

(١) قدَّم العلاَّمة الندوي هذا البحث في مدينة لكهنؤ عام ١٣٩٥هـ و(١٩٧٥م) ثم نشر في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد الثاني والعشرون ، عام ١٩٧٧م .

الإعلان ، أو صحة هذا الواقع ، لأنَّنا لم نجد في تاريخ الأديان والنِّحل ، وفي تاريخ الحضارات والفلسفات ، وتاريخ الحركات الإصلاحيَّة والمحاولات الثورية ، بل في تاريخ العالم كلِّه ، وفي المكتبة الإنسانية بأسرها مثل هذا الإعلان المحيط بالكون كلِّه ، والأجيال البشرية كلِّها ، والأدوار التاريخية بأجمعها حول أيِّ شخصيةٍ من شخصيات العالم ، حتى إنَّ خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين ، ونبذةً من أحوالهم وسيرتهم التي وصلت إلينا هي أيضاً مجرَّدةً عن مثل هذا الإعلان .

أما اليهودية ـ وهي ديانة قديمة مشهورة ـ فإنَّها تنظر إلى الله كربِّ بني إسرائيل ، وإله بني إسرائيل في الغالب ، إنَّ صحف العهد القديم ، والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو من ذكر الله كربِّ العالمين ، وربِّ الكون بتاتاً ، ولذلك فالبحث في سيرة نبيٍّ من أنبيائهم ، مثل موسى وهارون ، أو داود وسليمان ، عن مثل هذا الإعلان عبثٌ ، وإضاعة وقتٍ ، فإن هذه الديانة لم تكن ـ في أيِّ مرحلةٍ من مراحلها ـ رسالة رحمةٍ ومساواةٍ للجيل الإنسانيِّ كلِّه ، من غير تمييز عنصريٍّ ولم تشجع فيه الدَّعوة إلى هذه الدِّيانة خارج شعب إسرائيل أبداً[١] .

أمَّا المسيحية التي عرفت بتسامحها ، وحماسها للدَّعوة ، وعطفها على الإنسانية ، فإنَّ نبيَّها ـ المسيح عليه السلام ـ صرَّح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالَّة[٢] ، وحين لفت نظره إلى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحمٍ ونسب ببني إسرائيل ؛ اعتذر وقال : « إني لست ذلك الرجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب »[٣] .

أما الدِّيانات الشَّرقية ، والآسيويَّة الأخرى ، وخاصةً الهندكية ، فإنَّها

---

(١) انظر للتوسع في هذا الموضوع كتاب المهتدية الأمريكية الفاضلة مريم جميلة Islam Versus Ahl - E- Kitab, 22-25 .

(٢) إنجيل متى ، باب ١٥ ـ آية ٢٤ ، وباب ١٠ آية ٦ ـ ٧ .

(٣) متى ، باب ١٥ ـ آية ٢٦ .

لا تختلف كثيراً عن النموذج السَّابق ، بل إنَّها تسبق الديانات السَّابقة أحياناً في تقديس النسب والسُّلالة ، وتوزيع الناس في طبقاتٍ توزيعاً ظالماً جائراً ، لا يعرف اللِّين والمرونة ، فقد كان المنبوذون في المجتمع الهندي محرومين من كلِّ نوعٍ من التكريم ، والشرف ، والمساواة ، ومن أولى حقوق الإنسان ، وأبسط مبادىء الإنسانية ، لا يجوز لهم تحصيل العلم ، والتعليم والتدريس ، والتطلُّع إلى الهضبة الرُّوحية ، فقد خُصَّ دراسة « ويدا » وتقديم القرابين ، والنذر لآلهتهم وأوثانهم ، بالبراهمة فحسب[1] ، وكان النظر في كتب « ويدا » ودراستها مقصوراً على فئة الشترى والويش[2] وقد صرَّح « منوشاستر » : أنَّ المنبوذين لم يخلقهم الله إلا لغرضٍ واحدٍ ، وهو خدمة الطبقات الثلاث التي مضى ذكرها[3] ، إنَّ أهل الهند القدامى لم يكونوا يعرفون وراء جبال « هملايا » دنيا ، لا صلة لهم بالعالم الخارجي ، وبالشعوب الأخرى ، ولا رغبة لهم في الإطلال عليها . لذلك فإنَّ البحث عن مثل هذا الإعلان عن نبيٍّ ، أو وليٍّ ، أو مصلحٍ فيهم عبثٌ وإضاعةُ جهدٍ ، ووقتٍ ، الحقيقة أنَّ البحث عن نبيٍّ يكون رحمةً للعالمين في ديانةٍ لا تحمل عقيدة « ربِّ العالمين » غير معقولٍ ، وغير منطقيٍّ .

قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمَّدية كمّاً وكيفاً :

إنَّ لتقدير شيءٍ ووضعه في محلِّه المناسب ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامَّة ، الأول : مقداره ، وحجمه الذي يعبَّر عنه في المصطلح الحديث بالكمِّيَّة Quantity والثاني : جوهره ووصفه الذي يقال له : الكيفية Quality وهذا الإعلان الذي نادى به القرآن يشمل هذين النوعين ، ويجمع بين الناحيتين ، فإنَّ بعثته ﷺ ، وشخصه العظيم ، وتعاليمه السامية الخالدة ؛ أفاضت على الإنسانية مسحةً جديدةً من الحياة ، والنَّشاط ، وكانت السبب المباشر في

---

(١) منوشاستر ، الباب الأول ، ٨٨ .
(٢) الباب الأول ـ آية ٥٩ ـ ٩٠ .
(٣) الباب الأول ـ ٩١ .

شفائها من أسقامها ، وعلاَّتها ، وفي حلِّ معضلاتها ، ونهاية آلامها وأحزانها ، وهطول أمطار الرَّحمة والبركة ، واليُمن والسَّعادة ، والخير والفلاح على أرضها المجدبة القاحلة ، وكانت هذه المعطيات المحمَّدية الغالية منقطعة النظير بحساب السَّعة والوفرة ، والحجم والكمية Quantity وبحساب النفع ، والإفادة ، والجوهر ، والكيفية Quality أيضاً .

« الرحمة » لفظٌ شاع استعماله في حياتنا اليومية ، وهو يطلق على كلِّ شيء ينال به الإنسان نفعاً وراحة ، أما أنواع الرحمة وأقسامها ، ودرجاتها ومدارجها ، فلا حصر لها ، يقدِّم أحدنا الماء البارد إلى أخيه العطشان ، ويدلُّ المسافر والغريب على الطريق ، ويحرِّك له المروحة في يوم صائف ، شديد الحر ، الأم تحنو على طفلها ، الأب يربي ولده ، ويعلمه ، ويزوده بحاجيات الحياة ، المدرس يدرس تلاميذه ، ويمنحهم ما عنده من نعمة العلم ، وهكذا إطعام الجائع المسكين ، وإكرام الضيف ، وكساء العريان ، كل ذلك من مظاهر الرحمة العامة ، وألوانها المختلفة الزَّاهية ، وهي تستحقُّ منَّا كلَّ تقدير ، واعترافٍ ، وشكرٍ .

ولكنَّ أكبر مظهر من مظاهر الرحمة ، وأروع صورة من صورها الجميلة أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت ، هناك طفلٌ صغيرٌ بريءٌ نراه في حالة الاحتضار ، كاد يلفظ نفسه الأخير ، الأم تقف إلى جواره تبكي ، قد أظلمت الدُّنيا في ناظريها ، وانقطع أملها في فلذة كبدها ، ومأوى حنانها وحبِّها ، الأب يسعى هنا وهناك هائماً على وجهه ، فلا يجد راقياً وأنيساً ، هناك يأتي طبيب حاذق ، كما ينزل الملك من السماء ويقول : مهلاً . . لا داعي للقلق ، ولا موجب لليأس ، ولا يلقي في فم الطفل قطرات قليلة من الدواء حتى يفتح عينيه وينشط ، تصور ماذا يقال لهذا الطبيب ، ألا يقال له : إنَّه ملك الرحمة ، أرسله الله لإنقاذ هذا الطفل ، وإعادة الحياة إليه ، هنالك تتلاشى كلُّ هذه الأنواع من الرحمة التي قدمناها أولاً ، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخَّاذ من الرحمة ، إنَّها ليست منة على الطفل فقط ، بل على أسرته كلها .

نرى أعمى يمشي متوكئاً على عصاه ، قد شارف هوَّةً عميقةً أو بئراً ، قد

تكون خطوته التالية خطوة الموت ، فيهرول إليه عبدٌ من عباد الله ، ويأخذ بحجزه ، ويمنعه عن الوقوع في هذه الهوَّة ، أفلا نسميه : ملك الرحمة ؟ .

هذا شابٌّ يافعٌ ، قرَّة عين أبويه ، وكفيل عائلته الفقيرة قد أشرف على الغرق في نهرٍ فائض يحاول أن يطفو على الماء ولكن بدون جدوى ، فيقفز إليه رجل مجازفاً بحياته ، ويأخذ به إلى ساحل النجاة ، فيحمله رب الأسرة أو إخوة هذا الشاب ، على أعناقهم ، ويضمونه إلى صدورهم ، بحرارةٍ وحبٍّ ، ولا ينسون فضله على أسرتهم الصغيرة مدى الدهر ، ترى هل تساوي مظاهر الرحمة الأولى ، هذه الرحمة العظيمة الغالية ؟ .

البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشري من الشقاء والهلاك :

ولكن آخر مظهر من مظاهر الرَّحمة وقمتها وذروة سنامها ، هي أن ينقذ رجل الإنسانية كلَّها من الهلاك ، وهناك فرقٌ عظيم بين هلاكٍ وهلاك ، وبين خطرٍ وخطر ، ذلك هلاكٌ محدودٌ سطحيٌّ ، وخطرٌ عابرٌ قد يزول ، وهذا هلاك أبدي ، وخطرٌ مستمرٌ لا يزول ، لذلك فإنَّ رحمة الأنبياء بالنوع البشري لا تقاس أبداً على هذه الرحمات ، رغم أهميتها وعظمتها .

وإنَّ أمامنا بحراً هائجاً من الحياة لم يلتقم الأفراد والآحاد فحسب ، بل إنَّه ابتلع الأمم والبلاد ، وهضم الحضارات والمدنيات ، ترتفع أمواجه العاتية الهائلة ، كأفواه التماسيح الفاغرة ، وتنقضُّ على الجماعات البشرية كالأسد الضَّاري ، والمشكلة : أنه كيف نعبر هذا البحر الهادر الزاخر الذي لا يعرف الرَّحمة ، وكيف ننزل بسفينة الإنسانية على برِّ الأمان ، ولا يكون صاحب الفضل الأكبر في هذا المجال ، ولا يعتبر أكبر منقذٍ للإنسانية وصاحب المنَّة عليها ، والإحسان إليها ، إلا من يجدِّف هذه السفينة ؛ التي تلعب بها العواصف الهوجاء ، والأمواج الهائلة ، كالجبال ، والتي غصَّت بركابها ، وغاب الملاَّح والربَّان ـ ثم يوصلها بسلامة إلى ساحل النَّجاة !

إنَّ النوع البشري شاكرٌ لهؤلاء الذين منحوه هدية العلم ، ويشكر هؤلاء الذين جمعوا له هذه الأكداس من المعلومات ، ويشكر الذين هيَّؤوا له كلَّ هذه

التسهيلات ، وزودوه بوسائل الرَّاحة والرَّخاء ، وذلَّلوا صعاب الحياة ، واقتحموا عقباتها ، وشعابها ، إنَّه لا يبخس حقَّ أحدٍ من هؤلاء ، ولا ينكر فضلهم عليه ، ولكن قضيته الكبرى ، ومشكلته الأولى هي أنه كيف ينقذ نفسه من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد ، وأحاطوا به من كلِّ جانب ، وكيف يصل بسفينته إلى برِّ السلامة والأمان .

فما هي أمواج هذا البحر ، وما هي تماسيحه الضارية الشرسة ؟ .

إنَّها الجهل عن خالق هذا الكون وربِّ العالمين ، وعن صفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ، والوقوع في حبائل الشرك والوثنية ، وعبادة الأصنام ، والاسترسال مع الخرافات والأوهام ، إنَّها بلادة حسِّ الإنسانية ، وذهولها عن نفسها ، وغفلتها عن خالقها وبارئها .

إنَّها عبادة المادة والمعدة ، وتعدِّي الحدود ، وانتهاك الحرمات ، وسورة النَّفْس الأمارة بالسوء ، والتهرُّب من أداء الواجبات والحقوق ، والإصرار على المنافع والحظوظ .

إنَّ أكبر خطرٍ على الإنسانية أن يحدث في بنائها خللٌ ، وتحيد لبنتها الأساسية عن مكانها الصحيح ، فينسى الإنسان قيمته ومداركه ، وغاية حياته ، ويظنُّ نفسه ذئباً مفترساً ، أو أفعى أو ثعباناً ، فحين يذهب الإنسان عن هذه الحقائق الكبرى يتحوَّل بحر هذه الحياة إلى نارٍ متأجِّجةٍ ، ولهب مرتفعة ، هنالك يزدرد الإنسان أخاه ، ويفترسه ، ولا يحتاج إلى الثعابين ، والعقارب ، والذئاب ، والفهود . . فقد ينقلب الإنسان أكبر ذئب في هذه الغابة الإنسانية . . . تخجل أمامه الذئاب ، ويتحوَّل شيطاناً مارداً ، تستحي منه الشياطين ، هنالك يحترق الإنسان ، ويشوى في ناره التي أشعلها بنفسه ، ولا يحتاج إلى أن يستوردها من الخارج .

في هذه الفترة الرَّهيبة المظلمة تهبُّ نفحةٌ من نفحات الرَّحمة الإلهية ، وتنعش رفات الإنسانية الخامدة الهامدة ، وتزودها بملاحين يجدِّفون سفينتها بنجاحٍ ومهارةٍ .

مهمَّة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء :

وأضرب ـ لتوضيح مهمَّة النُّبوَّة ، وطبيعة عمل الأنبياء مثلاً سوف نفهم به مهمَّة النُّبوَّة وموقفها من غير دلائل فلسفيةٍ دقيقةٍ .

يُحكى أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنُّزهة في البحر ، أو للوصول إلى البرِّ ، وكان في النفس نشاط ، وفي الوقت سعة ، وكان الملاَّح المجدِّف الأميُّ خير موضوعٍ للدُّعابة والتنادر ، وخير وسيلةٍ للتلهِّي ، وترويح النفس ، فخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ ، وقال : يا عم ! ماذا درست من العلوم ؟ قال الملاح : ولا شيء يا عزيزي !، قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمي ؟! قال ، كلاَّ ، وما سمعت بها .

وتكلَّم أحد التلاميذ ، فقال : ولكنك لا بدَّ درست علم الأقليدس ، والجبر ، والمقابلة ! قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنِّي أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة .

وتكلم ثالث « شاطر » فقال : ولكني متأكد من أنَّك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال : هل هما اسمان لبلدين ، أو علمان لشخصين ؟ .

وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنك يا عم ؟ قال أنا في الأربعين من سني ! قالوا : لقد ضيعت نصف عمرك يا عمَّنا !، وسكت الملاَّح الأميُّ على غصصٍ ومضضٍ ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوَّار .

وهاج البحر ، وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب ، والأمواج فاغرةٌ أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق .

وجاء دور الملاَّح الأميِّ ، فقال في هدوء ، ووقار : ما هي العلوم التي درستموها يا شباب ؟! وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في الكلِّية ، ويتوسعون فيها في الجامعة ، من غير أن يفطنوا لغرض

الملاح الجاهل ، الحكيم ، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقارٍ تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي ! هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة ؟ ، وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدَّر الله ـ كيف تسبحون ، وتصلون إلى الساحل بسلامٍ؟ ، قالوا : لا والله يا عم ! هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته ، والإلمام به .

هنالك ضحك الملاَّح ، وقال : إذا كنت ضيعت نصف عمري ، فقد أتلفتم عمركم كلَّه ، لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنَّما كان ينفعكم العلم الوحيد ، وهو علم السباحة ؛ الذي تجهلونه[١] .

هذه مهمَّة النبوَّة ودورها في إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق ، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرُّسل ، وامتيازه عن سائر أصناف التعليم والتربية ، والترويح والتسلية ، يمنحون الجيل البشريَّ « علم النجاة » ويعلمونه فنَّ السباحة ، وتجديف سفينة الحياة .

إنَّ التاريخ الإنسانيَّ يدلُّ دلالة واضحةً على أنَّه لما غرقت سفينة الحياة لفساد أخلاق الناس ، وسيئات أعمالهم ، غرقت بكلِّ ما فيها من مجموعةٍ بشريَّةٍ ، ورصيد حضاريٍّ ، ومحصولٍ فكريٍّ ، وإنتاجٍ علميٍّ وفلسفيٍّ ، وبكلِّ ما فيها من روائع الشعر والأدب والبيان ، وإنَّ هذه السفينة لم تغرق أبداً من أجل الانحطاط الأدبي ، وقلَّة المدارس والجامعات ، وفقدان التعليم العالي ، أو من قلة المال وانخفاض مستوى المعيشة ، إنَّها غرقت ؛ لأنَّ الإنسان أعدَّ نفسه للانتحار ، إنه صار معولاً هدَّاماً لذلك البناء الذي فيه متاعه وأهله ، إنَّ التاريخ يدلنا على أنَّ الفكر الإنسانيَّ أصيب في كثيرٍ من الأحيان بنوباتٍ عصبيةٍ دفعته إلى التَّدمير ، والإبادة بدلاً من التعمير والبناء ، فقد رأينا مستغربين مأخوذين بالحيرة والدهشة ، ورأينا بأمِّ أعيننا ، ونحن لا نكاد نصدق هذا الواقع ؛ لهول المنظر وبشاعة الوضع ، إنَّ الإنسان قام يهدم أساسه بكلِّ قوَّةٍ وحماسٍ ، ذلك الأساس الذي قام عليه صرحه الحضاريُّ ، والفكريُّ العظيم ،

(١) القصة مقتبسة من كتاب العلاَّمة الندوي « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » .

وظل مشتغلاً بهذه العملية المجنونة بكلِّ شوقٍ ورغبةٍ ، كأنَّها عمليةٌ بناءةٌ ، ومأثرةٌ إنسانيَّةٌ رائعةٌ ، وخدمةٌ ممتازةٌ ، وصار يلحُّ على الوقوع في خندق الموت ، وقد تملكته السآمة من الحياة ، واستبدَّ به الشوق إلى الهلاك ، كأنَّ الحياة عذابٌ وجحيمٌ ، والهلاك جنَّةٌ ونعيمٌ .

تصوير العصر الجاهلي وتهيؤه للانهيار والانتحار :

ذلك هو الوضع الذي ساد على العالم في القرن السادس المسيحي ، فإننا نجد هناك استعداداتٍ عامَّةً للانتحار الاجتماعي العام ، لم يكن النوع البشريُّ في ذلك الزمان راضياً بالانتحار فحسب ، بل كان يتساقط عليه ، ويتهالك فيه ، كأنَّه نذر به وحلف ، فيريد أن يفي بنذره ، ولا يحنث في قسمه ، ولقد صور القرآن العظيم هذا المنظر ، وهذا الوضع تصويراً دقيقاً ، لا يصوره أيُّ رسامٍ ، أو أديبٍ ، أو روائيٍّ أو مؤرخ :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

رحم الله المؤرِّخين ، ورواة السيرة ، فإنَّهم لم يصوِّروا الجاهلية حين سردوا لنا وقائع البعثة المحمدية ـ تصويراً صحيحاً دقيقاً ، وهم معذورون ومأجورون ، مثابون ومشكورون ، فإنَّ ذخيرة الأدب واللغة لا تسعفهم كلَّ الإسعاف ، الحقيقة أنَّ هذا الوضع في قمة من الهيبة والفظاعة ، وفي منتهى الدِّقة والتعقيد ، لا يمكن وصفه بريشة قلم ، والتعبير عنه بأيِّ قدرةٍ بيانيَّةٍ ، وصلاحيَّة لغويَّةٍ .

هل كان العصر الجاهلي ـ الذي بُعث فيه محمد ﷺ ـ قضية انحطاطٍ اجتماعيٍّ أو خلقيٍّ ؟ هل كان قضية وثنيةٍ مجردة ، أو قضية خمرٍ ، وقمارٍ ، وعبثٍ ، واستهتارٍ ، أو ظلم واستبداد ، قضية قوانين اقتصادية جائرة ، وتعسُّف الحكام الغاشمين ؟ هل كان قضية وأد البنات ؟ كلَّا ، إنَّه كان قضية وأد الإنسانيَّة كلِّها .

لقد انتهى هذا الدور وانقرض هذا الجيل وغاب هذا التصوير البشع عن

أعين الناس فكيف نعيده ونمثله ، ونجعله حسِّياً شاخصاً تراه الأبصار ، وتلمسه البنان ، وجل ما نستطيع أن نقول ، إنَّه عصرٌ جاهليٌّ لا يفهمه حق الفهم إلا من عاش فيه ، واكتوى بناره ، ولو كان لمصور يحاول التصوير يمكن أن يمثل البشرية في صورة إنسان في غاية الجمال والصحة ، والأناقة وحسن الهندام ، الإنسان الذي هو نموذج بديع فريد لصنع الله الذي أتقن كلَّ شيء ، والذي هو محسود الملائكة ، وغاية الخلق ، الذي كلَّله الله بتاج خلافته ، فصار زينة الوجود ، ولب لباب الحقيقة والعرفان ، وبه تحولت هذه الأرض الخراب اليباب إلى روضةٍ غنَّاء ، وحديقة فيحاء ، ثمَّ يصور هذا الإنسان يريد أن يقفز في خندقٍ عظيم هائل ترتفع منه ألسنة اللهيب ، وقد تحفز واستجمع قواه ، وجمع ثيابه ، ورفع رجله في الفضاء فعلاً ، وكاد يقع فيه ، وماهي إلا دقائق وثوان حتى يغيب في هذا الظلام المهيب ، ظلام الموت ، فلعلَّ هذا التصوير يصور بعض الجوانب من العصر الجاهلي عند بعثة النبيِّ ﷺ ، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة ، فقال في إيجاز وفي إعجاز : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وذلك ما شرحه لسان النبوة بمثالٍ رائعٍ بليغ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مثلي كمثل رجلٍ استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحمون فيها ، وقال في آخرها : فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمَّ عن النار ! هلم عن النار ! فتغلبوني ، وتقحمون فيها »[١] .

لقد كانت القضيَّة الكبرى في هذه القصَّة كلِّها أن تصل سفينة الإنسانيَّة بسلامة الله وفي حفظه ورعايته إلى شاطىء النجاة ؛ لأنه حين يستوي الإنسان ويعتدل طبعه ، وتتحلَّى الحياة بالاقتصاد والاتزان ، وتنفعه إذاً كلُّ هذه المشروعات البنائية والإنمائية ، أو الأدبية والعلمية التي يؤتى مواهبها كثيرٌ من

---

(١) متفق عليه برواية أبي هريرة رضي الله عنه .

أصدقاء الإنسانية وأنصارها ، ومن هنالك ، فإنَّ الإنسانيَّة كلَّها مدينةٌ للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسَّلام ـ لأنهم أنقذوها من تلك الأخطار المحدقة التي سلِّطت على رأسها كالسيَّف المصلت ، ولا يتحرَّر من منتهم وفضلهم مشروعٌ علميٌّ ، وتخطيطٌ اجتماعيٌّ ، ولا مدرسة فكرية ، أو فلسفيَّة كما أنَّ العالم المعاصر مدينٌ لهم في هذا البقاء والاستمرار ، وجدارة الحياة ، لأنَّ الإنسان اعترف ـ أحياناً كثيرة ـ بلسان حاله، إن لم يقل بلسان مقاله ، أنه فقد حق البقاء في هذه الأرض، وأنَّه لا يحمل الآن أيَّ رحمةٍ وبركةٍ ، وفيض وإفادة ، ودعوة ورسالة للإنسانية ، إنَّه رفع الدَّعوى في المحكمة الإلهية ضدَّ نفسه ، وشهد عليه ، لقد كانت ملفاته مهيأةً للحكم العادل الأخير ، وقد نصب الإنسان نفسه لأكبر عقوبةٍ تُتصوَّر ، بل لعقوبة الإعدام ، ولا عجب في ذلك ، فحينما تتعدَّى المدنيَّة حدودها الطبيعية ، وتخرج من طورها ، وتنسى القيم الخلقية كلِّياً : أو تكفر بها صراحةً وعلناً ، ويتغافل الإنسان عن كلِّ غايةٍ نبيلةٍ ، ومقصدٍ شريف ، وعن كلِّ واقع وحقيقةٍ غير الحقائق المادِّية ، وتحقيق مآربه الجسدية ، وإرواء ظمئه الحيوانيِّ ، وحينما يحلُّ محلَّ القلب الإنسانيِّ قلب الذئب والنِّمرِ ، والفهد ، وتتكوَّن في جسمه معدةٌ خياليَّةٌ أو صناعيَّةٌ ، ونفسٌ أمَّارةٌ بالسُّوء ، لا يقرُّ لها قرار ، ولا يضبطها وازعٌ أو رادعٌ ، وحينما تصيب الإنسانية نوبةٌ شديدةٌ من الجنون ، يبعث الله لها جماعة من الجرَّاحين ، أو عصابةً من السفَّاحين ، وتأتي لأورامها المنتفخة سكاكين من ظهر الغيب تقضي عليها ، وتقطع دابرها ، وتستأصل شأفتها .

إنَّ فساد المدنيَّة ، وهوسها ، وجنونها أشدُّ من جنون الملكية والحكم الشَّخصي ، وأوسع منه شرّاً ؛ لأنَّه حين يجنُّ جنون شخصٍ ضعيفٍ نحيلٍ واحدٍ يقضُّ مضاجع أهل الحارة كلِّها ، ويبغِّض عيشهم الهادىء ، تصوَّر ماذا يحدث في العالم إذا جنَّ جنون النَّوع البشريِّ أجمع ، وتنخَّر هيكل المدنيَّة وتعفَّن ، وفسدت طبيعة الإنسانيَّة ؟ هل له من رُقيةٍ أو علاجٍ ؟ .

إلَّا أنه لم تفسد المدنية فحسب في العصر الجاهليِّ ، بل تفسَّخت جثَّتها ، وتعفَّنت ، ونشأت فيها ديدان قذرةٌ ، وأصبح الإنسان يقتنص الإنسان ، ويصطاده ، ويتلذَّذ بسكراته وشدائده عند الموت ويتمتَّع بحالة الاحتضار ، كما

يتمتَّع أحدنا بمنظر البساتين والأشجار ، والورود والأزهار ، ويطرب ، ويهتُّز لاضطرابه وتقلبه على الحجر ، ويفرح بأنين المصاب ، والمريض ، والمنكوب ، وصراخه ، وعويله ، كما يفرح بالشراب الهنيء ، والطعام الشهيِّ أو بالمنظر السارِّ الجميل .

سرِّح طرفك في تاريخ رومة التي تغنَّت أوربا ـ ولا تزال ـ بفتوحها وبطولاتها ، وأمجادها ، وتشريعها ، وحضارتها ، تجد نموذجاً حيَّاً للقسوة البشرية التي بلغت قمَّتها في هذا العصر ، يقول « ليكي » في كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » يصوِّر جانباً من همجية الإنسان وضراوته ، ووحشيته النادرة ، يقول :

إنَّ أكثر المناظر سحراً على نفوس أهل رومة ، وأعظم تسليةً ، ومتعةً لهم ، كان حين يسقط الجريح في مبارزة أحد الأبطال من بني جنسه ، أو مصارعة سبعٍ ضارٍ يتشحَّط في دمه ، هنالك كان يفلت الزمام ، ويغلب الناس على أمرهم ، ويفقدون رشدهم ، فيتهالك الحشد الحاشد ـ وفيه النساء والأطفال ، والشيوخ العجز ـ على الدنوِّ من هذا المنظر الرهيب ، والإنسان البائس الشقي ، وهو من بني جلدتهم وأبناء بلادهم ليمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره ، وليرنَّ في آذانهم رنين أنينه فقد كان أجمل من كلِّ غناءٍ وموسيقى ، وسجع الطيور ، وكان رجال الشرطة الذين كان من واجبهم المحافظة على النظافة ، يقفون مشدوهين مكتوفي الأيدي أمام هذه الموجة العارمة من المتعة الظالمة الآثمة ، لا يملكون من أمرهم شيئاً »[1] .

لقد كانت قصَّة الجاهلية الأولى أنَّ حجرها الأساسيَّ حاد عن موضعه ، بل تحطَّم ، وتهشَّم ، ولم يبق أمل في إصلاحه ، ووضعه في محلِّه الصحيح ، ووقف الإنسان أمام المحكمة الإلهية ينتظر الحكم النهائي الأخير في مصيره ، هنالك بعث محمد ﷺ ، ونادى صوت السماء : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

* * *

(١) راجع « تاريخ أخلاق أوربا » للمؤلف الإنجليزي « ليكي » ج١ ص٢٣٠ .

العالم الجديد
في حساب البعثة المحمَّدية ومنحها[١]

الحقيقة التي لا مراء فيها أن هذا الدور الذي نعيشه ، وما يليه من الأدوار التاريخية القادمة ، كلها في حساب البعثة المحمدية ، ودعوته العامة الخالدة ، وجهوده المشكورة المثمرة ، لأنه رفع ـ أولًا ـ هذا السيف المصلت على رقاب الإنسانية الذي كاد يقضي عليها ، ثم أغناها بمنح غالية ومعطيات خالدة ، وهدايا طريفة جديدة ، بعث فيها الحيوية والنشاط ، والهمة والطموح ، والعزة والكرامة ، والهدف الصحيح ، والغاية النبيلة ، واستهل ـ بفضل هذه المنح والمعطيات ـ عهد جديد من السمو الإنساني ، والثقافة والمدنية ، والربانية والإخلاص ، وإنشاء الإنسان وتكوينه الخلقي والاجتماعي .

منح البعثة المحمدية الستة ، وأثرها في تاريخ الإنسان :

ونذكر الآن ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ستة من معطياته الهامة ، ومنحه الأساسية الغالية التي كان له الدور الأكبر في توجيه النوع البشري ، وإصلاحه وإرشاده ، ونهضته وازدهاره والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء .

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة :

مأثرته الأولى ﷺ أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية ، فهي

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الخامس ، المجلد الثاني والعشرون ، عام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨م .

عقيدة ثائرة معجزة ، متدفقة بالقوة والحياة ، مقلبة للأوضاع ، مدمرة للآلهة الباطلة ، لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة .

هذا الإنسان الذي حمل دعاوى فارغة ، ومزاعم جوفاء من الشعر والفلسفة والسياسة والاجتماع ، والذي استعبد الأمم والبلاد مراراً كثيرة ، والذي حول الأحجار الصماء أزهاراً عابقة فيحاء ، وفجر الأنهار من بطون الجبال ، والذي ادعى الربوبية أحياناً ، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع ، ولا تعطي ولا تمنع : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه ، ويخافها ، ويرجو منها الخير ، إنه لم يخر ساجداً للجبال والأنهار والأشجار والحيوانات ، والأرواح والشياطين ، وسائر مظاهر الطبيعة فحسب ، بل سجد للحشرات والديدان أيضاً ، وقضى حياته كلها بين هواجس ووساوس وبين أخيلة وأوهام ، وأمان وأحلام ، كانت نتيجته الطبيعية الجبن والوهن ، والفوضى الفكرية ، والقلق النفسي وفقدان الثقة ، وعدم الاستقرار ، فأغناه ﷺ بعقيدة صافية نقية سهلة سائغة ، حافزة للهمم ، باعثة للحياة ، فتخلص عن كل خوف ووجل ، وصار لا يخاف أحداً إلا الله ، وعلم علم اليقين ، أنه وحده هو الضار والنافع ، والمعطي والمانع ، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر ، فتغير العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة ، والاكتشاف الجديد ، وصار مصوناً عن كل نوع من العبودية والرق ، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق ، وعن كل ما يشتت ويشوش الأفكار ، فقد شعر بوحدة في هذه الكثرة ، واعتبر نفسه أشرف خلق الله ، وسيد هذه الأرض ، وخليفة الله فيها ، يطيع ربه وخالقه ، وينفذ أوامره ، ويحقق بذلك هذاالشرف الإنساني العظيم ، والعظمة الإنسانية الخالدة التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد.

إنها البعثة المحمدية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة ـ عقيدة التوحيد ـ التي كانت مجهولة مغمورة ، مظلومة مغبونة ، أكثر من أي عقيدة في العالم ، ثم ردد صداها العالم كله ، وتأثرت بها الفلسفات العالمية والدعوات العالمية كلها في قليل أو كثير .

إن بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشرك وتعدد الآلهة وامتزجت به لحماً ودماً ، اضطرت في الأخير إلى أن تعترف ـ ولو بصوت خافت ، وهمسة في الآذان ـ أن الله واحد لا شريك له ، وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفياً يبرئها من تهمة الشرك والبدعة ، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام بقدر ما ، وبدأ رجالها وسدنتها يستحون من الاعتراف بالشرك ، ويخجلون من ذكره ، وأصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها بمركب النقص ، والشعور بالصَّغار والهوان Inferiority Complex فكانت هذه التحفة أغلى التحف التي سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته ﷺ .

٢ ـ مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية :

ومأثرته الثانية العظيمة ، ومنته الباقية السائرة في العالم ، هو تصور الوحدة الإنسانية ، كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات بعضها دون بعض ، وقوميات ضيقة ، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتاً هائلاً كتفاوت بين الإنسان والحيوان ، وبين الحر والعبد ، وبين العابد والمعبود ، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقاً ، فأعلن النَّبي ﷺ بعد قرون طويلة من الصمت المطبق ، والظلام السائد ، ذلك الإعلان الثائر ، المدهش للعقول ، المقلب للأوضاع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى »[١] .

وهذا الإعلان يتضمن إعلانين ، هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام السلام في كل زمان ومكان ، وهما وحدة الربوبية والوحدة البشرية ، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرة « وهي الأساس » لأن الرب واحد ، ومرة ثانية لأن الأب واحد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً

---

(١) كنز العمال .

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إنها كلمات خالدة جرت على لسان النَّبي ﷺ في حجة الوداع وحينما قام النَّبي ﷺ بهذا الإعلان التاريخي العظيم ، لم يكن العالم في وضع طبيعي هادىء يسيغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة ، ويطيقها ، إن هذا الإعلان لم يكن أقل من زلزال هائل عنيف ، إن هناك أشياء قد تتحملها بصورة تدريجية ، أو من وراء ستار ، مثل التيار الكهربائي ، فقد نلمسه إذا كان مغطى ، أو داخلاً في باطن الأسلاك ، . . . ولكننا إذا لمسناه عارياً أصابتنا صدمة عنيفة ، أو قضي علينا تماماً .

إن هذه الأشواط البعيدة ، والمسافات الشاسعة من العلم والفهم ، والفكر الإنساني التي قطعتها الإنسانية اليوم بفضل الدعوة الإسلامية ، وظهور المجتمع الإسلامي ، وبجهود الدعاة ، والمصلحين والمربين ، جعلت هذا الإعلان الهائل ، الثائر الفائر ، المزلزل لأوكار الجاهلية ، ومعاقل الشرك والوثنية والعنصرية في العالم ، منها ميثاق حقوق الإنسان Human Rights Charter الذي حملت لواءه الأمم المتحدة ، وتصريحات تقوم بها كل جمهورية وكل مؤسسة عن الحقوق الإنسانية ، والمساواة الإنسانية ، فلا يستغربها أحد ، ولكن أتى على الإنسان حين من الدهر ، سادت فيه عقيدة أشرفية بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر ، وكانت بعض الأسر والسلالات تعزو نسبها إلى الشمس والقمر ، وإلى الله سبحانه : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٣] ، إن القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] ، وكان فراعنة مصر يزعمون أنهم تجسيد لإله الشمس « رع » (Ray) ومظهر له .

أما في الهند فقد عرفت فيها أسرتان سميتا « سورج بنسي » يعني أبناء الشمس ، و « جندر بنسي » أبناء القمر ، أما في إيران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنه يجري في عروقهم الدم الإلهي ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم

نظرة تقديس وتأليه ، وكان من ألقاب كسرى أبرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨م) ووصفه : « في الآلهة إنسان غير فانٍ ، وفي البشر إله ليس له ثانٍ ، علت كلمته ، وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضوئه وينير الليالي المظلمة بنوره »[١] .

وكذلك كانت للقياصرة آلهة ، كان كل من تملك زمام البلاد كان إلهاً ، وكان لقبهم (August) يعني « المهيب الجليل »[٢] .

أما الصينيون فكانوا يعتبرون الإمبراطور ابن السماء ، ويعتقدون أن السماء ذكر والأرض أنثى ، وباتصالهما خلق هذا الكون ، وأن الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين[٣] .

أما العرب فكانوا يعتبرون كل من سواهم « العجم » وكانت قبيلة قريش ترى نفسها أشرف قبائل العرب ، وتحافظ على امتيازها في الموسم ، فلا تشارك الناس في مواقفهم ومساكنهم[٤] ، ولم تكن تدخل عرفات[٥] مع الحجيج ، بل تبقى في الحرم وتقف بالمزدلفة ، وتقول نحن أهل الله في بلدته ، وقطان بيته ، وتقول نحن حمس[٦] .

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان وسموه :

والمنة الثالثة العظيمة على النوع البشري ، هو إعلان كرامة الإنسان وسموّه ، وشرف الإنسانية وعلو قدرها ، لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمدية إلى حضيض الذل والهوان ، فلم يكن على وجه الأرض شيء أصغر منه وأحقر ، وكانت بعض الحيوانات « المقدسة » وبعض الأشجار « المقدسة »

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ، ص٦٠٤ .
(٢) راجع العالم الروماني (Tha Roman World) تأليف Victor Chopart ، ص٤١٨ .
(٣) انظر « تاريخ الصين » بقلم جيمس كاركرن .
(٤) انظر كتب الحديث والسيرة .
(٥) عرفات خارج الحرم .
(٦) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها .

التي علقت بها أساطير ومعتقدات خاصة أكرم وأعز عند عبادها ، وأجدر بالصيانة ، والمحافظة عليها من الإنسان ، ولو كان ذلك على حساب قتل الأبرياء ، وسفك الدماء ، وكانت تقدم لها القرابين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير وتأنيب قلب ، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة في بلاد متقدمة راقية ، كالهند في القرن العشرين ، فأعاد سيدنا محمد ﷺ إلى الإنسانية كرامتها وشرفها ورد إليها اعتبارها وقيمتها ، وأعلن أن الإنسان أعز وجود في هذا الكون وأغلى جوهر في هذا العالم ، وليس هنا شيء أشرف وأكرم ، وأجدر بالحب ، وأحق بالحفاظ عليه من هذا الإنسان ، إنه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه ، خلق له العالم ، وهو خلق الله وحده ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وأنه أشرف خلق الله ، وفي مكان الرئاسة والصدارة : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وليس أدل على كرامته والاعتراف بعظمته من قوله : « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله »(١) .

وليس هنا أبلغ في الدلالة على سمو الإنسانية ، والتقرب إلى الله بخدمتها ، والعطف عليها ، من الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ قال : « إن الله عزَّ وجلَّ يقول يوم القيامة : يا بن آدم ، مرضت فلم تعدني ! قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، يا بن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ! قال : رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا بن آدم ، استسقيتك فلم تسقني ، قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم

(١) رواه البيهقي .

تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي »[١] .

هل يتصور إعلان أوضح وأفصح بسمو إنسانيته ، وعلو مكانة الإنسان من هذا الإعلان ، وهل فاز الإنسان بهذه المكانة السامقة والشرف العالي في أي ديانة وفلسفة في العالم القديم والحديث ؟ .

إنه ﷺ جعل الرحمة على بني آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله ، فقال عليه السلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[٢] .

ترى ما كان عليه وضع العالم ، وحالته الاجتماعية والسياسية ، قبل أن ينهض النَّبي ﷺ بهذه الدعوة ، دعوة الوحدة الإنسانية ، والكرامة الإنسانية ، ويجاهد في سبيلها أبلغ جهاد ؟

لقد كان ثمن شهوة فرد واحد ، وهوى شخص واحد ، قبل بعثته ﷺ أكبر ، وأغلى من أرواح الآلاف ومئات الآلاف من البشر ، ينهض ملك واحد ، وإمبراطور واحد ، يكتسح البلاد ، ويستعبد العباد ، ويضرب الرقاب ، ويهلك الحرث والنسل ، ويأتي على الأخضر واليابس ، لتحقيق مأرب حقير في نفسه ، ويزحف الإسكندر حتى يبلغ الهند ، ويدمر في طريقه حضارات ومدنيات ، وينهض شره ويقتنص الفئات البشرية ، كما يقتنص أحدنا حيوانات الغابة ، واندلعت في زماننا حربان عالميتان ذهب ضحيتهما ملايين ، ولم يكن ذلك إلا نتيجة صلف قومي ، وأنانية فردية ، وشهوة الحكم ، والسيطرة على الأسواق التجارية العالمية .

٤ ـ محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء ، والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان :

المأثرة الرابعة أن أكثر أفراد النوع الإنساني كانوا مصابين باليأس من رحمة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .
(٢) رواه أبو داود .

الله ، وبسوء الظن بالفطرة الإنسانية السليمة ، وكان في إيجاد هذا الجو الخاص ، والحالة العقلية الخاصة دور كبير لبعض الديانات الشرقية القديمة ، والمسيحية المحرفة في اوربا ، وفي الشرق الأوسط ، فقد دانت الديانات القديمة في الهند بعقيدة التناسخ ، وفلسفته التي لا مجال عندها في إرادة الإنسان وتصرفه مطلقاً ، وأن كل إنسان مضطر لا محالة لنيل عقوبة ما ، لما قدمت يداه في حياته الأولى ، وذلك بالظهور في شكل سبع مفترس ، أو دابة سائمة ، أو حيوان خسيس ، أو إنسان شقي معذب .

بينما نادت المسيحية بأن الإنسان عاص ومذنب بالولادة والفطرة ، والمسيح صار كفارة وفداء له عن هذه الذنوب ، فأنشأت هذه العقيدة ـ بطبيعة الحال ـ في نفوس الملايين في العالم المتمدن المعمور الذين اعتنقوا المسيحية ، سوء ظن بنفوسهم ، ويأساً عن مستقبلهم ، وعن الرحمة الإلهية .

هنالك أعلن النَّبي ﷺ بكل قوة وصراحة ، أن فطرة الإنسان هي كاللوح الصافي ، الذي لم يكتب عليه بعد ، ويمكن أن ينقش فيه أروع نقش ، ويحرر فيه أجمل تحرير ، وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه ، ويستحق الثواب والعقاب ، والجنة والنار ، بعمله ، وهو غير مسؤول عن عمل غيره ، فقد ذكر القرآن في مواضع كثيرة ، أن الإنسان مسؤول عن عمله فحسب ، وأنه مثاب ومشكور على سعيه : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم : ٣٨ ـ ٤١] .

هذا الإعلان أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعية ، وانطلق إلى الأمام بعزم قوي ، وحماس زائد ، وعاطفة جياشة ليصنع مصيره ومصير الإنسانية ، ويجرب حظه وقدرته في تلك الإمكانيات الهائلة ، والفرص الغالية .

إن محمداً ﷺ قرر أن المعاصي والذنوب ، والأخطاء والزلات فترة عابرة زائلة في حياة الإنسان ، يقع فيها الإنسان بجهله وغروره ، وقصر نظره حيناً ، وبإغواء الشيطان ، وإغراء النفس بعض الأحيان ، وأن الصلاح والصلاحية ، والاعتراف بالذنب ، والندامة أصل من أصول فطرته ، وجوهر إنسانيته ، وأن

الابتهال إلى الله ، والتضرع إليه ، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب ، دليل على شرف الإنسان ، وأصالة معدنه ، وهو ميراث آدم عليه السلام .

إن محمداً ﷺ فتح أمام المذنبين الخطائين ، الغارقين في حمأة المعصية والرذيلة إلى آذانهم ، باباً واسعاً للتوبة ، ودعا إليه الناس دعوة عامة ، وشرح فضل التوبة شرحاً وافياً ، وأفاض فيه إفاضة نستطيع بها القول بأنه أحيا هذا الركن الخاص العظيم من الدين ، ولذلك سمي « بنبي التوبة » من بين أسمائه الجميلة الأخرى ، لأنه ما دعا إلى التوبة كوسيلة اضطرارية يتدارك بها الإنسان ما فاته فحسب ، بل إنه رفع من شأنها حتى صارت من أفضل العبادات ، والقربات عند الله ، وصارت طريقاً سهلاً للوصول ـ في أقرب وقت ـ إلى أقصى درجات القرب والولاية ، يغبط عليها النساك والزهاد ، والأبرياء والأطهار من عباد الله .

إن القرآن شرح فضل التوبة وسعتها ، ونقاء الإنسان من أكبر ذنب وأعظم معصية يتصورها الإنسان ، وذلك بأسلوب جميل يستهوي القلوب ، ودعا العصاة والمذنبين ، وصرعى النفس والشيطان إلى اللجوء إلى الله سبحانه ، والفرار إليه ، والتفيؤ بظلال رحمته ، والترامي في أحضان رأفته وعطفه ، وصَوَّر بحار رحمته الزاخرة ، الواسعة الأرجاء ، المحيطة بالأنفس والآفاق ، تصويراً رائعاً جميلاً ، شائقاً مثيراً ، يبدو منه أن الله سبحانه وتعالى ليس حليماً رحيماً ، وجواداً كريماً فحسب ، بل إنه ـ إذا صح هذا التعبير ـ يحب التوابين ، ويشتاق إليهم ، ويشكر سعيهم البليغ ، ويقدره كل التقدير ، اقرأ الآيات التالية ، وتذوق أسلوب هذا اللطف والعطف ، وجو الود الذي يغشى هذه الآيات :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد في الآية التالية ، حيث ذكر الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين ، فاستهل هذه القائمة المشرقة النورانية بالتائبين ، إنها آية من سورة « التوبة » :

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢] .

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه ، وإظهار الثقة به تجلى واضحاً حين أعلن القرآن قبول ثلاثة من أصحاب النَّبي ﷺ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[١] من غير عذر صحيح مقبول ، وبقوا في المدينة ، فبدأ القرآن بذكر النَّبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ، الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة ، ثم ثنى بهؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا ، حتى لا يشعر هؤلاء المخلفون بإفرادهم بالتوبة ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان ، وما يسمى في علم النفس « بمركب النقص » ، ويتضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعية في الصف الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلا داعي للاستحياء ، ولا مكان للعار .

هل هناك مثال أروع وأجمل ، وأدق وأعمق ، وأحلى وأزهى لقبول التوبة ، وتكريم التائب ، ومسح غاشية الكآبة عنه بلطف وود ، وحب وحنو في تاريخ الأديان ، والأخلاق ، والتربية والإصلاح ، من هذا المثال ؟ .

اقرأ معي الآيات التالية :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٧ ـ ١١٨] .

ثم أعلن أيضاً كمبدأ عام أن رحمة الله تسع كل شيء ، وتسبق غضبه وجلاله ، يقول القرآن : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وجاء

(١) اقرأ للتفصيل كتب السيرة ، والتفسير ، والحديث ، « غزوة تبوك » .

في حديث قدسي : « إن رحمتي سبقت غضبي » إنه جعل اليأس مرادفاً للكفر والجهل والضلال ، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] ، وذكر في موضع آخر قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦].

وهكذا أسعف النَّبي ﷺ بهذه الدعوة المفتوحة العامة إلى التوبة وبيان فضائلها ، وسعتها وشمولها ، الإنسانية المذعورة الخائفة التي كانت تئن تحت وطأة اليأس ، والقنوط ، وترتعد فرائصها بإنذارات العقاب والعذاب ، ومظاهر الغضب والجلال ، (وقد كان في ذلك لعلماء اليهود ، وشرح الكتب المقدسة ، ورهبان المسيحية الغلاة المتطرفين أكبر نصيب) ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة ، ونفخ في قلبها الضعيف المتواني وجسدها الهامد البارد روحاً جديدة ، وحرارة جديدة ، وهيأ لجروحها بلسماً ، ورفعها من حضيض التراب إلى أوج العزة والسيادة ، والثقة والاعتزاز ، والاعتداد بالنفس ، والاعتماد على الله .

٥ ـ الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات التجارية :

لقد وزعت الديانات القديمة، خاصة المسيحية، الحياة الإنسانية في قسمين: قسم للدين ، وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين : معسكر رجال الدين ، ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير ووقف بينهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين وكان كل واحد يعتقد أن هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما ، لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكنه ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة ، وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية ، والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير رهبانية ، وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة دينية لا تسمح بالاستمتاع المباح ، والنهضة ، والعزة ، والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء ، والكفاءات العلمية ، آثر الدنيا على الدين ، ورضي بها ـ كحاجة اجتماعية ، وواقع حي ـ واطمأن إليها ، وعكف على تحسين هذه الحياة ، والحصول على ملذاتها ، ولم يبق له أمل في الرقي الديني ، والتقدم الروحي .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة ، هجروه على أساس التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلد الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين ، وتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كَفِيلٍ هائج مائج ، تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا ، وذلك العداء المشؤوم بين « رجال الدين ورجال الدنيا » فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية ، وكانت فريسته الغرب أولًا ، والأمم التي دانت له في الفكر والعلم والثقافة ، أو عاشت تحت رايته ثانياً .

وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون ، الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[١] وقدموا صورة وحشية كالحة مفزعة للدين ، تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في نهاية الشوط إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني ، أو فقدان الحاسة

---

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربا » ، ج٢ ، لمؤلفه ليكي .

الدينية في هوة عميقة من اللادينية ، والفوضى الخلقية العامة[١] .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنَّتها العظيمة نداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق ، هو الهدف الذي ينشده المرء ، والذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ، ولكنه واسع عميق « النية » ، فقال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »[٢] .

وإن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص ، وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله ، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ، ودرجات الإيمان وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالاً وحكماً وإدارة ، وتمتعاً بطيبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ، ونسيان الآخرة ، ولو كا نت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل ، والعالم ، والمجاهد ، والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً ، وتكون بينه وبين الله حجاباً[٣] .

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between Religion & Science) (لدرابر Draper) أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الباب الرابع « العصر الأوربي » .

(٢) الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري كتابه « الجامع الصحيح » ، وتمام الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (حديث متفق عليه) .

(٣) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك . انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان ، والاحتساب .

إن المأثرة الخامسة من مآثر سيدنا محمد ﷺ أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين ، اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلفٍ وود ، ويتعايشان في سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية ، وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع ، المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية القرآنية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموع وحدات متفرقة مضادة ، بل هي وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب ، ويقودها الإيمان بالله والإسلام لأوامره ، وهي تشمل شعب الحياة كلها ، وميادين الكفاح كلها ، وأصناف العمل كلها ، إذا تحقق الإخلاص ، وصحت النية ، وأريد بها وجه الله ، وكانت على المنهج الصحيح الذي جاء به الأنبياء فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والانسجام بالكمال والتمام ، وأنه البشير والنذير في نفس الوقت ، إنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا ، فجعل الحياة كلها عبادة ، وجعل الأرض كلها مسجداً ، وأخذ بيد الإنسان من معسكرات متحاربة متصارعة ، إلى جبهة واحدة واسعة من العمل الصالح ، وخدمة الإنسانية النافعة ، وابتغاء مرضاة الله ، فترى هناك ملوكاً في أطمار الفقراء ، وزهاداً في زي الملوك والأمراء ، جبال حلم وينابيع علم ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، مِن غير تناقض أو صعوبة ، واختلال أو تعسف .

٦ ـ تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح :

المأثرة السادسة ، أو الانقلاب السادس الذي أحدثه محمد ﷺ في الحياة البشرية ، أنه هدى الإنسان إلى محل لائق كريم يصرف فيه قواه ، ورفعه إلى أجواء فسيحة عالية يحلق فيها .

كان الإنسان قبل البعثة المحمدية جاهلاً لهدفه الحقيقي ، لا يدري إلى أين يتجه ، وإلى أين المصير ؟ وما هو المجال الأفضل والحقيقي لمواهبه وطاقاته وجهوده ؟

إنه وضع لنفسه مقاصد وهمية صناعية ، وحصر نفسه في دوائر ضيقة محدودة ، كانت تستنفد قواه وطاقاته وذكاءه ، وكان المثل الأعلى عنده للرجل الناجح واللامع من يكون أكثر جمعاً ومالاً ، وأوسع نفوذاً وقوة ، متحكماً في أكبر مجموعة من البشر ، وأوسع بقعة من بقاع المعمورة . كان هناك ملايين لم يزد طموحهم على التمتع بألوان زاهية ، وأصوات مطربة ، وأطعمة لذيذة ، وأكثر من تقليد البلبل في صوته ، أو الطاووس في لونه ، بل أكثر من مسايرة الماشية والغنم ، والأنعام والدواب ، كان هناك آلاف عاشوا دائماً بين بلاط الملوك ، وحاشيتهم ، وبذلوا نبوغهم وذكاءهم في التزلف إلى الأمراء ، والتملق أمام الأغنياء ، أو الخضوع للجبابرة والأقوياء ، أو التسلي بالأدب الفارغ الذي لا قيمة له في الدنيا والآخرة ، فجاء محمد ﷺ وجعل غايته الأخيرة الحقيقية ، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه ، وأرسخ في قلب الإنسان ، أن المجال الحقيقي لجهده واجتهاده ، ومواهبه وأشواقه ، وطموحه وسموه وطيرانه وتحليقه ، هو معرفة فاطر السموات والأرض ، واطلاع على صفاته ، وقدرته وحكمته ، وسعة ملكوت السموات والأرض وعظمتها وخلودها ، والحصول على الإيمان واليقين ، والفوز برضوان الله وحده ، والرضا به وبقدره ، والبحث عن وحدة تؤلف بين الأجزاء المتناثرة أحياناً ، والمتناقضة أحياناً أخرى ، وتنمية قواه الباطنة ، ومداركه الروحية ، للوصول إلى درجات القرب واليقين ، والحث على خدمة الإنسانية ، والإيثار والتضحية ، والوصول بذلك إلى مكان لا تصل إليه الملائكة المقربون ، وتلك هي السعادة الحقيقية للإنسان ، ونهاية كماله ، ومعراج قلبه وروحه .

ولادة عالم جديد ، وإنسان جديد :

لقد تغيرت الدنيا بعد بعث النَّبي ﷺ وبفضل تلك التعاليم السامية ، كما

يتغير الطقس ، وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب وخريف ، وسموم وحميم ، إلى فصل كله ربيع وأزهار ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ، تغيرت طباع الناس ، وأشرقت القلوب بنور ربها ، وعم الإقبال على الله ، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه ، وذوق لم يجربه ، وهيام لم يعرفه من قبل .

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة الباردة الهامدة ، بحرارة الإيمان وقوة الحنان ، استضاءت العقول بنور جديد ، وسكرت النفوس بنشوة جديدة ، وخرجت الإنسانية أفواجاً تطلب الطريق الصحيح ومحلها الرفيع ، وتحنّ إلى مكانتها السامقة العالية ، فلا ترى أمة من الأمم ، وبلداً من البلاد ، إلا وهو يريد السباق في هذا المضمار ، ويتنافس فيه ، فما ترى العرب والعجم ، ومصر والشام ، وتركستان وإيران ، والعراق وخراسان ، وشمالي إفريقية ، والأندلس وبلاد الهند ، وجزائر شرق الهند ، إلا سكارى هذا الحب العلوي ، والفيض السماوي ، وعشاق هذا الهدف السامي ، وفقراء على هذا الباب العالي .

كان يبدو أن الإنسانية أفاقت واستيقظت ، وفتحت عيونها بعد سبات عميق طويل ، دام قروناً طويلة ، فأرادت أن تتدارك ما فاتها حتى عمر كل جزء من أجزائها ، وكل ركن من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين ، مجاهدين مصلحين ، مربين ، عارفين بالله متحرقين لخلق الله ، باذلين نفسهم ونفيسهم لخير الإنسانية ، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من كل جانب ، رجال تحسدهم الملائكة ، فأشعلوا مجامر القلوب الباردة ، وأزكوا شعلة الحب الإلهي ، وفجروا أنهار العلوم والآداب ، والحكم والمعارف ، وفتحوا ينبوعاً فياضاً ، متدفقاً من العلم والعرفان ، والإيمان والحنان ، وأنشؤوا في نفوس البشر مقتاً شديداً للظلم والجور ، والعدوان والبغضاء ، ولقنوا الشعوب المضطهدة ، المهانة الذليلة ، دروس المساواة ، وضموا المنبوذين والمهجورين ، والمساكين الذين لفظهم المجتمع ، وطردهم أهلهم وعشيرتهم ، إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان ، إنك تجد آثارهم ،

وتلمس آياتهم على كل جزء من أجزاء البسيطة كمواقع القطر ، لا يخلو منها بيت وبر ، ولا مدر .

وانظر في جوهر أعمالهم وكيفيتها Quality فضلاً عن كميتها Quantity وشاهد سمو أفكارهم ، وتحليقها في أجواء وآفاق رفيعة ، وانظر شعورهم المرهف ، وروحهم اللطيفة الوادعة الرقيقة ، وذكاءهم الوقاد ، وطبعهم السليم ، وكيف كانوا يتوجعون للإنسانية ويذوبون لها كالشمعة ، وكيف كانت نفوسهم وأرواحهم تتلوى وتذوب في نار الأسى والإشفاق ، والعطف على الخلق ، والحرص على ما فيه نفعه وصلاحه ، كيف كانوا يقعون في المهالك ، ويرحبون بالخسائر لإنقاذ الناس ، ودفع البلاء عنهم ، كيف كان حكامهم وولاة أمورهم ، يصرفون الأمور ، ويشعرون بالمسؤولية ، يعسون بالليل ويترابطون على الثغر ، وكيف كان الشعب منسجماً معهم ، مطيعاً لأوامرهم ، واقرأ ـ أيضاً ـ أخبار عبادتهم ، وزهدهم ، وحالتهم في الدعاء ، ومكارم أخلاقهم ، وشهادتهم عل نفوسهم ، واحتسابهم لها ، وحبهم للصغار ، والضعفاء ، ولين قلوبهم مع الإخوان والأصدقاء ، وكرمهم وسماحهم ، وعفوهم وصفحهم عن الأعداء ، وسوف ترى أن أحلام الشعراء والأدباء ، وخيالهم الخصيب ، وقريحتهم الفياضة ، لا تصل إلى تلك القمة العالية التي وصل إليها هؤلاء في عالم الحقيقة والواقع ، ولولا تواتر ما جاء في هذا الباب واستفاضته ، ولولا شهادات التاريخ الموثوق بها ، بدت هذه الأخبار كقصص وأساطير نسجها الخيال .

إن هذا الانقلاب العظيم ، والدور الزاهر الجديد معجزة من معجزات محمد ﷺ ومأثرة من مآثر بعثته ، ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية التي عمَّت الأمكنة كلها ، والأزمنة كلها .

وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

* * *

فضل عقيدة ختم النبوة على المدنيَّة[١]

لقد بقيت عقيدة ختم النبوة تحرس هذا الدِّين من غائلة المبتدعين ، وفتنة المتنبئين والمتزعمين ، وتحرس هذه الأمَّة من الفوضى الفكرية والدِّينية ، التي كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها ، واستطاع هذا الدين ، واستطاعت هذه الأمة ـ بفضل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحتمل الصدمات العنيفة ، وبقيت وحدة في الدين والعقيدة ، لم تواجه ثورةً داخليةً أو اضطراباً فكرياً ـ إلا ما كان من الباطنية في العهد القديم ـ ولا تنقسم هذه الأمَّة في الأمم ، لكلٍّ وجهتها ، ولكلٍّ مركزها الروحي ومصدرها العلميِّ والثقافيِّ ، ولكلٍّ تاريخٌ منفردٌ ، وماضٍ مختلفٌ .

وقد بعثت هذه العقيدة في الإنسان الثقة ببلوغه سنَّ الرشد ، وكان ذلك حافزاً للإنسان على التقدُّم في مضمار المدنيَّة ، والاعتماد على العلم ، والتجربة في الحياة اليوميَّة ، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحياً جديداً من السماء ، فيرفع بصره إليها ، وإنما حاجته اليوم أن يفكِّر في مواهب هذا الكون ، وطاقاته التي خلقها الله تعالى ليشغلها الإنسان في صالحه ، ويستخدمها لحوائجه ، كما أنَّ حاجته اليوم أن يفكِّر في نفسه ، وينظر إلى الأرض لبناء حياةٍ أفضل ، تقوم على أساس من الدِّين والأخلاق ، إنَّ الاعتقاد بانتهاء النبوة يبعث في الإنسان روح الطموح والتقدُّم ، ويحثُّه على بذل مواهبه ، ويعين له المجال السليم لكفاحه وجهوده .

لولا عقيدة ختم النبوة لفقد الإنسان ثقته بنفسه ، وبقي في ريبٍ دائمٍ ،

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثامن ، المجلد التاسع عشر عام ١٩٧٥م .

وظلَّ شاخصاً ببصره إلى السماء ، بدلًا من أن ينظر إلى الأرض ، وفقد ثقته بمستقبله ، وثارت شبهاتٌ وشكوكٌ حوله ، ووقع فريسة المتنبئين على الدَّوام ، ولا يظهر متنبئى يؤكد له « أنَّ الروضة الإنسانية كانت ناقصةً ، فجئت وبلغت إلى كمالها » إلا أنه يضطر إلى اعتقاد أنَّ هذه الروضة إذا كانت ناقصة إلى الآن ، فأيُّ ضمانٍ لكمالها في مستقبل الحياة الإنسانية .

وهكذا يستمرُّ انتظاره لمن يبلغ بهذه الروضة إلى حدِّ الكمال ، دون أن يتمتَّع بأزهارها وأثمارها ودون أن يهمَّه سقيها وريُّها .

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه « تجديدالفكر الدِّيني في الإسلام » .

« إنَّ النبوَّة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النبوَّة نفسها ، وهو أمرٌ ينطوي على إدراكها العميق ، لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وأنَّ الإنسان لكي يحصِّل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو ، إنَّ إبطال الإسلام للرهبنة ، ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، وإصراره على أنَّ النظر في الكون ، والوقوف على أخبار الأوَّلين من مصادر المعرفة الإنسانية ، كلُّ ذلك صورٌ مختلفةٌ لفكرة انتهاء النبوة » .

فتنة المتنبئين الكبرى :

لم يمتحن الإسلام والمسلمون في تاريخ الإسلام الطويل بفتنة أعظم وأدق من فتنة المتنبئين ، إلا أنَّ دعوة أكثرهم لم تلق نجاحاً يذكر . وقد ماتت في مهدها ، ولم يبق لها عين ، ولا أثر ، ولكن الشأن يختلف فيما يختصُّ بمتنبىء شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر والعشرين : المرزا غلام أحمد القادياني (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨) لأسبابٍ سياسيةٍ اقتضت ذلك .

فقد فتح باب النبوة على مصراعيه ، وقال : « إنَّ اتباع النبيِّ ﷺ يمنح كمالات النبوة ، وإنَّ العناية بذلك والاهتمام ينحت الأنبياء الجدد ، ويخلقهم ، وقال نجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود : لقد اعتقدوا أنَّ كنوز الله قد نفدت ، ما قدروا الله حق قدره ، إنكم تتنازعون في نبيٍّ واحدٍ ،

وأنا أعتقد أنه سيكون هنالك ألف نبيٍّ بعد محمد ﷺ » .

وقد أحدث ذلك فوضى في النبوة ، وفقدت كلمة « النبوة » جلالتها ، وحرمتها ، وقداستها ، وأصبحت ألعوبة ، وعبثاً ، وهان على الناس بصفة عامَّةٍ بعد المرزا أن يتنبؤوا ، وما عرفنا في التاريخ الهندي ـ الذي لا يزال محفوظاً إلى حدٍّ كبيرٍ ـ شخصيةً أنكرت ختم النبوة ، وتجرأت على تأسيس دينٍ جديدٍ ، سوى الإمبراطور « أكبر » غير أنه لم يدَّع النبوة ، كما ادعاها المرزا بصراحةٍ وتنظيمٍ ، ولكن المرزا هو أول من فتح هذا الباب بوجهٍ عام ، ونهض عدد من المتنبئين ، وقد عدَّ منهم الأستاذ محمد إلياس البرني إلى عام (١٩٣٦م ـ ١٣٥٥هـ) سبعة ، ولا شكَّ أنه لم يكن إحصاءاً دقيقاً ، وإلا فإن قام أحد بإحصائهم بشيءٍ من الاهتمام والدقة ، لوجد في نفس مقاطعة « بنجاب » أكثر من هذا العدد بكثير .

وقد احتجَّ على كثرتهم وضعف آرائهم ، وسفاهة أحلامهم المرزا بشير الدين محمود نفسه في إحدى محاضراته ، يقول : « لقد نشأ في جماعتنا كثير ادعوا النبوة ، وأعتقد أنهم ليسوا في الدعوى كاذبين غير واحدٍ منهم ، وفي الحقيقة إنَّهم ألهموا في أول الأمر ، ولا عجب إذا كان هذا الإلهام باقياً إلى الآن ، ولكن الخطأ الذي وقعوا فيه هو أنَّهم أخطؤوا في فهم تلك الإلهامات ، وأنا شخصياً أعرف بعض هؤلاء حتى أستطيع الإقرار بإخلاصهم وخشيتهم لله ، ولا يدري ما في قلوبهم إلا الله ، سوى أنَّهم كانوا في بادىء الأمر مخلصين ، وكانت بعض إلهاماتهم من الله ، ولكنَّ الذي سبب خسارتهم هو أنَّ حكمتها خفيت عليهم ، فعثروا » .

فتنة المكالمات والمخاطبات الإلهية ورؤية الباري تعالى في الدنيا :

ويعرف المطلع على التاريخ الفكري ، وتاريخ التصوُّف ـ الإسلاميِّ وغير الإسلاميِّ ـ ويعرف المطلع على التاريخ الفكري ، وتاريخ التصوُّف ـ الإسلاميِّ وغير الإسلاميِّ ـ أنَّ الاتصال بعالم الغيب عن طريق الرياضات والمجاهدات ، وتلقي الإلهام والكلام ، والهتافات ، والأصوات من هذا العالم ، كان مدخلاً

واسعاً للأوهام ، والمغالطات ، والتناقضات ، ودخل منه الشيء الكثير من الأضاليل والأباطيل عن قصدٍ ، وعن غير قصدٍ ، كان من الصعب دائماً التمييز بين مصادرها ودرجاتها ، وما هو من الله ، وما هو من الشيطان ، وما هو نابع من العادات والمألوفات ، والعلم السائد ، والثقافة المنتشرة ، والعقائد التي نشأ عليها هذا « الملهم » أو « المحدث » أو « المكشوف له » وقد بين علماء هذا الشأن الذين سلكوا هذا الطريق أنَّ التجرُّد عن تأثير العوائد والعقائد والبيئة في تلقِّي هذه « المغيبات » وفهمها يكاد يكون مستحيلاً .

وكلُّ من جعل هذه « المكالمات والمخاطبات الإلهية » أو رؤية الباري تعالى شرطاً للهداية أو للنجاة ، أو لكمال الإيمان ، وأسس على ذلك نبوَّةً جديدةً ، أو دعوةً جديدة ، وألزم ما لم يلزم ، وجنى على هذا الدِّين الذي هو عامٌّ للبشر جنايةً عظيمةً ، وأفقده بساطته وسهولته ، وعمومه للبشرية ، وفتح باباً واسعاً للفساد ، والاضطراب ، والفوضى ، كما فعل المرزا غلام أحمد القادياني ، فقد جعل « المكالمات والمخاطبات الإلهية » شرطاً لصحة الديانة ، ونتيجةً طبيعيةً للعمل بالأحكام الشرعية ، السعي في العبادة ، وزعم أنَّ الدِّين الذي لا توجد فيه هذه المخاطبات الإلهية ، إنَّما هو دينٌ باطلٌ ، وميِّتٌ ، بل هو دين الشيطان المؤدي إلى جهنم ، وإذا كان أتباع دين لم يتشرفوا بهذه النعمة رغم عباداتهم وعلمهم بالأحكام الشرعية ، فإنَّما هم في جهلٍ وغوايةٍ .

وتهافت هذا الرأي وسخافته غنية عن الردِّ عليه ، وبسط القول فيه ، وحسب القارىء أنَّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين كانوا زرع النبوة ، وغرس القرآن ، والجيل المثالي في تاريخ البشرية ، وعلى أكتافهم قام الإسلام ، لم يدَّعوا هذه « المكالمات والمخاطبات » ورؤية الباري تعالى بالعين أو القلب ، ولم ينسب التاريخ إليهم ذلك ، ولم يعرف عنهم التنافس فيه ، أو الحرص عليه ، أو التأسُّف على فواته ، فكيف بمن جاء بعدهم ، ولم يبلغ شأوهم في الدين والعلم .

وقد لوحظ في التاريخ مراراً أنَّ كلَّ دعوةٍ متطرفةٍ قامت على مثل هذه

الدعاوى ، والافتراضات ، والتجارب الشخصية ، لم تفد إلا إنشاء طائفة متطرفة تنشق عن المسلمين ، وتنابذهم ، وقد تكفِّرهم ، وتتحوَّل على مر الزَّمان ديانةً مستقلةً ، وتصبح مشكلةً جديدةً في المجتمع الإسلامي والإنساني يعيي كبار العقلاء والقادة حلُّها والتغلُّب عليها ، ولا تخدم مصلحةً من مصالح الإنسانية ، وإصلاح النفوس ، والدَّعوة إلى الله .

* * *

النبيُّ الخاتم ، والدِّين الكامل
وما لهما من أهميَّة في تاريخ الأديان والملل[(١)]

الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيِّين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين .

أما بعد ! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

أيها السادة ! الذي سأتحدث عنه الآن بصفتي دارساً متواضعاً للقرآن الكريم ، وتاريخ الأديان والملل ، دراسةٌ مقارنةٌ للديانات ، إنما يكون إشاراتٍ خاطفةً .

يا سادة ! إنَّ دراسة القرآن الكريم تدلُّ على أن هناك أمرين يحملان أهميةً قصوى فيما يتعلق بالدِّين ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وعد بتحقيقهما ، والأديان تحتاج إليهما : وهما : « نشر الدِّين ، وصيانة الدِّين » .

أمَّا الإسلام ، فقد جاءت له في القرآن الكريم إشاراتٌ واضحةٌ إليهما ، فقد قال الله عزَّ وجلَّ فيما يتَّصل بنشره : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

---

(١) هذا البحث القيم قدَّمه العلامة الندوي في مؤتمر صيانة ختم النبوة العالمي ، المنعقد في جامعة دار العلوم ديوبند الإسلامية في ٢٤ ـ ٢٠ من صفر ١٤٠٧هـ (٢٩ ـ ٣٠ من أكتوبر ١٩٨٦م) .
ثم نُشر هذا البحث في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الأول ، المجلد الثاني والثلاثون عام ١٩٨٧م .

إنَّ قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، تدل دلالة واضحة على أن الدين الإسلامي سيغلب الأديان كلها ، ليس يغلبها سياسياً فقط ، بل بقوة الحجة والبرهان ، وتسخير العقل والوجدان .

وقد جاء في موضع آخر تبشيراً للنبي ﷺ وإنباءً بانتشار دينه انتشاراً بالغاً ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر] .

وقد تجلَّى منظر ﴿ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ في حياته ﷺ ، غير أنَّه تكرَّر وكثر في تاريخ الإسلام ، واتَّصل اتصالاً غير منقطع النظير .

وجاء في سورة النور :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

إنَّ التَّمكين في الأرض يتضمَّن التأكيد عن « نشر الدين » ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] .

إنَّ هذه الكلمات زاخرةٌ بالمعاني ، باعثةٌ للتفكير ، وإنَّ التاريخ يصدق ما انطوت عليه من الحقائق .

وكذلك ضمن القرآن الكريم للإسلام بالصيانة والحفاظ ، والإعلان الصارخ المدهش ؛ الذي شهد به التاريخ ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

إعلانٌ صريحٌ كلَّ الصراحة من الربِّ الأكرم إنَّه هو الذي نزل القرآن ، وهو الذي يضمن له الحفاظ والصيانة ، شريعةً ، وأحكاماً ، ولغةً ، وأدباً ، وفهماً ، وتفسيراً ، بل يضمن ببقاء شعوبٍ وبلادٍ تنطق بلغة القرآن ، وتستخدمها ، فلا بقاء للغة إلا ببقاء من يتكلم ويتفاهم بها ، ويغار عليها ، وذلك يشمل بقاء آدابها ، وقواعدها ، ومكتبتها ، وحركة التأليف .

يا سادة ! التاريخ يدلُّ ـ ولا أقول : إنَّ التاريخ تفسير للقرآن الكريم ؛ لأنَّ ذلك يكون اجتراءً كبيراً ، ولكنِّي أقول : إنَّه تصديقٌ له ـ على أنَّ الأديان الأخرى لا يشكُّ في نجاحها فيما يتعلَّق بانتشارها ، فقد فتح بعضها في عهدٍ قريبٍ نصف الكرة الأرضية ، وبعضها ربعها ، وبعضها عمَّ العالم من شرقه إلى غربه .

ومن بين الديانات التي تركت أثراً عميقاً على بلاد العالم ، وعلى المجتمع البشري والفكري البشري ديانتان جديرتان بالذكر ـ كما تؤكد دراسة تاريخ الدِّيانات ـ البوذية ، والمسيحية .

أما البوذية فقد عمَّت آسيا الوسطى كلَّها ، ونفذت إلى أفغانستان ، وتركستان بما فيها سمرقند وبخارى ، وتدل الحفريات والاكتشافات على أنَّ الحضارة البوذية كانت قد سيطرت على المناطق الممتدة بين « باتلي بترا » في شرق الهند ، وبين ضفاف البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، حتى تأثر بها النظام الحضاريُّ ، والفنُّ المعماريُّ . إنَّ هذه الديانة قد بسطت نفوذها في رقعةٍ كبيرةٍ في العالم ، وانتشرت في الصين ، واليابان ، ولا تزال موجودةً في الصين ، وقد تسربت في تفكير علماء دياناتٍ أخرى متأخرةً ، وعلماء علم التوحيد والكلام والفلاسفة فيها .

وتليها المسيحية ، وبالتاريخ أؤكد أنها حقَّقت نجاحاً كبيراً في الانتشار والسيطرة ، فقد تخطَّت حدود فلسطين في وقتٍ باكرٍ وغزت أوربا ، ولما تنصَّر قسطنطين ، وتربَّع على عرش القياصرة في أوائل القرن الرابع المسيحي ، وتنصَّر معه الانتهازيون ورواد الجاه والمناصب ، وكانوا مشركين وعباد الأوثان في داخلهم ، أصبحت بتأثيرهم المسيحية مزيجاً من وثنيةٍ وديانةٍ شركيَّةٍ ، وشعائر مسيحيةٍ[١] ، وأصبحت ديانة روما الرَّسمية ، ودانت بها شعوبٌ أوربية ، وبلاد في القارة كانت تحت سيطرة بيزنطة السياسية والحضارية ،

---

(١) راجع للتفصيل (الصراع بين الدين والعلم) لمؤلفه درابر (Drapper) الأمريكي : Conflict Between Religion and Science .

وأصبحت قسطنطينية عاصمتها الدَّولية ، وانتشرت في بلاد الشام (بما فيها سورية ، وفلسطين ، ولبنان ، والأردن الحالية) .

غير أنَّ هاتين الديانتين العالميتين ـ فيما يتعلق بصيانتهما وبقائهما واحتفظاهما بروحهما وأصالتهما ـ قد أخفقتا في ذلك بالقدر الذي نجحتا في الانتشار ، فإنهما لم تلبثا أن وقعتا فريستين للمؤامرات الدَّاخلية والخارجية ، والتحريفات العقائدية ، والانحرافات العملية .

إنَّ تاريخ البوذية يدلُّ على أنَّ الدِّيانة التي جاءت لإصلاح المجتمع والقضاء على التفرقة الطبقية والعرقية ، وثورةً على الوثنية المتطرفة ، لم تلبث أن تورَّطت في نحت الأوثان ، وعبادة الإنسان ، ونكتفي هنا بشهادةٍ واحدةٍ لعالمٍ متخصِّصٍ في تاريخ الديانات الهندية .

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل (C.V.Vaidya) سي . وي . ويديا ، في كتابه : « تاريخ الهند الوسطى » وهو يتحدَّث عن عهد الملك هرش الملك البوذي (٦٠٦ ـ ٦٤٨م) :

« كانت الدِّيانة الهندكية والدِّيانة البوذيَّة وثنيتين سواء بسواء ، بل ربَّما كانت الدِّيانة البوذيَّة قد فاقت الدِّيانة الهندكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الدِّيانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنَّها بالتدريج جعلت « بوذا » الإله الأكبر ، ثم اضافت إليه آلهةً أخرى مثل (Bodhistavas) على مرِّ الزمن ، لا سيما أرسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذية الفكرية التي تسمَّى « مهايانا » بالتأكيد ، وقد بلغت أوجها في الهند ، حتى أصبحت كلمة « بوذا » (Buddha) مرادفة لكلمة « الوثن » أو « الصنم »[١] في بعض اللغات الشرقية[٢] .

---

(١) مثل الفارسية واللغات المنشقة عنها كالأردية ، فهي تعبير عن الوثن أو الصنم بكلمة « بت » وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب ، وكلام الناس في إيران والهند ، والناس في الهند يطلقون على « بوذا » كلمة « بدها » فيقولون : « جوتم بدها » و« بت » متقاربتان نطقاً وكتابةً . (نقلاً عن السيرة النبوية ، للعلامة الندوي) .

(٢) History of Mediaeval Hindia: C.V.Vaidya Vol.1,p.101.

وقد رأيت بأمِّ عيني المدينة التي اكتشفت من خلال الحفريات التي تمَّت في (Taxila) « تكسلا »[1] فرأيت من تماثيل « بوذا » مؤسس البوذية (حوالي ٥٦٦ ـ ٨٦ق.م) الكثرة الكاثرة التي تجعل نفس الإنسان تعافها ، وتقلص منها ، وإني استخدم هذا التعبير عن قصد ، حيث عشت لحظة هذه الحالة من الامتعاض والقص عندما رأيت لبوذا مئات من التماثيل الصغيرة والكبيرة ، والدقيقة ، والعريضة ، والطويلة ، والقصيرة ، والجميلة ، والدَّميمة .

وعلى ذلك فإنَّ الدِّيانة التي جاءت لمحو عبادة الأصنام ، تورَّطت هي عما قريب في ذلك .

وهنا تتجلَّى قدرة الله عزَّ وجلَّ ، حيث إنَّ الحركة التي نهضت لمحو عبادة « بت » (الوثن) صارت فريسةَ عبادة « بدها » في هذه السرعة العجيبة ، حتى صارت عبادة « بت » (الصنم) شعاراً لها، وأنها هي التي وهبت الثروة اللغوية والفكر البشري كلمة جديدة هي كعملةٍ دوليةٍ متداولةٍ في العالم ، وهي كلمة «بت» وكذلك عبادة الشخصية الخاصَّة وتقديسها وتركيز جميع الطاقات الفكرية، والمراقبة على الإنسان الواحد، إنما نشأ اتجاهها من البوذية ليس إلا .

أما المسيحية ، فقد اعترف المؤرِّخون المسيحيون بدورهم ، بأنها وقعت فريسة التحريف بالسرعة التي ينقطع نظيرها في تاريخ الدِّيانات ومسيرتها ، فقد تورَّطت في القرن الأول في المؤامرة التي نسجها بولس الراهب (Saint Paul) في القرن المسيحي الأول ، فنشأت مسيحية جديدة ونظام عقائدي ، واجتماعي ، ونظام عبادةٍ جديد ، لا يتَّصل بسيدنا المسيح ، النبي الصادق الداعي إلى التوحيد الخالص ، إلا بالاسم ، والمسيحية الجديدة هي عطاء « بولس » الراهب ، ولو قرأتم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع حديثاً ، لعرفتم أنه لم تقع ديانةٌ ما فريسةَ المؤامرة التحريفية بالسُّرعة التي وقعت بها المسيحية ، يتحدَّث كاتب مسيحي فاضل عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحي ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي ، فيقول :

---

(١) مدينة أثرية في ضواحي راولبندي وإسلام آباد في باكستان .

« تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره ، منذ ربع القرن الرابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميَّةٍ مسلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي ، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرِّها ، إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي »(١) .

ويتحدث عالمٌ مسيحيٌّ (Ernest de Bunsen) فيقول :

« إنَّ العقيدة والنظام الدِّيني الذي جاء في الإنجيل ، ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إنَّ مردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارق اليهوديُّ والمسيحيُّ ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل ، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة . إنَّ بولس في تقليده لاستفانوس (Stephen) داعي المذهب الإيساني ، قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، إنَّه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً ، ليس المسيح ، بل بولس ، والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان ، هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدِّيني ؛ الذي تلقاه العالم المسيحيُّ كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً »(٢) .

وهنا يتجلى إعجاز القرآن ، وإنِّي أعتقد أنَّ الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم ، تصف أبناء المسيحية ، تكفي سبباً في إيمان دارس منصف بالقرآن وإعجازه ، وبصدق النبيِّ الأميِّ الذي نزل عليه ، وكونه منزلاً من عند الله عزَّ وجلَّ ، ما أروع الحقيقة التاريخية التي نطق بها القرآن الكريم على لسان أميٍّ ولد في الصحراء ، وعاش فيها ، والتي يصدِّقها التاريخ في أدبٍ جمٍّ ،

---

(١) ملخص ما جاء في دائرة « المعارف الكاثوليكية الجديدة » مقال « التثليث المقدس » ج١٤ ، ص٢٩٥ .

(٢) Islam or True Christianity, p.128.

وفي خضوعٍ ، وانقيادٍ ، واستسلام ، ويدهش المؤرخون عندما يفكرون في مدى صدق هذا التعبير .

وبالمناسبة أودُّ أن ألفت انتباهكم إلى أنَّ هناك كثيراً من الألفاظ والكلمات فقدت ـ عندما انتقلت من لغتها الأصلية التي ولدت فيها إلى لغاتٍ أخرى ، كاللغة الفارسية والأردية ـ شيئاً كثيراً من قوتها ، ووقع فرقٌ كبيرٌ في مفهومها الحقيقي ؛ لأنَّ الألفاظ والكلمات لها رحلةٌ تاريخيَّةٌ كرحلة القوافل البشرية ، ورحلة الحضارات ، إنَّها تفقد كثيراً من طراوتها ، وغضارتها عندما تقوم بهذه الرحلة ، وتتفاعل مع أشياء كثيرةٍ جديدةٍ .

وعلى ذلك فإنَّ كثيراً من الكلمات التي استعارتها الأردية من العربية يصعب على الإنسان أن يفهمها في معناها الصحيح ، وقوتها الدافقة . . من بينها كلمة « الضلالة » فقد تفهم منها معاني كثيرة ، منها فساد العقيدة ، وفساد الجهل ، والانحراف ، والحيد عن الطريق ، وما إليها ، وكلُّها ضلال ، ولكن كلمة « الضلالة » أعمق معنى ، وأقوى أثراً ، وأبعد مدى من هذا الضلال الجزئي المحدود ، إنَّ دراسة الإنسان التاريخيَّة ، وقوته الاستنتاجية ، وقدرته على استخلاص النتائج الصحيحة تعود حائرةً ، ومنقادةً عندما تلاحظ أنَّ النبيَّ الذي لم يدرس تاريخ المسيحية قط ، ولم تكن لديه وسائل معلومات عنها ، ولم تثبت عنه زيارة بلدٍ مسيحيٍّ إلا لساعاتٍ معدودات ، كيف أجرى الله عزَّ وجلَّ على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة ، حيث قال لليهود : « المغضوب عليهم » بينما قال بالنسبة للمسيحيين : « الضَّالين »[١] .

إنَّ هذه الكلمات وحدها تكفي دلالة على كون القرآن الكريم منزلًا من الله

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره عن عدي بن حاتم ، قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ قال : هم اليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ . قال : النصارى هم الضالُّون ، وعن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال : اليهود ، قلت : الضالين ؟ قال : النصارى .
قال ابن أبي حاتم ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً (تفسير ابن كثير ص٥٣ ـ ٥٤ج١) .

عزَّ وجلَّ ، وكونه وحياً إلهياً ، حيث كان بالإمكان أن تستخدم للمسيحيين عشرات من الكلمات ، واللغة العربية من سعتها بالمكان الذي كان بالإمكان فيه أن تُستخدم خمسون كلمةً تؤدِّي هذا المعنى ، وكان بالإمكان أن تنطبق جميعاً على المسيحيِّين .

غير أنَّ الله أراد فرقاً واضحاً مكشوفاً بينهم وبين اليهود ؛ إذ أطلق على اليهود : « المغضوب عليهم » ومن قرأ تاريخهم شهد في ضوء التاريخ ، وفي ضوء اعترافاتهم ، هم ، ونظراً للأثر السلبي التخريبي الذي تركوه على الأخلاقيات ، والاتجاهات ، والممارسات البشرية ، والمجتمع البشري ، ونظراً لما عاملهم به الله عزَّ وجلَّ ، والعصيان والبغي اللَّذين تميَّزوا بهما عبر التاريخ ، وحرموا من أجله نصر الله وعونه ، بأنَّه لا تنطبق عليهم كلمةٌ انطباقَ ﴿ المغضوب عليهم ﴾ .

والذي يقرأ كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) أو يقرأ على الأقل كتاب (اليهودي العالمي) (The International Jew) للمليونير العالمي هنري فورد (Henry Ford) الذي جاءت فيه مقتطفات من الكتاب الأول ، يقشعر جلده بالاطلاع على المخططات العالمية الرهيبة لتدمير الإنسانية ، وإفساد الأخلاق ، وتشويه المجتمع ، والأجيال الصاعدة في كلِّ عصرٍ ، ومصرٍ ، منها (بالاختيار والاختصار) :

١ ـ محاربة رجال الدين في جميع الديانات ، وتحطيم رسالتهم ، ومكانتهم[١] .

٢ ـ خلق أدبٍ قذرٍ ، لا منطق فيه[٢] .

٣ ـ إطلاق الحروب الكونية[٣] .

---

(١) اليهودي العالمي ، تعريب خيري حماد ، ص٦٤ .
(٢) المصدر السابق ص٩٥ .
(٣) أيضاً ص١٠٧ .

٤ ـ اللعب بالحكّام كلعب الشطرنج[١] .

٥ ـ إفساد الشباب عن طريق التعليم ، والأدب ، والروايات ، والمسرحيات[٢] .

ويكفي اعترافٌ وشهادةٌ واحدةٌ بهذه المؤامرة العالمية ، وهو ما جاء في البروتوكول الأول ، يقول حكماء صهيون :

« وقد أصبح انتصارنا أسهل بفضل الحقيقة الواقعة ، وهي أننا في علائقنا مع الرجال الذين نرغب في إقامة علاقات معهم ، كما نعزف دائماً على أكثر الأوتار حساسيةً في العقل البشري ، كالحسابات النقدية ، والعواطف الغرامية ، والافتقار إلى الاستقرار في حاجات الإنسان المادِّية ، وكلُّ مظهر ضعفٍ من هذه المظاهر يعتبر كافياً لشلِّ الحوافز ؛ إذ يسلم إرادة الناس إلى ميول الذي تمكن من ابتياع نشاطاتهم »[٣] .

أما منْ درس تاريخ المسيحيين ؛ فإنَّه يشهد بأنَّه لا تنطبق عليهم كلمةٌ مثل انطباق « الضَّالين » عليهم ، فقد كان شأنهم شأن سالك للطريق ، يترك الطريق المستقيم المؤدي إلى غايته ، ويأخذ طريقاً معاكساً يسلك به إلى الوراء ، ولا يزال يواصل السير عليه فيزداد بعداً على بعد عن غايته المتوخاة ، وكما يقول الشاعر العربي :

شتان بين مشرقٍ ومغرب !

والسبب في ذلك : أنَّ الله قدر لهذه الأديان الانتشار والامتداد ، وكان ذلك مؤسساً على حكمته ، فقد اهتدى بها ملايين من البشر قبل نزول هذا الدِّين الأخير ، وقبل أن يبعث النبيُّ الخاتم سيدنا محمد ﷺ . غير أنَّها لم تنزل لتبقى إلى يوم القيامة فلم يضمن الله لها الحفظ والصيانة ، ولم يرد بذلك نصٌّ

(١) أيضاً ص١٢٩ .
(٢) أيضاً ص١٨٣ .
(٣) اليهودي العالمي ص٢٥١ .

في القرآن الكريم ، وإنما جاء فيه في شأنها : ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وهنالك فرقٌ واضحٌ بين ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وبين ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٤] حيث إنَّ الله تكفَّل الحفظ بالنسبة للإسلام ، ولم يضمن بالنسبة لهذه الأديان ، وإنما ألقى هذه المسؤولية على أبنائها .

والسبب الأساسي في ذلك هو عدم وجود عقيدة ختم النبوة فيها ، وبما أنه كان من المقدَّر أن يأتي النبيُّ الخاتم ، والنبوة الخاتمة ؛ فلم يجعل الله حصاراً لهذه النبوءات الزمنية والمحلية ، ومنعاً لإمكان المتنبئين ، فظلَّ المتنبئون يظهرون في فتراتٍ قصيرةٍ ، ومحلاَّتٍ قريبةٍ ، وظلَّت دعوتهم تفعل فعلها في الناس ، وتثير قلقاً ، وبلبلةً نفسيَّةً ، ودينيَّةً .

والدارس لتاريخ اليهودية والمسيحية يعلم أنَّ كثرة المتنبئين كانت فتنةً كبرى ، ومأساةً كبيرةً لليهودية في دائرة نفوذها ، والمسيحية في دائرة نفوذها .

وقد لفت انتباهي إلى ذلك لأول مرة ، الشاعر الإسلاميُّ الكبير العلامة الدكتور محمد إقبال ، فقد كان ـ فيما أعلم في دراستي ـ أول من أكَّد أنَّ ختم النبوة وسامٌ لهذه الأمة ونعمةٌ كبرى أنعم الله بها عليها ، وكأنه قال : إنَّ الإنسان لا يحتاج إلى أن يرفع رأسه بعدئذ مرَّةً بعد أخرى إلى السماء في انتظار الوحي ، ولينظر إلى الأرض ، وليستخدم طاقاته في إعمار الأرض ، وتحقيق الغرض الذي من أجله جعل خليفة الله في الأرض ، وليصرف قواه في إعداد الوسائل والتسهيلات للإنسان ، وتهيئة ما يسوق إليه السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، وأكَّد العلامة : أنَّ ختم النبوة نعمةٌ عظيمةٌ أنقذت الأمَّة من القلق والصراع النفسي ، والتورُّط في المؤامرات[1] وهذا بالعكس من الديانتين العظيمتين اليهودية والمسيحية ، فقد تعرضتا لهذه المشكلة ـ وبالأصح

(١) راجع للتفصيل كتاب الدكتور محمد إقبال : (Reconstruction of Religious Thought is Islam) وترجمته بالعربية « الفكر الديني في الإسلام » لعباس محمود .

المحنة ـ مدَّةً طويلةً كانت لهما الشغل الشاغل ، والمستنفد لطاقاتهما ، وعناية علمائهما ، وأحبارهما .

يقول ألبرت أيم تائمسن (Albert M. Taymson) عضو المجمع التاريخي اليهودي الأمريكي البريطاني في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » :

« يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعِّمين الذين كان كلٌّ واحدٍ منهم يدعي : أنه « المسيح الموعود » ، وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت إلى عدَّة أجيالٍ ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر والغد الباسم ، لا يزالون يبعثون في اليهود ـ في أحلك عصورهم ـ أمل العودة إلى وطنهم الذي أجلي منه آباؤهم في الزمن الماضي ، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض في أمكنةٍ وأزمنةٍ يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي ، وكانت هذه الحركات غالباً تتَّسم بالسِّمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير ، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرَّد عن المظهر الدِّيني تجرُّداً كاملاً ولكنها كانت في غالب الأحيان تشجع على البدع ، وتوسع بذلك نفوذها ، وتقوي سلطانها ، لذلك كانت جنايتها عظيمةً على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرقٌ متطرفةٌ تنضمُّ أخيراً إلى المسيحية أو الإسلام[١] » .

وبذلك كان الشيء الكثير من قواهم الفكرية ينفد في تصديقه أو تكذيبه ، وظلَّ العالم اليهوديُّ والمسيحيُّ فريسة هذه الفتنة عبر قرون ، ولم يكونوا ليصرفوا همتهم إلى أغراضٍ أخرى في هذا الوضع الذي منوا به .

وهنا تتجلَّى قيمة الحديث الذي نقرؤه ، وما أدركت قيمته إلا عندما أدركت قيمة ختم النبوة واطلعت على الصراع النفسي والفكري الذي عاشه علماء اليهودية والمسيحية زمناً طويلاً ، جاء في الحديث الصحيح : « جاء

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encyclopedia of Religion and Ethic) ج/٨ ، ص/٥٨٨ ـ نقلاً من كتاب « النبي الخاتم » لصاحب هذه المحاضرة .

رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ! إنَّكم تقرؤون آيةً في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأي آيةٍ ؟ قال قوله : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ﴾ [المائدة : ٣] فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ والله ! إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة يوم جمعة »[١] .

فأجابه سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ : « قد عرفنا ذلك اليوم ، والمكان الذي نزلت فيه على النَّبي ﷺ ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة » .

أي : إنَّ ذلك اليوم كان عيداً بدوره ، فلا يحتاج إلى أن نتخذه عيداً ، ونضفي عليه اليوم قيمة ، وهو ذو قيمةٍ كبيرةٍ عندنا من قبل .

وإني بدوري أشيد بفهم ذلك العالم اليهودي ، وقد كان قوله شهادةً تاريخيةً ذات قيمةٍ كبيرة ، وهي موثوقٌ بها ، نظراً للقرائن ، نظراً للرواية والدراية ، إنَّه أكَّد أنَّه لم يتم في اليهودية إعلان بختم النبوة ، ولو كان ذلك العالم اليهودي أمامنا الآن لرأينا أثر الألم والتحسر على وجهه ، ولو أمعن أحد في عمق هذه الألفاظ وقوتها ؛ لأدرك إلى أي حدٍّ مدى ذلك الألم والحسرة اللذين كان يشعر بهما ، مما يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ مثل هذا الإعلان بختم النبوة وحفظ الدين لم يكن في دينه ، وإنَّما خصَّ الله هذه الأمة بهذه النعمة وأكرمها بها .

وقد ضمن الله حفظ الدين عن طريق العلماء الرَّبانيين ، وخلفاء الرسول ﷺ ، وظلَّت المسؤوليتان ـ مسؤولية نشر الدين ومسؤولية حفظه وصيانته ـ متكاتفتين في تاريخ الإسلام ، غير أنَّ نشر الدين لا يحتاج إلى الصفات الدقيقة العميقة السامية التي تحتاج إليها مهمة صيانة الدين ، وحفظه ، ومسؤوليته ، فقد تمَّ نشر الدين عن طريق الملوك والسلاطين ، وفاتحي البلاد ، ومؤسسي الحكومات كذلك ، وقد أسلم في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي

---

(١) رواه البخاري وأصحاب الصحاح والسنن والإمام أحمد .

ـ الذي لا تعتبر خلافته مثالية ـ وبعض من خلفه من الخلفاء الأمويين ، ملايين بل ملايين الملايين من البشر ، لقد غزا الإسلام القلوب على عهد الخلفاء والسَّلاطين بالسرعة التي غزت بها جنودهم الرقعة الأرضية ، وقد وصل عقبة بن نافع فاتحاً إلى طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وألقى بفرسه في المحيط الأطلسي ، وقال : « يا رب لولا هذا البحر ؛ لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك »[١] ، وقد زرت خلال رحلتي للمغرب ، ذلك المكان الذي وقف به عقبة والذي يسمَّى لحد الآن « أسفى » كأنه قال : يا أسفى ! يمنعني هذا البحر من المضي إلى الأمام !!.

على كلٍّ فإنَّ فريضة نشر الإسلام ساهم فيها الملوك ، والسَّلاطين ، والدُّعاة ، والمربُّون بنصيبٍ موفور ، وجزاهم الله خيراً ، ولست ممَّن ينكرون لهم كلَّ فضلٍ في تاريخ الإسلام ، ويعرضون لهم صورةً قاتمةً سوداء مجرَّدةً عن كلِّ ما يستوجب الشكر والاعتراف ، كما يفعل بعض الكتاب والنقاد ، فقد تمَّ نشر الإسلام وتمديد دعوته عن طريق ملوك بني أمية ، والملوك الآخرين على نطاقٍ واسعٍ .

ولكن واجب صيانة الإسلام من التحريف ، والمسلمين عن الانحراف ، والحفاظ على الدين ، والذبِّ عن حوزته ، يحتاج المرء من أجل القيام به من الصفات الدقيقة السامية المثالية ، والقوة الروحية الداخلية ، والثقة بخلود الدين والغيرة عليه ، والقدرة على التمييز الدَّقيق بين الجاهلية والإسلام ، والإشراك والتوحيد ، والسنة والبدعة والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[٢] ومطالعة تاريخ المصلحين المجدِّدين للدِّين في عصورٍ مختلفةٍ[٣] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال منْ يستعمله الله في نشره ، ولذلك فإنَّ هذا الواجب وضع على عاتق العلماء ، ونائبي الرسول ﷺ ، وخُصَّ به العلماء

---

(١) ابن الأثير ، ج/ ٣ ، /ص/ ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) التفصيل في رسالة العلامة الندوي « دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته » فلتراجع ، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء لكهنؤ .

(٣) ليرجع إلى سلسلة « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير ـ دمشق .

الربَّانيون ، المتفقِّهون في الدين ، الغيارى عيله ، المميزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطَّلعون على تاريخ الديانات والصحف ؛ التي تعرَّضت لتحريفات المحرِّفين ، وأغراض المغرضين ، وقد جاء في حديثٍ صحيحٍ : « يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدولُه ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[١] » .

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني ، والدقيقة الدَّلالات إلا على لسان نبيٍّ مرسلٍ صادقٍ مصدوق ، فلو قرأت تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدِّين ، لوجدت جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدِّين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إنَّ للكلمات أعماقاً وآفاقاً هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهومُ الرجال ، وتحدُّ بحدود النماذج والأمثال .

« من الحقائق التاريخية : أنَّ تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام ، والمتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرةً ولا ثلمةً في جهود الإصلاح والتجديد ولا فترةً لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الحقِّ ، ويتحدَّى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدةً في التفكير ، والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي ، وخبت مصابيح الإصلاح ، وخفتت أصوات الحقِّ ، ومات الضمير الإسلاميُّ ، وتبلد الشعور ، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل[٢] » .

وإنَّ الأمَّة الإسلاميَّة ـ رغم التحدِّيات ، والمؤامرات ، والثورات والتطوُّرات التي لم تسبق في تاريخ أمَّةٍ أو ديانةٍ ـ لم تتعرَّض لانحراف جماعيٍّ ، على مدى المجتمعات والبلاد والطبقات ، وإنَّ الدِّين الإسلاميَّ لم يتعرَّض لتحريفٍ جذري في عقائده ، وأركانه ، وفرائضه ، وفي المفاهيم

(١) مشكاة المصابيح ، الفصل الثاني .
(٢) نقلاً من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة الندوي .

الدينية ، فالعقائد هي العقائد ، والأركان هي الأركان ، والشعائر هي الشعائر ، والكتاب هو الكتاب ، والسنَّة هي السنَّة ، وكلُّ ما في الأمر هو غبارٌ يطرأ على جوهر الإسلام الخالص ، وبالأصح على صعيد مجتمعٍ إسلاميٍّ ـ لعوامل قاهرةٍ طارئةٍ ـ وسرعان ما يزول ويتطاير بقوَّة الإسلام الدَّاخلية ، أو جهود عالمٍ مصلحٍ ، ويصدق قوله ﷺ : « لا تجتمع أمَّتي على ضلالة »[1] وقوله ﷺ : « إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »[2] .

وقد كانت القاديانية على رأس الفتن التي ابتليت بها الأمَّة ، وقدر لي أن أعيش في خلال دراستي للتاريخ ، النواحي التي تتعلَّق بالفكر ، والدِّيانات ، والأخلاق ، والعقائد ، والحركات ، فأستطيع أن أقول في ضوء دراستي : إنه لم تكن فتنة في تاريخ الإسلام منذ فجره لحدِّ الآن ، من الخطر ، والأثر ، والدقَّة ، بالمكان الذي احتلته القاديانية .

وأخطر نواحيها أنَّها دعوةٌ إلى ديانة مستقلَّةٍ ، وإلى أمَّةٍ إزاء الأمة الإسلاميَّة ، والعلماء الذين قاموا بالرد على القاديانية في البداية ، لم يطلعوا منها على بعض النواحي الخطرة جداً ، لأنَّ كتابات القادياني والقاديانية لم تكن قد ظهرت آنذاك ظهوراً كاملاً ، والمرء لا يستطيع أن يبدي رأيه في القضية التي لم تنكشف عنها أستار ، ولم تتجلَّ نواحيها كلُّها ، فكثير من علمائنا المناظرين ، والمدافعين عن الإسلام ، والمكافحين للقاديانية ؛ الذين كتبوا في الموضوع ، إنما نظروا إلى القاديانية كفرقةٍ من الفرق الإسلاميَّةِ ، ومن هذه الوجهة حاسبوها ، وأخذوا عليها ، وأبدوا حيالها ملاحظاتهم ، على حين أنَّ الأمر ليس كذلك بالتأكيد ، وإنَّما الحقيقة أنها دعوة إلى دينٍ مستقلٍّ ، وإلى أمَّةٍ متوازيةٍ ، وإلى نظامٍ مستقلٍّ محل النظام الإسلاميِّ ، فقد جاءت بشعائر مقابل الشعائر الإسلاميَّة ، والمقدسات إزاء المقدسات الإسلاميَّة ، والمراكز الروحية

---

(١) ابن أبي عاصم .
(٢) رواه أبو داود ، وغيره .

والدينية ، تجاه المراكز الدينية والروحية الإسلاميَّة ، والقبلة مكان القبلة الإسلاميَّة ، وشخصيات جديرة بالحب والاحترام مكان الشخصيات الإسلاميَّة ، وكتباً مقدسة مكان الكتب الإسلاميَّة ، فجاءت ببديل عن كل شيء في الإسلام . ولا مكان هنا للإفاضة ، والوقت لا يسمح بالتفصيل ، وقد جاء الحديث عن ذلك كله في الكتب التي ألفت في مكافحة القاديانية ، وتحدثت عن ذلك في تفصيلٍ في كتابي : « القادياني والقاديانية » وأقمت لذلك عنواناً مستقلاً[1] .

فلا يغيبنَّ عن بالنا أنَّها محاولةٌ لتشكيل ديانة مقابل الدين الإسلامي ، وأبناؤها أمَّة مقابل الأمَّة الإسلامية ، بل إنها فضلت نبيها على جميع الأنبياء .

وقد أدرك هذه الحقيقة الدكتور محمد إقبال إدراكاً كاملاً[2] ، فإنه أكَّد في إحدى مقالاته الإنجليزية التي أجاب فيها على التساؤل الذي أثاره البندت جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند الأسبق ، عندما قامت حركة ختم النبوة في الباكستان ، وتساءل لماذا هذا الحماس ضد القاديانية على حين أنَّها في اعتقادي محاولة لمثل الإصلاحات التي قام بها كمال أتاتورك ؟ فرد عليه محمد إقبال بقوله : « إنَّ اجتماعية الأمَّة الإسلاميَّة ووحدتها مرتبطتان بعقيدة ختم النبوة »[3] .

---

(١) راجع الباب الرابع من كتاب « القادياني والقاديانية » للعلامة الندوي ، الفصل الأول : « دين إزاء دين وأمة إزاء أمة » .

(٢) وقد كان للدكتور محمد إقبال ، وللشاعر الزعيم ظفر علي خان ، فضل كبير في حماية الجيل المثقف الجديد ، أولهما بشعره البليغ العميق ، والآخر بشعره المتهكم اللاذع ، عن الانسياق إلى الحركة القاديانية والخضوع لها فكرياً وعقائدياً ، وهما يستحقان من الغيارى على هذا الدين ، الدعاء والشكر والاعتراف .
أما كبار العلماء المخلصين الذين ركزوا على الرد على القاديانية ، وكرَّسوا جهودهم على مقاومتها وتفنيدها ، فقائمتهم طويلة مشرقة لا يتسع لها هذا البحث الموجز ، وليرجع إلى كتاب العلامة الندوي « القادياني للقاديانية ، » ص٧ .

(٣) تراجع رسالة الدكتور محمد إقبال : Islam and Ahmadism طبع المجمع الإسلامي العلمي ، لكهنؤ ، الهند .

وقد قال في مقاله الإنجليزيِّ المشار إليه أعلاه : إن الإسلام دينٌ منزَّلٌ من الله ، وهو قائم على شريعته وعقائده ، ولكنَّ الإسلام كمجتمع وملَّة ، قائمٌ على عقيدة ختم النبوة ، إنَّ الإسلام سيظل قائماً ما دامت شريعته إلا أنَّ الأمَّة اجتماعيتها ، وترابطها ، وبقاؤها ، واتصالها برسولها ومعلمها ، إنما ترتبط كلياً بعقيدة ختم النبوة(١) .

والأمر الآخر الذي اكتشفه محمد إقبال ، هو أنَّ هذه الفتنة كانت غرس الحكومة البريطانية ، والسلطة الغربية ، وهي من مخططاتها العميقة الأثر ، البعيدة المدى ، يقول المرزا غلام أحمد بنفسه :

« لقد نشرت خمسين ألف كتابٍ ، ورسالةٍ وإعلاناً في هذه البلاد وفي البلاد الإسلامية ، تفيد أن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنَّة على المسلمين ، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعةً صادقةً ، وقد ألَّفت هذه الكتب في اللغات الأردوية ، والعربية ، والفارسية ، وأذعتُها في أقطار العالم الإسلامي ، حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين مكَّة والمدينة ، وفي الآستانة ، وبلاد الشام ، ومصر ، وأفغانستان ، وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين ، وهذه مأثرة أتباهىٰ بها يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها »(٢) .

وقد سمى غلام أحمد أسرته ونفسه بقلمه « غرس الإنجليز » يقول : « والمأمول من الحكومة : أن تعامل هذه الأسرة التي هي من غرس الإنجليز أنفسهم ومن صنائعهم ، بكلِّ حزمٍ ، واحتياطٍ ، وتحقيقٍ ، ورعايةٍ ، وتوصي رجال حكومتها أن تعاملني وجماعتي بعطفٍ خاصٍّ ، ورعايةٍ فائقةٍ »(٣) .

وأبدى محمد إقبال رأيه فيما يتعلق بالإمامة والنبوة ، (وقد ادَّعاهما غلام

---

(١) المصدر السابق ، و« حرف إقبال » ص/ ١٣٦ .
(٢) ستارة قيصر ، تأليف المرزا غلام أحمد .
(٣) تبليغ رسالة ، المجلد السابع ص١٩ ـ ٢٥ .

أحمد) يقول وهو يتحدث عن الإمامة في أبياته الأردية البليغة : « إنك سألتني عن حقيقة الإمامة ، إنَّ الإمام الحقَّ في عصرك ـ جعلك الله مدركاً للأسرار مثلي ـ من يرغبك عن الحاضر الموجود ، ويريك وجه الحبيب في مرآة الموت ، فيجعل حياتك أشقَّ عليك من ذي قبل ، ويهبك شعوراً بالخسارة ، فيجعل حماسك ثائراً ، ودمك فائراً ، ويشحذ فقرك فيحوله سيفاً صارماً ، والإمامة فتنة للملة البيضاء إذا كان صاحبها يدعو المسلم للعبودية للسَّلاطين » . وقال وهو يتحدث عن النبوة :

« إني لست عارفاً ، ولا مجدِّداً ، ولا محدِّثاً ، ولا فقيهاً ، فلا أعلم ما هي مكانة النبوة ، إلا أنِّي مطَّلعٌ على العالم الإسلامي ، وأعلم ما يضمره الفلك الأزرق ، فرأيت في ليل العصر الحاضر الأحلك ، الحقيقة المستنيرة استنارة البدر ، أنَّ النبوة سمٌّ نافع للمسلمين ، إذا لم تكن تحمل لهم رسالة القوة والشوكة » .

أيها السادة العلماء ، والطلاب ، والشباب الأعزاء ، والضيوف الأجلاء ! أريد أن أؤكد أنَّ مسؤولية الحفاظ على الدين تعود كالسابق على العلماء وعلى خريجي المدارس والمعاهد الإسلامية ، وعلى طلاب العلوم الدينية ، وقد جاء هذا المؤتمر في أوانه ومكانه ، وقد أسلفت أنَّ القيام بواجب الحفاظ على الدِّين يحتاج إلى الفهم العميق للدين ، والتعمُّق في الأسرار والحقائق الدينية ، وتلقي التربية على الأساتذة الراسخين في العلم ، ورجال الفن الأخصائيين ، ودراسة الدين ، واللغة العربية ، والتضلُّع منها مباشرةً ، والدراسة الموسَّعة ، وفوق ذلك إلى الضمير الحي النابض ، والحمية الدِّينيَّة الدفَّاقة ، والغيرة الدينية الفوَّارة ، وقد كان ذلك كله من ميزات سلفكم الصالح من علماء الهند بين علماء عصرهم ، وأستطيع أن أقول في ضوء اطلاعي على العالم الإسلامي : إنَّ هذه المزايا يستأثر بها العلماء الهنود على الأقل منذ القرن الحادي عشر الهجري لحدِّ الآن ، وكان في طليعتهم الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي الذي يندر نظيره في العالم الإسلاميِّ بعد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ، ثم حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي المعروف

بالشيخ ولي الله الدَّهلوي صاحب « حجة الله البالغة » ، وتلقَّى لواء الحفاظ على الدين العلماء المجاهدون الذين خلفوه ، حتى جاء عهد الإمام محمد قائم النانوتوي ـ مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ـ والشيخ السيد محمد علي المونكيري ـ مؤسس ندوة العلماء ـ وخلفهما تلاميذهما ، وأتباعهما ، والمدارس الإسلامية التي أسسوها ، ثم العلماء المتخرِّجون فيها ، والمنسوبون إليها .

ومن واجب هذه المدارس الإسلامية الأوجب الآن ، أن تحتفظ بالدين بكل أجزائه ، حتى لا يقع هناك خللٌ في فهمه ، وفي تعبيره ، وفي تصوُّره ، وحتى لا تهتزَّ جذوره ، إنَّ ذلك هو واجبنا نحن خريجي المدارس العربية الإسلامية وحدها ، فقد يمكن أن يشاركنا غيرنا في المجالات الأخرى ، ولكن مجال صيانة الدين والحفاظ عليه لا يشاركنا فيه أحد ، وإنما المسؤولية في ذلك علينا وحدنا .

وأريد أن أركز على نقطةٍ أخرى هامَّة ، وهي أنك إذا درست القاديانية علمت الأسباب التي مكنتها من الانتشار ـ وقد تحدَّثت عنها في كتابي : « القاديانية » ـ كان من بينها القلق النفسي ، والاضطراب الفكري ، وادِّعاء الروحانية الباطلة ، والهيام بأخبار الإلهام والمبشرات[١] ، وإنَّكم ملزمون في المستقبل أن تعيدوا إلى الجيل الجديد الثقة بالإسلام ، وبقدرته على الانتاج ، وصنع الرجال ، وتخريج الأبطال ، ودوام هداية القرآن الكريم ، وقدرة هذه الأمة على أن تعسل خليتها في كل زمانٍ ومكانٍ ، وأنَّ الشريعة الإسلاميَّة تصلح لكلِّ عصرٍ ومصر ، ولا أقول إنَّها تساير الزمان (لأن هذا التعبير بالنسبة للإسلام غير لائق) بل تقوده ، وتوجِّهه حيثما شاءت ، حتى تعود ثقته بالإسلام ، وبقدرته على قيادته المدنية والحضارية .

وقد ثارت قضايا كثيرة في سبيل الحفاظ على شخصية الأمة الإسلامية الهندية اليوم ، مثل قضية « توحيد قانون الأحوال الشخصية لجميع الطوائف »

(١) راجع الفصل الأول ، للقرن التاسع عشر المسيحي .

وقضية التعليم الديني للنشء الإسلامي ، وقد أصبحت القضيتان قضيتين حاسمتين مصيريتين في حياة الشعب الإسلامي الهندي ، مقررتين مصيره كشعبٍ مسلمٍ محتفظٍ بشخصيته الإسلامية المميزة ، وحامل للرسالة والدعوة المنبثقتين من تعاليم الإسلام وأهدافه ومثله .

وقد نشط في نشر الإسلام والدعوة إليه في شبه القارة الهندية من العصر الأول دعاةٌ مخلصون من الطراز الأول من الدعاة والمربين في تاريخ الدَّعوة الإسلامية ، في طليعتهم وعلى رأسهم الشيخ معين الدين الجشتي الذي أسلم على يده مئاتُ ألوف من البشر[١] ومن جاء بعده كالسيد علي الهجويري ، والشيخ إسماعيل اللاهوري ، والأمير الكبير السيد علي الهمداني الكشميري ، وفريد الدين الأجودهني[٢] وأسلم على يد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش١٢٤٦هـ) وحده أربعون ألفاً من غير المسلمين[٣] .

وقد رويت هذه الأرض بدماء كثيرٍ من الشهداء والمجاهدين في سبيل الله ، وأنهض الله من أرضها كبار المجددين ، والأئمة الأعلام ، والذي نفخوا حياةً جديدةً في العالم الإسلامي كلِّه .

ولكن هناك بلاداً في أرض الله كتركستان ، البلاد التي أنجبت الإمام البخاري ، ولا يزال يرنُّ في أذني صوت شيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني ـ وهو يقرىء الجامع الصحيح للبخاري ـ الصوت الحلو المعسول ، الباعث للإيمان واليقين ، الذي كان يدوي في قاعة دار الحديث هذه في الجامعة ـ دار العلوم ديوبند ـ وهو يقول بعد تلاوة الخطبة المسنونة قبل أن يبدأ تدريس صحيح البخاري كلَّ يوم :

« وبالسند الصحيح المتصل عن أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ

---

(١) راجع « آنين أ كبري » للمؤرخ العلماني الكبير أبو الفضل بن مبارك ، وكتباً أخرى .
(٢) اقرأ للتفصيل كتاب Preaching of Islam لصاحب T.W.Arnold وتعريبه « الدعوة إلى الإسلام » .
(٣) اقرأ « الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف » للعلامة الندوي .

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفي البخاري ، قال : حدثنا » .

قلت : إنَّ هناك بلاداً دون درجة أسبانيا في نكران الإسلام ، وبالقياس إلى غربته فيها ، ومن بينها الصين ، وبلغاريا ، وألبانيا ، وتليها بعض البلاد التي يحرج المرء أن ينادي فيها باسم الله ، أو يعلن انتمائه الكثير إلى الإسلام ، رغم أنَّ المسلمين يشكلون فيها أغلبيةً ، وفي يوليو الماضي ١٩٨٦م ، كنت قد سافرت إلى تركيا مع ابن أختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، حضوراً في مؤتمر « رابطة الأدب الإسلامي » ولما حضرنا قاعة الحفل ، برز أديب تركيٌّ ليخطب ، وبدأ خطبته ببسم الله الرحمن الرحيم ، وقال :

« إني لما استهللت خطبتي منذ أعوام ببسم الله الرحمن الرحيم في بلدي هذا ، تعرَّضت للحرج والصعوبة الشديدة ، وواجهت مصاعب ، غير أنني عدت اليوم أستهلُّ كلمتي بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » دونما خوفٍ أو وجلٍ » .

على كلٍّ فإنَّ قليلاً من الغفلة والتقصير قد يغير اتجاه البلاد ، ويصبغها بصبغةٍ أخرى ، فأرجوكم أن تهتمُّوا بتعليم الجيل الجديد وتربيته تربيةً إسلاميَّةً ، وأودُّ أن تقيموا شبكة المدارس والكتاتيب في كلِّ قريةٍ ومدينةٍ ، ويجب أن تكون هناك كتاتيب صغيرة بجنب المدارس الكبيرة والجامعات ، تعلم النشء القرآن ، وتعرفه بالإسلام ، وتنفخ في قلبه منذ البدء الروح الدِّينية .

وختاماً أحمد الله على هذه الفرصة الطيبة للحديث في هذا الموضوع الهام ، وأشكر الذين أتاحوا لي هذه الفرصة ، وأدعو لكم بالتوفيق والاستقامة ، وعلوِّ الهمَّة .

والحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

* * *

محمد ﷺ

الرسول الأعظم ، وصاحب المنَّة الكبرى على العالم ، ومسؤولية العالم المتمدِّن المنصف الأدبيَّة والخلقية نحوه[1]

إنَّ هذا العالم الذي نعيش فيه ، ونقوم فيه بأداء واجباتنا ومسؤولياتنا المنوطة بنا وفق عقائدنا وأذواقنا ، وصلاحياتنا ووسائلنا وإمكانياتنا بكلِّ حرِّيةٍ وانطلاقٍ ، ونتعايش فيه مع المواطنين ، بل فوق ذلك مع جميع المعاصرين ، معايشةً كريمةً هادئةً مطمئنةً رخيَّةً ، ونسهم بالإضافة إلى ذلك حسب ما أوتينا من مواهب وصلاحيات وعزائم في المجالات التعليمية والدِّراسيَّة ، وفي ميادين التأليف ، والبحث ، والتحقيق ، والتجارب العلمية والكشوف والاختراعات ، ونتمنَّى أن تكون حياتنا وبيئتنا أسلم وآمن ، وأفضل وأرقى ، وأكثر طمأنينةً ورفاهيةً ، وأعلى مستوىً ، وأرفع مكاناً .

لم تكن هذه الكرة الأرضية التي نسكنها ، ونعيش فيها مستعدةً ، ومتهيأة ـ دائماً ـ لحياة متَّزنةٍ هادئةٍ ، وقورةٍ ، ولم يكن يتَّسع صدرها ، ـ دائماً ـ للقيام بإنجازاتٍ علميَّةٍ وفكريةٍ ، ومشاريع بنائيةٍ ، وحياةٍ كريمةٍ نعيشها وفق معتقداتنا ومذاهبنا ، والاحترام المتبادل فيما بيننا ، والتعايش السِّلمي (Co. Existence) بين جميع أفراد البشر .

فقد شهد التاريخ هذا الجيل البشري على هذه الكرة الأرضية مراراً وتكراراً ، مشمِّراً عن ساقه تهيؤاً للانتحار والدَّمار ، والاحتراق بالنار ، ومرَّت

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الرابع والثلاثون ، عام ١٩٨٩ .

عهودٌ وأدوارٌ في تاريخ هذا العالم فقدت السلالة البشرية جدارتها بالبقاء والحياة ، وتحولّت من مكان أفراد يتميزون بالعقل والتفكير ، والضمير الحيِّ البصير إلى مكان حيواناتٍ ، ومواشٍ ، وسباعٍ ضوارٍ ، وأناسٍ في صورة ذئابٍ يفترسون أبناء جنسهم وبني جلدتهم .

واحتضرت الحضارة والمدنية ، والثقافة والفنون ، والأخلاق ، والمثل ، والأنظمة والقوانين ، والأصول والضوابط الإنسانية ، وغشيتها سكرة الموت .

ومعلوم : أنَّ عملية تدوين التاريخ البشري تأخَّرت قروناً وقروناً ، وأنَّ عهد ما قبل التاريخ أطول وأوسع وأبعد مدى من عهد ما بعد التاريخ ، ثم إن قصَّة انحطاط الإنسانية وسقوطها ، وعهود الوحشية والهمجية ، لم تكن فيها من المتعة وأسباب الفخر والاعتزاز ما يدفع المؤلفين ، والكتَّاب ، والمؤرخين ليبذلوا مواهبهم الإنشائية في عرضها وتقديمها .

ولذلك فإننا نجد خلال فتراتٍ وأحقابٍ متباعدةٍ ، شهاداتٍ ووثائق تاريخيةً عن سقوط المجتمع البشري وانهيار الحضارات والمدنيات ، وزوال الحكومات والدول والأنظمة السياسية مبعثرةً منثورةً في صفحات التاريخ العلمي ، وتبدأ سلسلة هذه القصة السَّوداء ، أكثر من ذي قبل من القرن الخامس المسيحي ، أكتفي هنا بذكر بعض الفترات منها :

الظروف السائدة في عهد الحكومتين الساسانية والبيزنطية قبل الرسالة المحمَّدية :

لقد أحسن المؤلف الإنجليزي المعروف هـ .ج ولس (H.G.Wells) تصوير هذا العصر ، فقال وهو يبحث في الظروف السائدة في عهد الحكومتين : الساسانية والبيزنطية في القرن السادس للميلاد :

« كانت العلوم ، والفلسفة ، والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين ، والمتَّجهين إلى الانحطاط ، فقد كان الجيل الأخير من فلاسفة « أثينا » (Athens) عاضَّاً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ بكلِّ احترامٍ وحبٍّ ، ولو بدون فهم لها ، فلما انقرض هذا الجيل لم تبق طبقةٌ ولا

أفرادٌ أحرار وشجعان يتزعمون حرية الفكر ، وحرية التعبير ، ولا الذين يحتفظون على الأقل بتراث فكرٍ حرٍّ ، وبحثٍ نزيهٍ جدِّيٍّ على دأب القدماء والسابقين ، وبجانب ما كان للفوضى السياسية والاجتماعية من دورٍ كبيرٍ في القضاء على مثل هذه الطبقة ، كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنساني ، وتجمُّد القرائح البشرية ، إنَّ هذا العصر كان عصر العصبية ، وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الإيرانية والبيزنطية ، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعاً ما ، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقل البشري »(١) .

وبعدما قصَّ الكتاب قصة زحف الامبراطورية الإيرانية على الامبراطورية البيزنطية ثم انتصار البيزنطيين على الإيرانيين في شيء من التوسع ، عاد إلى وصف التدهور الاجتماعي والخلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي ، فقال :

« كان يسوغ لمتتبِّعٍ ـ غير محنَّكٍ ناضج الفكر ـ للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي ، أن يتنبَّأ بسهولةٍ وبثقةٍ بأن أوربا وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرون قادمة ، فلم تكن في أوربا الغربية أماراتٌ للأمن ، والنظام ، وحكم القانون ، وقد كانت المملكتان البيزنطية والإيرانية مشغولتين في حرب إبادةٍ وتدميرٍ ، بينما كانت الهند في حالة توزُّعٍ وبؤس »(٢) .

ويقول Robert Brifault :

« لقد أطبق على أوربا ليلٌ حالكٌ من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشدَّ هولاً ، وأفظع من همجية العهد القديم ؛ لأنَّها كانت أشبه بجثة حضارةٍ كبيرةٍ قد تعفَّنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضي عليها بالزوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها في

---

(١) H.G.Wells, A short history of the world, (London-1924) pp. 140-412.

(٢) H.G.Wells. A short hisory of the world, (London- 1924)pp.144.

الماضي ، كإيطاليا ، وفرنسا فريسة الدَّمار ، والفوضى ، والخراب »[١] .

ويقول (J.H.Denison) عن سقوط الحضارة التي نمت وترعرعت في أحضان الدِّيانات القديمة :

« لقد أشرف العالم المتحضر في القرنين الخامس والسادس المسيحي على فوهة الفوضى والدَّمار ، وكان يخيل لكلٍّ راءٍ أنَّ الحضارة التي نمت ، وازدهرت ، وأثمرت في ظرف أربعة آلاف سنة ، تكاد تنتهي وتزول ، ويرجع الإنسان مرَّةً ثانيةً إلى تلك الوحشية والبربرية التي تتناحر فيها القبائل ، وتشتعل الحرب بين الفرق والأحزاب ، ويفقد الأمن والسلام بتاتاً ، لقد كانت الأنظمة القبلية القديمة انتهت قوتها وزالت سلطتها ، وكانت التقاليد والطقوس التي تبنتها المسيحية ، وحافظت عليها ، تؤدي إلى التشتت والتمزُّق والهلاك ، بدل التوحد والتماسك والنظام ، كان ذلك العصر محزناً مؤلماً ، فقد كانت الحضارة التي أظلَّت العالم كشجرةٍ باسقةٍ وارفة الظلال ، والتي أثمرت أغصانها العلوم والفنون والآداب ، كادت تلفظ نفسها الأخير ؛ لأنها كانت منخورةً متآكلة »[٢] .

فحين كان الجيل البشريُّ ، والحضارة المدنيَّة في هذه الحالة من الاحتضار والإشراف على الدَّمار ؛ إذا بسيد هذا الكون يسعد جزيرة العرب بكائنٍ إنسانيٍّ عظيمٍ ، ووكل إليه ليس مهمة الحفاظ على الجيل البشري فحسب ، بل مهمة الوصول بالإنسانية إلى أعلى قمَّةٍ متصورةٍ ، وهي مهمةٌ صعبةٌ دقيقةٌ ، لم تتناولها تجارب المؤرخين الواسعة ، ولا أخيلة الشعراء والأدباء الخصبة ، ولولا وجود تأليف وشهادات تاريخية موثوق بها لا يمكن جحودها ، ولولا التواتر في نقلها وروايتها ؛ لما كان لنا إلى اليقين والقطع بها من سبيل .

لقد كانت هذه شخصية محمَّد ﷺ التي ظهرت في القرن السادس

---

(١) Robert Briffault, The making of Humanity, (London- 1919) p. 164.

(٢) J.H.Dension, Emotion as the basis of civilization. (London-1928). p.265.

المسيحي ، وكان أول مآثره ﷺ أنه أغمد ذلك السيف المصلت على رقبة الجيل البشري التي كانت كل لحظة تنذر بفنائه وانقراضه ، ووهبه الرسول ﷺ هدايا غاليةً ، وتحفاً ثمينةً ، أعادت إليه حياةً جديدةً ، وشحنته بهمَّةٍ عالية ، وقوَّةٍ فتيَّةٍ ، وعزَّةٍ كريمةٍ ، ومنحته هدفاً عالياً جديداً لرحلته الشاقَّة الطويلة ، وبدأ بعهده الميمون السعيد دورٌ جديدٌ للإنسانية ، والحضارة ، والمدنية ، والعلوم ، والفنون ، والإخلاص ، والروحانية ، وبناء الإنسان من جديد ، إنَّه قدَّم للمجتمع البشري ثروةً عظيمةً تعتمد عليها الإنسانية لخيرها ، ورشدها ، وبركتها ، وتستفيد منها المدنية لازدهارها ، ورقيِّها .

وهذه الثروة الغالية هي ثروة عاطفة حبِّ الخير ، وكراهية الشرِّ ، العاطفة المقدسة الجليلة ، والعزيمة الصارمة الصادقة لمقاومة قوى الشرك ، وتحطيم مراكزه ، والتضحية بكلِّ غالٍ ، ونفيسٍ لنشر الخير وتقويته ، ورفع مناره . إنَّ هذه العاطفة النبيلة المقدسة ، وهذه الهمَّة العالية ، والطموح الذي لا يعرف الكسل والتواني ، هو أساس كلِّ أنواع رقي الإنسان ، ورفعته ، وكرامته ، ومآثره العظيمة الخالدة ؛ وذلك لأنَّ جميع الوسائل والإمكانيات المادِّية ، والعدَّة والعتاد ، ومؤسسات البحث والدراسة والتحقيق ، تابعةٌ لإرادة الإنسان وعزيمته ، فقد بدلَّ القسوة والبهيمية برحمةٍ ورأفةٍ وإنسانيَّةٍ ، ونشر تعاليمه السامية ، وبذل في سبيلها الجهود العظيمة المتواصلة ، ولم يبال في طريقها بأيِّ تعبٍ وجهدٍ ومشقَّةٍ ، وضحَّى في سبيلها براحته ، وعافيته ، وحياته ، وكرامته .

ونتيجة لهذه الجهود المستمرَّة المضنية وجد من بين الحيوانات العرية عن العواطف البشرية ، والسباع المفترسة الضارية أفرادٌ طيِّبون صالحون ، تعطَّرت الدُّنيا بأنفاسهم الزكية ، واكتست من جمالهم وروائهم الرونق والبهاء ، فاقوا الملائكة في سموِّهم وارتفاعهم ، ونالت الحياة التي أشرفت على الهلاك ، والدَّمار قسطاً جديداً من البقاء والاستمرار ، وانتشر العدل والرَّخاء ، وانتصف الضعفاء من الأقوياء الظالمين ، وأصبحت الذئاب تحرس الغنم ، وتحافظ عليها ، وهبت النسائم العليلة البليلة ، وفاحت روائح الحبِّ والحنان ،

وقامت سوق السعادة واليقين ، وازدانت الدنيا بمشاهد الجنَّة الرائعة الجميلة ، وهبَّت رياح الإيمان ، ونفحات اليقين ، وتحرَّرت النفوس البشرية من أغلال الأهواء والشهوات ، وانجذبت القلوب إلى الخير والمعروف ، كما تنجذب القطع الحديدية إلى المغناطيس .

المنح الغالية التي كان لها دورٌ بارز في قيادة البشرية :

ويحلو لي هنا أن أذكر ـ بشيء من الاختصار والإيجاز ـ تلك المنح الأساسية الغالية التي كان لها دورٌ كبيرٌ بارزٌ في قيادة الجيل البشريِّ ، وإصلاحه ، وإرشاده ، وازدهاره ، والتي ولدت عالماً مشرقاً ، جديداً ، رائعاً ، لا يشبع العالم الشاحب القديم في شيء ، وهي كما يلي :

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة .

٢ ـ مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية .

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان وسموه .

٤ ـ رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها .

٥ ـ محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الأمل والرجاء والثقة . والاعتزاز في نفس الإنسان .

٦ ـ الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتناحرة والمعسكرات المتحاربة .

٧ ـ إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخرة ، وتفخيم شأن العلم ، والحثُّ عليه ، وتوجيهه إلى علمٍ هادفٍ نافعٍ موصلٍ إلى الله .

٨ ـ استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية ، والحثُّ على النظر في الأنفس والآفاق .

٩ ـ حمل الأمة الإسلامية على قبول مسؤولية الوصاية على العالم والحسبة

على الأخلاق والاتجاهات وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسؤولية القيام بالقسط والشهادة لله .

١٠ ـ الوحدة العقائدية الحضارية العالمية .

وهنا يتسنَّى لنا أن نقدم شيئاً من انطباعات المؤلفين ، والمفكرين ، والأدباء ، والمؤرخين الغربيين واعترافاتهم وشهاداتهم ، بدلًا من أن نقول من عند أنفسنا شيئاً . .

إنَّ قوام هذا العالم المتحضِّر ، وبقاءه ، وقيمة الحضارة والتاريخ ، والأخلاق ، والأدب ، والشعر ، والفن ليست إلا بالاعتراف بالحقائق الثابتة ، والتسليم للواقع ، وإظهاره ، والتعبير عنه ، وتقدير الفضل والكمال ، والإشادة بهما ، وشكر المحسنين ، وأصحاب الفضل والعطاء والاعتراف بمنتهم ، وحين يتجرَّد هذا العالم ، وتتجرَّد الآداب والأخلاق ، وكفاءاتنا الأدبية والفنية ، وحرية التعبير التي نملكها عن هذا العنصر الكريم ، وتحرمه بتاتاً ؛ فلا لذَّة في العيش في هذا العالم ، ولا كرامة ، وتتحوَّل الدُّنيا إلى حظيرة الوحوش والأنعام السائمة ، حيث لا يبقى من الدوافع والقوى المحركة إلا شهوة ملء البطون وقضاء المآرب الجنسية ، والأهواء والنزعات الحيوانية ، ولا تبقى أيُّ صلةٍ بين الأستاذ والتلميذ ، والمعطي والآخذ ، والمريض والطبيب ، حتى بين الأبناء والآباء والأمَّهات ، ولا يبقى أيُّ شعورٍ بالفارق بين الناهب والحارس ، والخائن والأمين .

ونقدم هنا مقتطفاً من مقال الأستاذ وليم هـ . داويد سن (William H. Davidson) أحد الباحثين الكتاب في « موسوعة الأخلاق والديانات » حول عاطفة الشكر والاعتراف بالمنَّة المركوزة في فطرة الإنسان ، وهو يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ هذا العنصر في الإنسان عنصرٌ فطريٌّ لا بدَّ أن يبقى في كلِّ عصرٍ .

يقول الباحث :

« إنَّ عاطفة الشكر والتقدير حسب ما يقول توماس براون (Thomas Brown)

هي عاطفة الحبِّ المريحة المنعشة التي نشعر بها إذا حصلنا على فوائد ومنافع من أحد الأفراد ، وإنَّ هذه العاطفة هي نفسها جزء من تلك المنافع التي ينالها المرء .

إنَّ الشكر والاعتراف بالمنَّة إنَّما هو ردُّ فعلٍ إيجابيّ تجاه معاملةٍ كريمةٍ يحمل في نفسه الإخلاص الكامل والبشاشة والفرح ، ويكون ردُّ الفعل هذا عاجلاً وفطريّاً ، ويدلُّ ذلك على أنَّ فطرة الإنسان قد أنشئت وكونت تكويناً خاصّاً ، تحتلُّ فيه خصلة التحاب والانسجام فيما بين الناس كصفةٍ أساسيَّةٍ ، وأنَّ العداوة والبغضاء ـ بجميع علائمها وأسبابها ـ منافيةٌ للفطرة البشرية ، ومفسدةٌ للأخلاق الإنسانية[1] .

وإنَّ أكبر مظهرٍ للتسفُّل الخلقي ، واللؤم الفطري وموت الضمير ، وحمل الخزي والعار ، والحرمان من أيِّ أثرٍ من آثار الشرف الإنساني حتى الرمق الأخير منه ، هو التنكُّر والجحود للقادة الدينيين ، وبناة الإنسانية ، وأصحاب المنَّة والفضل على العالم البشري كلِّه ، والبلادة في القول ، وسلاطة اللسان ، واستخدام الأسلوب الشائن المزري بأهله ، الذي لا يليق بادنى شخصٍ ، وأرذلِ إنسانٍ ، والذي لا يجرح شعور مئات الملايين من البشر من أتباعهم ، ومحبيهم ، والمستميتين دونهم ، والذين يؤثرونهم على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولا يكلم عواطفهم الإيمانية الجياشة فحسب ، بل يقتل الحقائق ، ويذرُّ الرَّماد في العيون ، ويحاول طمس الواقع ، ولا يجوز لأيِّ مجتمعٍ كريمٍ يعرف قيمته ومكانته ، ولا لأيِّ بلدٍ متحضِّرٍ لا يريد أن يعيش في الجهل والنكران للجميل أن يصبر على وجود هؤلاء الأنذال واللؤماء الذين باعوا ضمائرهم ، وتخلَّوا عن إنسانيتهم ، وتنكَّروا للجميل والمعروف ، إنهم رجس يجب أن تتطهَّر الأرض منهم .

بالعكس من هذا الجانب المظلم الأسود ، يمكننا أن نعرض نماذج رائعةً من انطباعات كبار المؤلفين المحققين المنصفين والأدباء الفضلاء الواقعيين ،

---

(١) Encyclopedia of Religions and Ethics, (Edinburg-1913) Vol 6.p.391.

وأفكارهم وآرائهم ، من عدد من البلدان الراقية .

الرسول ﷺ في كتابات المحققين المنصفين :

يقول أديب فرنسا الشهري لامارتين (Lamartine) وهو يعترف بعظمة محمد ﷺ ونجاحه المنقطع النظير في مهمته الجليلة :

« إنَّ إنساناً لم ينهض أبداً ـ متطوعاً أو متطوع ـ لمثل هذا الهدف الأسمى ؛ لأنَّ الهدف كان فوق طاقة البشر ، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام ، التي حالت بين الإنسان وخالقه ، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربه ، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية المعقولة الساطعة في ضباب هذه الوثنية السائدة ، والآلهة الماديّة ، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى ، إنَّه لم يحمل إنسانٌ مثل هذه المسؤولية الضخمة ، والمهمَّة العظيمة الجليلة التي تخرج عن طوق البشر بمثل هذه الوسائل الضئيلة » .

إلى أن قال :

« وأروع من ذلك أنَّه هزَّ تلك الأصنام والآلهة ، والأديان والتصورات ، والعقائد والنفوس الإنسانية هزَّةً عنيفةً ، إنَّه بنى على أساس ذلك الكتاب ـ الذي يعتبر كلَّ كلمةٍ منه مصدر التشريع ـ قوميةً ربانيَّةً ، ألفت بين أفراد جيلٍ ، وسلالةٍ ، ولغةٍ . إنَّ الميزة الخالدة لهذه الأمَّة ، التي كونها لنا محمد ﷺ أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة ، شديدة الحبِّ لله الواحد الذي يتنزه عن المادة وشوائبها ، وهذا هو الحبُّ الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل إهانةٍ توجَّه إلى الذات الإلهية ، وهذا الحبُّ يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمة .

لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريبٍ ، لكن الأصح أنَّه كان معجزة العقل ، لا معجزة فردٍ واحدٍ . إنَّ الإعلان بعقيدة التوحيد في زمنٍ كانت فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها كان معجزةً مستقلةً بذاتها .

وما لبث محمد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ ، حتى أقفرت المعابد

القديمة من عبادها ، فلا داعي فيها ، ولا مجيب ، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الإيمان »[١] .

ويقول جان وليم دريبر John William Drapper وهو بصدد تاريخ أوربا الفكري والعلمي .

« لقد ولد في مكة إحدى مدن العرب عام ٥٦٩م بعد أربعة أعوام من موت جستينين Justinian شخصٌ عظيمٌ كان له أكبر تأثير على الجيل البشري كلّه »[٢] .

ويزيد قائلاً :

إنَّه قد اجتمعت في محمَّدٍ ﷺ من الخلال والصفات التي غيَّرت مصاير الشعوب ، والأمم ، والحكومات ، والدول ، إنَّه أكَّدِ على الحقائق الثابتة الدائمة بدلًا من الخوض في بحوث ما وراء الطبيعة ، ونذر نفسه عن طريق العناية ، والأمر بالنظافة ، والطهارة ، والجدِّ ، والصوم ، والصلاة لترقية الحياة الاجتماعية للناس »[٣] .

ويقول المؤرخ الفيلسوف A,Toynbee في كتابه « الحضارة في الامتحان » Civilization on Trial :

« إنَّ القضاء على الفوارق السُّلالية ، والعصبيات الجنسية والدموية من مآثر الإسلام ومفاخره ، أمَّا العصر الحالي الذي نعيش فيه : فإنَّ هذه الفضيلة هي كبرى حاجات هذا العصر ، إنَّه مما لا شكَّ فيه أنَّ الشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية قد حقَّقت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الإنسانيِّ بخيرٍ ورحمةٍ ، ولكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف

---

(١) Lamartine, Histoire De La Turquie, (Paris- 1854) Vol. 2,pp.276-277.

(٢) John William Draper, A history of the intellectual development of Europe, (London- 1875) Vol. 1,p.229.

(٣) John William Draper, A history of the intellectual development of Europe, (London- 1875) Vol.1.p.330.

بها ، أنَّها أخفقت فيما يتَّصل بالعواطف السُّلالية والجنسية »[١] .

وإنَّ من عجيب المصادفات أنَّ توماس كارلايل Thomas Carlyl قبل مئتي سنة اختار محمداً ﷺ من بين الأنبياء جميعاً كبطل أعظم ، والآن في آخر القرن العشرين وضع مايكل هـ . هارت Michael, H.Hart اسم محمد ﷺ برأس القائمة لأسماء أولئك العظماء الذين تركوا آثاراً عظيمةً في تاريخ العالم البشريِّ[٢] .

ونقدِّم فيما يلي تلك المنن العظيمة الجسيمة التي لا ينساها التاريخ لمحمد ﷺ وأتباعه وأمته التي رباها وخرجها في مدرسته على الجيل البشري بأجمعه ، وما قامت به من دور فعَّالٍ كبيرٍ في ترقية الحياة والمدنيَّة ، واستمرارها ، وتسلسلها ، نختصر الحديث في صورة واقعين تاريخيين معروفين .

خطر المغول يهدّد البشرية :

لا يخفى على دارسي التاريخ البشري : أنَّه واجهت البلاد الراقية ، والحضارة ، والمدنية ، والثقافة ، والعلوم ، والأخلاق ، والإنسانية ، والديانتين العظيمتين المؤثرتين ، الإسلام والمسيحية ، وأتباعهما ، وحكوماتهما الواسعة الأطراف ، الراقية المتحضرة الخصبة ، بل ومستقبل الإنسانية بأسرها في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر المسيحي) أمةٌ شديدةٌ مرديةٌ ، كانت قد قضت على الأخضر واليابس ، وذهبت بجهود الماضي كلِّها أدراج الرياح ، ونسخت كلَّ حسنٍ وجمالٍ ، وكلَّ فضلٍ وكمالٍ ، وصيَّرت المستقبل وجميع إمكانياته النيرة شاحبةً ضئيلةً ، لا يوثق بها ، ولا يعتمد عليها ، كانت هي حملة المغول التتار الوحشية المفاجئة بقيادة قائدهم العبقريِّ النادر جنكيز خان (تموجن) على العالم الغربي والشَّمالي المتحضِّر ؛ التي بدأت عام ٦١٦هـ الموافق ١٢١٩م .

---

(١) A.j.Toynbee, Civilization on trial, (New- york- 1948.p.205)

(٢) Hart Michael H, The 100- A ranking of the Most Influencial Persons in history (New york- 1978) p.26.

ويمكن أن يقدَّر هول هذه الهجمة الشرسة ، والدهشة التي أثارتها ، والرعب الذي ألقته في القلوب ، وصلاحيتها للقضاء على التراث الحضاري ، والمدني ، والديني ، والعلمي ، والعقلي ، والفكري ، والبنائي ، والصناعي ، وآثارها ، ونتائجها التي ظهرت على مسرح التاريخ الإنساني من هذه المقتطفات التي اقتبسناها من كتاب جنكيز خان ، لمؤرخه الثقة المؤلف الأستاذ هارولد ليمب (Harold Lamb) ، يقول المؤلف :

« إنَّه محا في طريقه كلَّ مدينة من الوجود ، غيرَّ مجرى الأنهار ، وملأ الصحارى باللاجئين المذعورين المشرفين على الموت ، وإنَّه لم يكن يبقي بعد مروره بالمناطق التي كانت آهلةً بالسكَّان في يوم ما من الأيام أيَّ حيٍّ من الأحياء ، إلا الكلاب والذئاب ، والحدأ ، والنسور(١) » .

وقد كان العالم المسيحي بعد موت جنكيز خان(٢) في دهشةٍ وحيرةٍ ، وفزعٍ تجاه جيل المغول التالي ، على حين كان الفرسان المغول المفترسون يعيشون في أوربا ، ويدوسونها بأقدامهم ، وقد فرَّ منهم بول سلاس ملك بولندا ، وبيلا ملك النمسا منهزمين من ساحة القتال ، وقد قتل(٣) ديوك هينري من سائي ليسيا مع فرسانه في ليك نتز(٤) (Liegnitz) .

كانت هذه حرباً ضروساً ، تجاوزت كلَّ الحدود ، وبلغت إلى حدِّ الحرب العالمية الثانية ، لقد كانت هي مقتلةٌ عامَّةٌ لنوع البشر ، لم يكن هدفها إلا إبادة الناس ، والقضاء عليهم(٥) .

لم يكن في وسع الإنسان أن يسدَّ سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع

---

(١) Harold Lamb, Genqhis Khan, (London- 1928) p.12.

(٢) عام ٦٢٤هـ .

(٣) Harold Lamb, Genqhis Khan, (London- 1928) p.12.

(٤) ليك نتز Liegnitz تقع في مديرية (Wroclaw) في بولندا قرب حدود ألمانيا الشرقية واسمها الجديد لكنيكا (Legnica) .

(٥) Harold Lamb, Genqhis Khan, (London- 1928) p.166.

أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف في وجههم أيُّ شيءٍ من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أيَّ خطرٍ ، ولا مانعٍ ، ولا هناك قلعةٌ تردُّ هجومهم ، ولا كانت تؤثر فيهم استغاثةٌ من مظلوم(١) .

إنَّ أعداءه من المؤرخين ذكروا فتوحه وانتصاره أكثر من غيرهم ، لقد كانت غارته على الحضارة والمدنية بلغت من الهول والتدمير والإبادة ، أن عادت نصف الكرة الأرضية كأن لم تغن بالأمس ، وبدأت الحياة من جديد ، لقد دُمِّرت حكومات بريسترجان ، وختا ، وقراختائي ، وخوارزم ، ثم بعد موته حكومة بغداد ، ودول روسية ، وبولندا ، وكلَّما فتح هذا الوحش الضاري ـ الذي لم يلق هزيمة في حياته ـ شعباً من الشعوب ، انتهت جميع الحروب والمعارك الدَّاخلية ، وتغيَّر مسار الأوضاع والظروف ، سواء كان صالحاً أو غير صالح ، ويبقى الأمن مدَّةً طويلة بين أناس يبقون أحياء بعد انتصار المغول(٢) .

وقد تصدَّى المؤلفون لتاريخ العهد المتوسط الصادر من كمبردج بذكر صدام المغول الشديد الذي كان سببه جنكيز خان ، بما يلي :

« إنَّ ظهور هذه القوَّة الجديدة في تاريخ العالم ، أعني قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع البشري ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهي إلى حفيده قوبيلائي خان الذي بدت في عهده آثار الفرقة والانشقاق في مملكة المغول المتحدة المتماسكة ، والحقيقة أنَّ التاريخ لم يشهد إلى الآن قوَّةً تشبه قوة هؤلاء المغول(٣) » .

ولم يكن العالم الإسلاميُّ وحده فريسة هذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدِّن كلُّه كان متوجلاً من هذه الغارة ، وقد تفشَّى الذعر والخوف في

---

(١) Harold Lamb, Genqhis Khan, (London- 1928) p.210.

(٢) Harold Lamb, Genqhis Khan, (London- 1928) p.206.

(٣) Harold Lamb, Genqhis Khan, (London- 1928) p.210.

الأمكنة التي لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول جبون في كتابه الشهير « تاريخ انحطاط وسقوط روما » .

« حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا تسلّط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادةً متبعةً لديهم[١] » .

وقد ابتدأ التتار ببخارى ، وأتوا عليها من كل جانب ، فدمَّروها حتى عادت كومةً من تراب ، ثم توجهوا إلى سمرقند ، وأحرقوها ، وأبادوا أهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الإسلامي ، وقد كان من المتوقع أن يتوجه التتار بعد تدويخ القوة الإسلامية الموحدة الأخيرة في هذه المنطقة مملكة خوارزم شاه ، والقضاء عليها ، وتحويل المدن الإسلامية المركزية المعمورة الكبرى إلى خراب يباب ، نحو الغرب المسيحي ـ وقد كانت حالة أوربا الخلقية ، والفوضى السياسية ، وانحراف المجتمع ، وفساده ، وانحطاطه فيها ـ وقد تعرَّضنا لذكرها في ضوء أقوال الباحثين والمؤلفين الغربيين المنصفين ـ يدعو إلى هذه الحملة ، ويمهد لها السبيل ـ ثم يلقى الغرب المسيحي كذلك نفس المصير المشؤوم الذي لقيه الشرق الإسلامي .

وقد كنا ذكرنا قول هـ . ج . ويلز (H. G. Wells)

« كان يسوغ لمتتبع ـ غير محنكٍ ناضج الفكر ـ للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي أن يتنبأ بسهولةٍ وبثقةٍ ، بأن أوربا وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرون قادمة[٢] » .

ويقول هارولد ليمب (Harold Lamb) :

« إنَّ حملة جنكيز خان وغارته الشعواء المدمِّرة ألحقت بالمدنية خسائر فادحةً عظيمةً ، فقد قضت على الحضارة ، والثقافة في نصف الكرة الأرضية ،

---

(١) Edward Gibbon, The Decline and Fall of Roman Empire, Vol 111. (New York) n.d.p.634.

(٢) A short history of the world op. Cit. p.144.

ثم عادتا بعد موتهما إلى الحياة من جديد . . وقد محيت سلطنة خوارزم شاه ، وخلافة بغداد ، ومملكة روسيا ، ودولة بولندا لمدة لا بأس بها من الوجود »[١] .

« وإنَّ جيوش ألمانيا ، وبولندا لم تتحمل صدمة الهجمة الطاغية التي قام بها المغول الذين أبادوها ، ودمَّروها تدميراً »[٢] .

الإسلام أنقذ البشرية كلها من المغول :

ولكن فاجأ العالم حادثٌ ـ لا يقلُّ عن معجزة ـ غيَّر مجرى التاريخ ، وأعطى العالم المتمدِّن المعمور فرصةً ليس لأن يتنفس بطمأنينة وراحةٍ فحسب ، بل ليخدم من جديد المدنية والحضارة والعلم والفكر ، وينال القوة والاستقرار والرقي والازدهار ، وهو أن هذا الشعب الفاتح الذي لم تلحقه هزيمةٌ ، والذي استعصى على الشعوب والأمم ، اعتنق ديانة الشعب المغزو المفتوح ، المضطهد المظلوم ، الذي فقد قوَّته السياسية والمادية ، والذي كان ينظر إليه نظرة احتقار وازدراء ، يقول البروفيسور آرنلد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » Preaching of Islam وهو يبدي حيرته واستغرابه من هذا الحادث :

« ولكنَّ الإسلام نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، واستطاع بوساطة الدعاة المسلمين ، أن يجذب أولئك الفاتحين الذين قد أنفدوا جهدهم في اضطهاد المسلمين . ويحملهم على اعتناقه »[٣] .

إنَّ هذا الحدث مثار دهشةٍ وعجب ، ولكن استغرابنا يشتدُّ حينما لا نجد تفاصيله وافيةً في بطون التاريخ ، إنَّنا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المأثرة ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، ومع أنَّ هذه المأثرة لا تقلُّ أهميَّةً عن أي مأثرةٍ إسلاميَّةٍ في التاريخ ،

---

(١) Harold Lamb, Genqhis Khan, op. Cit. p.206.

(٢) Harold Lamb, Genqhis Khan, op. Cit. p.231.

(٣) T.W.Arnold, the Preaching of Islam, (London-1935) p.227.

ولهم فضل لا ينكر ، لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلِّها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنَّهم أنقذوا العالم من دمارٍ محتوم ، وهمجيةٍ مجنونةٍ ، وحالة رعبٍ ، ودهشةٍ ، وهلعٍ ، إلى جوٍّ الإيمان واليقين ، والأمن والسَّلام ، والاجتماع والنظام ، وحبِّ العلم وتشجيعه ، وتنمية وتقدير أهل الفضل والكمال ، وبدأ العلم ، والفكر ، والتأليف ، والبحث ، والتدريس ، والتحقيق ، والأدب ، والفن رحلته من جديد ، في جوٍّ معتدلٍ متَّزنٍ ، وفي ظل المقدرين لجهود أصحاب الفضل والنبوغ ، والمعترفين لدورهم ومنتهم ، والمشجعين لهم على أعمالهم العلمية والفكرية .

لقد توزعت دولة جنكيز خان بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا في ظرف مئة سنة في دين الله(١) .

الإسلام يغيّر طبيعة التتار :

إنَّ قصص هؤلاء الدعاة المسلمين ، والمشايخ الصالحين ، والأمراء المخلصين ؛ الذين أثَّرت أخلاقهم الكريمة العالية ، وسيرتهم المخلصة النزيهة ، وربانيَّتُهم الصادقة ، وإشرافهم ، وجاذبيَّتهم في هؤلاء الهمج المغول المقاتلين الظامئين للدماء ، فتحوَّلوا إلى اعتناق الدين الإسلامي ، لقصص حيَّةٌ مثيرةٌ ، لا تزال تشعل مجامر القلوب ، وتهزُّ النفوس ، وتجذب القلوب(٢) .

إنَّ التتار لم يدخلوا الإسلام رسمياً كشعب يعتنق هذا الدين بأسره فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء ، والفقهاء ، والمجاهدين ، والدعاة ، والربانيِّين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدَّوا دورهم الثمين في حماية

---

(١) يرجع للتفصيل في هذا الموضوع إلى فصل « انتشار الإسلام في التتار » في كتاب العلامة الندوي « رجال الفكر والدعوة » ج/ ١ ، ص/٣٠٦ ـ ٣٢١ .

(٢) انظر لنماذج منها كتاب البروفيسور آرنلد « الدعوة إلى الإسلام » ، وكتاب العلامة الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » الجزء الأول ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقةٍ ، ولحظاتٍ عصيبةٍ من التاريخ .

إنَّ حادث دخول التتار في الإسلام الذي غيَّر طبيعتهم ، وذوقهم ، وميولهم ، ونظرتهم إلى المدنية والإنسانية ليس منَّةً على الشرق الإسلامي فحسب ، بل هي منةٌ عظيمةٌ على الغرب المسيحي ، وشبه القارة الهندية أيضاً ؛ التي حملوا عليها في نفس القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر المسيحي) تسع او عشر مرات ، ولكن الملوك الأتراك المسلمين وعلى رأسهم السلطان علاء الدين الخلجي (م٧١٦هـ ـ الموافق ١٣١٦م) وقائد جيوشه الغازي غياث الدين تغلق شاه (م٧٢٥هـ ـ الموافق ١٣٢٤م) ردُّوا هجماتهم على وجوههم ، وهزموهم ، وهكذا استطاعوا أن يحموا هذه البلاد القديمة المخصبة ، وتراثها العلميَّ والحضاريَّ وديانتيها الكبيرتين الإسلام والهندوسية ـ بفروعها الكثيرة ـ من غارة التتار الوحشية .

دور علماء الإسلام في الكشوف العلمية الحديثة :

لقد كانت هذه المأثرة العظيمة منةً للإسلام على عالم البشرية بصفةٍ عامَّةٍ ، وعلى الغرب المسيحي بصفةٍ خاصَّةٍ ـ الذي كان قد قدر له في مستقبل الأيام أن يلعب دوراً هاماً في الكشوف العلمية ، والمخترعات المادية ، والبحث عن الوسائل والآلات التي تيسر سبل الحياة ، وطرق تبادل العلم ، والثقافات ، ويهيىء للعالم مرافق الحياة ، كانت هذه المنة على الغرب منة الحماية ، والصيانة له من الدَّمار المتوقَّع ، والغزو الشرس الذي لا يعرف الرحمة .

هذا ، وبجانبٍ آخر كانت للإسلام مأثرةٌ عظيمةٌ خالدةٌ ، ومنَّةٌ أخرى جسيمةٌ على الغرب عن طريق تعريفه للغرب بمصادر العلم والمعرفة الجديدة ، ومنابع الثقافة الأصيلة ، بل إمتاعه بها ، وفتح الأبواب أمامه للاستفادة منها ، فقد كانت هذه العلوم والثقافات الإسلامية هي التي أضاءت للغرب الطريق في غياهب قرونه المظلمة (Dark Ages) ووهبته نوراً جديداً مهَّد له السبيل لنهضته العملاقة الحديثة (Renaissance) التي لم تغيِّر عالم الغرب رأساً على عقب فحسب ، بل أفادت العالم كلَّه بحقائق ومعلوماتٍ جديدةٍ ، وبدأ بها عهدٌ جديدٌ

للعلوم التجريبية (Science) التي أحدثت في هذه الدنيا انقلاباً مدهشاً ، وثورةً كبيرةً . وإنَّ أكبر منحةٍ وهديَّةٍ قدَّمتها الأندلس الإسلاميَّة (Muslim Spain) التي انتقلت عن طريقها إلى الغرب العلوم والآداب ، والفلسفة ، والحكمة ، والطب ، والرياضيات ، هي الواقعية ، والمنطق الاستقرائي (Inductive Logic) الذي حلَّ محلَّ القياس والاستنباط (Deductive Logic) والذي غيَّر مجرى الفكر في الغرب ، والذي لم يسبب رقي التكنولوجيا الحديثة والعلوم الجديدة وازدهارها فحسب ، بل إنَّهما مدينتان له في وجودهما وظهورهما . إنَّ جميع بحوث الغرب ، وتحقيقاته المفيدة النافعة ، والتجارب العلمية الحديثة ، والانتصارات المحدودة والجزئية في تسخير هذا الكون ، وإزالة العوائق والعراقيل والمشاكل المتنوعة في رحلة الحياة العسيرة ، لم تكن إلا نتيجة هذا المنطق الاستقرائيِّ ؛ الذي كان يجهله الغرب تماماً قبل الاتصال بالمسلمين ، وقد تعرف بها الغرب عن طريق الأندلس الإسلامية كما صرَّح بذلك المحققون المنصفون من المؤرخين .

يقول المؤرخ الفرنساوي الفاضل غوستاف ليبون Gustave Le Bon :

« ينسب الناس إلى بيكون (Francis Bacon) قاعدة التجربة والملاحظة والمنطق الاستقرائي (Inductive Logic) وهما الأصل في أساس البحث العلمي الحديث ، ولكن من الواجب أن يعترف اليوم بأن هذه الطريقة كلَّها هي من معطيات العرب[1] .

ويقول روبرت بريفالت في كتابه (The Making of Humanity) ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا ، إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضلٌ كبيرٌ ، وآثارٌ حاسمةٌ لها تأثيرٌ كبيرٌ[2] .

ويقول :

---

(١) تمدن عرب « لغوستاف ليبون » نقله إلى الأوردية الأستاذ السيد علي البلكرامي ص٤٠٠ ، طبع أترابرديش أردو أكادمي ، لكهنؤ (الهند) ١٩٨٥م .

(٢) Robert Briffault, the making of humanity, (London) 1919, â 202.

« لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيراتٍ كثيرةً ومتنوعةً منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا »[١] .

ويمكن أن يقدِّر الدارسون لتاريخ أوربة الدِّيني والكنائس المسيحية ، ما كان من تأثير عقلي وفكري ملموس على دعاة الإصلاح ضدَّ الأنظمة البابوية ، فإننا نرى انعكاساً للتعاليم الإسلامية في حركة الإصلاح القوية التي قام بها لوثر (Luther) في القرن السادس عشر المسيحي ، فكما تنعكس في المرآة الأشعة الواقعة عليها من بعيد ، كذلك نجد هذه التأثيرات الإسلامية تتجلَّى في تلك الحركات التي قامت في أوربا المسيحية ضدَّ الاحتكار البابوي ، والاضطهاد الكنسي ، كما أشار إلى ذلك المسيحي الفاضل (J.Bass Mullinger)[٢] .

إنَّ من متطلبات هاتين المنَّتين العظيمتين : الخلقية ، والإنسانية ، أن يُعترف بعظمة مصدرهما الحقيقي ، وصاحب الفضل فيهما ، وكلما أردنا أن نعبر عن شعورنا وعواطفنا تجاهه بأي عنوان ، أو إذا حاولنا دراسته العلمية والتاريخية ، يجب أن نلتزم بالمثل الخلقية العليا التي لم تزل محترمةً منذ آلاف السنين بين مختلف شعوب العالم وحضارته ، وفلسفاته ولا نغفل أبداً في ذلك عن الجدِّ ، والرزانة ، والاعتدال ، والإنصاف ، والواقعية ، إنَّ هذا مما أوصت به جميع الصحف المقدسة ، والتعاليم الخلقية ، وسير الأعلام من المؤرخين والنقاد ، وهذا ما يعتمد عليه تبادل الاحترام بين الشعوب والدِّيانات ، بل تبادل العلم والمعرفة ، والذي تتحوَّل بدونه جميع الجهود العلمية والأدبية وأعمال النقد والتحليل الرزينة الوقورة ، من عملٍ جادٍّ علميٍّ بنّاءٍ ، إلى فحشٍ وهزلٍ ، وسبٍّ وشتائم : التي تؤدي إلى نتائج سلبيةٍ فوضويَّةٍ ، تبعث على المقت ، والبغضاء ، والحقد ، العظائم التي يستعيذ

---

(١) Robert Briffault, the making of humanity, (London) 1919, â 190.

(٢) انظر المقال حول مارتن لوثر في الموسوعة البريطانية .

منها العلم والأدب آلاف المرات ، والتي يخشى أن تؤثر على علاقات الأمم والشعوب ، والبلدان والدول .

وأخيراً إنها فكرةٌ سطحيَّةٌ سوقيَّةٌ أن يُعتقد بأنَّ فرض بعض القيود على حرية الرأي يعني استلاب حرية الفرد ، والقهرُ ، والاستبدادُ Coercion ليس معناه إلا تعطيل دستور أي بلدٍ حرٍّ وقانونه ، أو جعله بحيث لا يمكن إقراره وتنفيذه .

إنَّه لا يجوز إطلاقاً بأن يسمح بحرية الرأي التي تتعدَّى جميع الحدود والقيود الخلقية ، وتستعمل في حق قادة البشرية ، وبناة القيم الإنسانية ، وأئمة الدِّيانات العظيمة ومؤسسيها أسلوباً مسفاً ، وكلمات سوقية Obscene ، قد يسمح بها ـ إلى حدٍّ ما ـ للأدب الفكاهي ، وأدب التنكيت ، والروايات ، ولكن لا يسمح به لبيان الحقائق والمسلمات التاريخية ، ولا يجوز استخدامه بحيث يجرح قلوب مئات الملايين من أتباع الأنبياء والرسل ، ومؤسسي الدِّيانات ، ويؤثر على العلاقات بين مختلف العناصر البشرية التي تتكوَّن منها البلاد والمجتمعات ، إنَّها عملية إجرامية لن يسمح بها في أيِّ بلدٍ متحضِّرٍ آمنٍ يأخذ بمبدأ التعايش السلمي Co-Existence ويؤمن به .

وإنَّ عدداً غير قليلٍ من كبار المفكرين الغربيين والمثقفين الفضلاء منهم لم يعترفوا بحرِّية الرأي المطلقة العامَّة ، وأشاروا إلى نتائج هذه الحرية المطلقة الجامحة الخطيرة ؛ التي هي أشدُّ ضرراً وأكبرُ خطراً من سلب حرية الرأي بتاتاً ، أكتفي هنا بذكر تصريحين ، فإننا لو استقصينا هذه التصريحات والشهادات لجاءت في مجلدٍ كبير .

يقول أحد رجال القانون المعروفين (William Ebenstein)

« إنَّ الاحتجاج ضدَّ الرقابة الخلقية ، أو القوانين المتعلقة بالأخلاق الشخصية بناءً على أنها قيود لا تطلق على حرية الفرد الشخصية ، يعني أنَّنا تصوَّرنا واعتقدنا سلفاً بأنَّ الحرِّيات التي تفرض هذه القوانين الحظر عليها ، هي من الحاجات الأساسية لمجتمعٍ فاضلٍ ، أو لأي مجتمعٍ بشريٍّ ، وأنَّه بالعكس من ذلك يعني الدفاع عن هذه القوانين وحمايتها ، إنَّها حاجات غير

لازمةٍ ، أو أن قضاء هذه الحاجات لا يمكن إلا بالتضحية بتلك المثل التي هي أعلى وأفضل من الحرية الشخصية، والتي تكفل بقضاء حاجات البشرية العميقة الدقيقة ، إنها القيم العليا التي هي ليست داخليةً بل تحمل أهمِّيَّةً موضوعيةً .

أمَّا إنَّه ما هي حدود حرية الفرد ، أو بعض الأفراد ؛ فهي قضيةٌ تعتمد على مقارنةٍ دقيقةٍ بين الإطار الذي يريدونه لحريتهم ، وبين مقتضيات القيم والمثل العليا ، كالمساواة ، والعدل ، والسلام ، والحفاظ على حقوق الناس ، ولذلك فإنَّه لا يمكن أن تبقى هذه الحرية مطلقةً من القيود »[١] .

وقال بليك استون Black Stone في خطابه الذي يعتبر أساساً لقانون حرية الرأي بالولايات المتحدة .

« إنَّ كلَّ فردٍ حرٌّ له الحقُّ الشرعي في أن يبدي عواطفه أمام الجمهور ، وإن فرض الحظر عليه قضاءٌ على حرية الصحافة ، ولكنه إذا أراد أن ينشر شيئاً غير لائقٍ ، يثير فتنةً ، أو يخالف القانون ؛ فإنه يتحمل وزر مسؤوليته ، وإنَّ الكتابات الخطيرة الإجرامية التي تعتبر بعد مرافعةٍ محايدةٍ منصفةٍ ، ذات ضررٍ وخسارةٍ ، يلزم المعاقبة والتعزير عليها للحفاظ على الأمن والسَّلام ، والسُّلطة والدِّيانة ، لأنها هي الأساس التي تقوم عليها الحرية المدنية ، فضمير الفرد حرٌّ ، مكفولةٌ له الحرِّيَّة ، ولكن التعزير على استخدامها السيىء من أهداف القوانين الجنائية »[٢] .

وأحبُّ ـ أن أختم هذا البحث بقصيدة للدكتور محمد إقبال ، لا تشنف الآذان فحسب ، بل تنعش الأرواح والقلوب ، وتعطيها مذاقاً لذيذاً ، وتساعد على استحضار تلك الهدايا ، والمنن ، والفتوح ، والانتصارات التي حملتها رسالة محمد ﷺ للعالم ، ولا نجد نظيرها في تاريخ الإصلاح والديانات ، وحياة النوابغ والأبطال :

---

(١) Isaih Berlin in Modern Political thought (eb) William Edenstein New Delhi 1974-87-58.

(٢) مقتبس من القانون الدستوري للهند .Constitutianal Law of India H.m.Seervai

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبيِّ الأميِّ حلَّةً أنيقةً ، وأنبتت زهرةً يانعة ، إنَّ عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبيِّ ، بل ترعرعت ، ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم زهو العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفَّاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنمٍ ، وأورق له كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنَّه روح معركة بدر وحنين ، وإنَّه مربي الصدِّيق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيضٌ من فيضه .

جعل سيف صلاح الدين البتار ،و نظرة بايزيد النافذة ، مفتاح كنوز الدُّنيا والآخرة .

جرعةٌ من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ .

واجتمع بها العلم ، والحكمة ، والدِّين ، والشرع ، والإدارة ، والحكم مع قلوبٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور .

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتَّاج ، الذي نال خراج الملائكة ، وإعجاب القديسين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرةٌ من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجلِّيات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ ، لم يطَّلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السَّالكون .

فلا ريب أنَّه يستحقُّ ثناء الجميع ، وشكرهم ، وحمدهم ؛ لأنَّه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب .

والله الهادي إلى الصَّواب .

* * *

في ظلال البعثة المحمَّديَّة[١]

إنَّ من أكرم الأخلاق التي قررتها الشرائع السماوية والتعاليم الخلقية هو شكر النِّعمة ، وعرفان الجميل ، كما أنَّ من أخسِّ الأخلاق التي اتفقت عليها الشرائع السَّماوية ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، هو كفران النِّعمة ، ونكران الجميل ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] ويقول فيما يتصل بنكران الجميل والكنود : ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

لقد انعقد مؤتمر السيرة النبوية الأول في باكستان وكان ذلك رمزاً لعرفان الجميل ولشكر النعمة ، لأنَّ البعثة المحمَّدية هي التي أخرجت الشعب المولود في شبه القارة الهندية ـ وأنا فرد من أفراده ـ أخرجت هذه البعثة المحمَّدية هذا الشعب الذي قدر الله أن يولد ؛ ويوجد في شبه القارة الهندية من الظلمات إلى النور ، ومن الخرافات والأوهام والأباطيل ، ومن الوثنية الشنيعة ، واسمحوا لي أن أصرِّح وأنا أشهد على شعبي ، فلي كلُّ حقٍّ ، وأن أحمد الله تعالى على ذلك . . إنَّ البعثة المحمدية أنقذتنا نحن المسلمين في شبه القارة الهندية من عبادة البقر ، ومن تقديس الروث ، ومن عبادة الأحجار ، والأشجار ، والأنهار ، فكانت منَّة هذه البعثة المحمدية عظيمةً ، وجسيمةً على هذا الشعب ، فكان عليه ـ قياماً بواجب الشكر ، وتظاهراً بسلامة فطرته ، والشعور بواجبه ـ أن يعقد هذا المؤتمر في بلد من بلاد القارة الهندية .

---

(١) هذا البحث الذي ألقاه العلاَّمة الندوي في مؤتمر السيرة والسنة النبوية العالمي الثالث المنعقد في قطر عام ١٤٠٥هـ نُشر في مجلة البعث الإسلامي.

وعقد المؤتمر الثاني في تركيا ، فكان رمزاً لهذا العرفان بالجميل والشكر للنعمة ، فإنَّ البعثة المحمدية هي التي أنقذت الشعب التركي من عبادة الذئب الأبيض ، وأخرجت هذا الشعب الباسل الموهوب ، الكريم الأصيل ، من نطاقٍ ضيِّقٍ ، من بركةٍ صغيرةٍ كان يعيش فيها كالسَّمك بعيداً عن العالم ، بعيداً عن مصير الإنسانية ، بعيداً عن مجاري الأمور ، بعيداً عن السياسة ، بعيداً عن الفلسفة والتفكير السامي ، بعيداً عن التألم للإنسانية ، إلى هذه الواحة الواسعة ، إلى هذه المنطقة المشرفة إلى هذا المرصد الرفيع للقيادة والسِّيادة والرِّيادة ، يوم ساد هذا الشعب بإذن الله تبارك وتعالى في القرن العاشر الهجري العالم الإسلاميَّ كلَّه تقريباً ، وكان له شرف خدمة الحرمين الشريفين ، كما روي عن السلطان العثماني سليم الأول أنَّه لما ذكر إمامُ جامعٍ من جوامع دمشق وهو يخطب في الجمعة ، فقال عن السلطان : ملك الحرمين الشريفين ، فرفع السجادة ، وحسر الأرض ، وسجد ، وقال : لا ، بل خادم الحرمين الشريفين .

فكان حقاً على الشعب التُّركي المسلم المؤمن الذي لم تستطع قوَّةٌ أن تحول بينه وبين إيمانه برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبالتعاليم التي جاء بها ، كان له حق أن يعقد هذا المؤتمر في البلد الإسلامي الحبيب العريق في الإسلام .

وقد جاء هذا المؤتمر الثالث في خير أوانٍ ، وفي خير مكانٍ ، جاء في أوانه وفي مكانه ، أما الأوان ؛ فهو استهلال القرن الخامس عشر الهجري ، وأما المكان فهو جزيرة العرب .

إنَّ هذه الجزيرة يجب أن تعرف نعمة الإسلام ، وأن لا تكون كنوداً . . اسمحوا لي أن أقول بكلِّ صراحةٍ ألا تكون كنوداً أمام هذه النعمة الجسيمة التي أخرجت جزيرة العرب من عالم الخمول ، ومن عالم التناحر ، ومن الجاهلية الشنعاء الرذيلة الخسيسة : الموغلة في السفالة والجهالة ، أخرجت هذه البعثة المحمدية هذه الجزيرة العربية من لا شيء إلى كل شيءٍ ، أذكر قول هارون الرشيد الخليفة العباسي أمير المؤمنين ، يوم مرت به قطعةٌ من سحابةٍ ، فرفع

رأسه ، ونظر إليها وقال بعد أن عرف أنها لا تمطر في بغداد ، « أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك » إنَّ هارون لو عَمَّرَ عمر نوح ولو عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لما كان له أن يملك بغداد ، ما كان له أن يملك العراق فضلاً عن هذه الإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي لا أرجاء لها ، بل أتحمس وأقول وأتوكل على الله ، لو عاش عبد الله بن عباس ـ على ما أكرمه الله به من علمٍ ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم علمه الكتاب وفقهه في الدين ـ .

وأتقدَّم خطوة أخرى وأقول : لو عاش سيدنا العباس عمُّ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما جاءت البعثة المحمدية ـ لا سمح الله بذلك ـ لما كان له أن يملك مكة ، ما كان له أن يرفع رأسه في مكَّة فضلاً عن هذا العالم الفسيح ، العالم الإسلامي ، فكلُّ ما جاء في هذه الجزيرة هو من فضل البعثة المحمدية ، وأنني استحضر الآن بيتاً لشاعرنا شاعر الإسلام الذي أصبح ترجماناً للفتوة الإسلامية ، وللشهامة الإسلامية ، الدكتور محمد إقبال ، اسمحوا لي أن أنشد أولًا بلغته التي قال فيها هذا الشعر ، فإن هناك عدداً من إخواننا الباكستانيين .

از دم سيراب آن آمي لقب

لاله رست درريك صحرائي عرب

يقول : لقد هبَّت نفحة من نفحات محمد ، النبي الأميِّ عليه الصلاة والسلام . وفاضت قطرةٌ من ماء الحياة من فمه الذي لم يكن ينطق إلا بالوحي ، فنشأت جناتٌ وحدائق ، وفاحت روائح عبير من صحراء العرب .

قدِّروا أيها الإخوان ! ارجعوا إلى الماضي السحيق وليس سحيقاً ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، وما يوم حليمة بسر ، وما قضية أربعة عشر قرناً بقضيةٍ كبيرةٍ معقَّدةٍ ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، أين كانت الجزيرة العربية ؟ أين كانت الأمة العربية ؟ أين كانت هذه الإمارات ـ رغم دعائي وتقديري لها ـ أين

كانت المملكة العربية السعودية ؟ حفظها الله وصانها من الفتن[١] . أين كانت باكستان ، وأين كانت إيران ؟ وأين كنا نلتقي نحن في هذا الملتقى الكريم ، ملتقى السيرة النبوية ، ملتقى السنة النبوية ، لا والله لو مرَّت الآلاف من السنين ، ولو حلم الحالمون وتغنَّى الشعراء ، وكتب الأدباء ، وتكهَّن الكهَّان ، لما قدِّر لهذه الأمة العربية ، ولما قدِّر لهذه الجزيرة العربية أن تَرتفع لها رايةٌ وأن تُسمع لها كلمةٌ .

هذا كله جاءنا من فضل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، فلنكن عارفين للجميل ، ولنكن شاكرين لهذا الفضل ، ولنكن معترفين بهذه الحقيقة الناصعة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة التاريخية التي لا تجحد .

نحن كلُّنا نعيش في ظلال البعثة المحمدية ، نحن كلُّنا نأكل من رفد المائدة التي بسطت للإنسانية عامَّةً ، التي بسطها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، والتي لولاها لما كان لأبي الحسن أن يتكلم ، وأن يجلس في هذا المجلس الشريف إلى جوار ولي العهد المعظم[٢] والعلماء الكبار ، والله ما كان لي ، وما كان لأكبر ، ولا أعلم مني أن يتحدَّث بهذه اللغة القرآنية ، هذه اللغة المعجزة ، هذا كلُّه من فضل البعثة المحمدية ، فلا تنسوا هذه الحقيقة الناصعة .

هذه رسالة هذا المؤتمر ، ولنكن معترفين بكلِّ ما جاءنا بإذن الله تبارك وتعالى ، وبكلِّ ما يجيئنا عن طريق محمدٍ عليه الصلاة والسلام ، عن طريق البعثة المحمدية ، عن طريق القرآن الكريم ، والسنة المطهَّرة ، عن طريق الشريعة السمحة ، فلنقرر هذه الحقيقة ، نقررها تطبيقاً وتسليماً ، وتقريراً وتنفيذاً ، ونقول لكم أيها الإخوان ! إنَّ من رسالة هذا المؤتمر الشريف ـ إذا كان لهذا المؤتمر رسالة ـ إزالة التناقض من هذا المجتمع الإسلامي العربي ،

---

(١) كانت هذه الكلمة على أثر حادثة الحرم المشؤومة بأربعة أيام .
(٢) رأس الحفلة سمو ولي العهد المعظم الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني .

اسمحوا لي أن أقول وأتكلم بلسان المؤتمر ، أن أتكلم بلسان الوفود الموقرة ، أن أتكلم بلسان الدَّعوة الإسلامية التي لا تهاب أحداً ، وأقول لكم :

إن داءنا اليوم ليس الكفر ، والحمد لله ، ليس الشرك ، والحمد لله ، إنَّ داءنا « النفاق » أزيلوا هذا التناقض الذي جثم على صدر هذا المجتمع ، ومنعه من التحرك ، منعه من أن يحمل رسالة الإسلام إلى العالم ، منعه من أن يمثل الإسلام تمثيلاً حقيقياً ، يجذب إليه العدد الكبير الذي يعيش الآن ، ويتسكَّع في الجهالات والخرافات .

إخواني !

إنني استشهدت بكملة قالها هارون الرشيد ، ووالله ! إنَّ الإسلام ، إذا لم يستطع ـ وأعاذه الله من ذلك ـ أن يملك شبراً من الأرض ، فإن العقيدة الصحيحة الحنيفية التي جاء بها الإسلام ، العقيدة النقية التي ما عرف البشر أنقى منها ، ولا أسلم منها ، ولا أوضح منها ، عقيدة التوحيد ، وعقيدة الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وعقيدة الإيمان بالآخرة ، الإيمان بالمثل العليا والقيم الشريفة ، هي الثروة التي يعتزُّ بها المسلم ، لو لم يملك الإسلام شبراً من الأرض ، فإنه يمتلك هذا الكنز المرصود ، عنده هذه الثروة التي لا تنتهي ، صلة العبد بربه أن يعتز بهذه العقيدة ، فالعقيدة هي أول مواهب الإسلام ، والإسلام هو الذي نعتزُّ به ، وننتصر .

فلنبدأ هذا القرن بالإخلاص لله تبارك وتعالى والصدق ، إنَّه لا ينجينا إلا الصدق . . فلا ملجأ ، ولا منجى من الله إلا إليه . . قلت هذا لملوك العرب ، قلت هذا لرؤساء الجمهوريات ، كتبت ، وخطبت ، وقلت ، وسأكتب ، وسأخطب ، وسأقول : إنَّه لا ينجي في هذه الساعة الرهيبة التي تقشعر منها الجلود ، لا ينقذنا من هذه الورطة التي تورطنا فيها إلا الصدق مع الله تبارك وتعالى . . لا المؤتمرات ، مع تقديري لها ، ولا المحاضرات ، ولا النوادي ، ولا الصحف ، ولا الدعايات ولا التمويلات ، ولا شيء . . إنما ينجي الصدق مع الله تبارك وتعالى ، فلنكن صادقين مع الله ، قبل أن نكون صادقين مع أحد ، ولنكن صادقين مع نفوسنا وضمائرنا ، إنَّ علينا رقيباً في

داخل أنفسنا ، والله تبارك وتعالى ينزل الصبر من فوق سبع سماوات ، وترون كيف ينزل النصر ، وكيف ينقشع هذا السحاب المتراكم ، وكيف يتبدَّد هذا الظلام الدامس ، وكيف يطلع النور في بداية القرن الخامس عشر الهجري .

والله سبحانه وتعالى ينصركم ، ويؤيدكم بروحٍ منه ، ويقيكم الفتن ما ظهر منها وما بطن ، والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين .

والسلام عليكم ، ورحمة الله ، وبركاته . .

* * *

تصوير المدينة عند الهجرة(١)

اختلافٌ بين المجتمع المكّي والمجتمع المدنيّ :

ولكي نأخذ صورةً إجماليةً صحيحةً عن مدينة يثرب ـ التي اختارها الله دار هجرةٍ للرسول ، ومنطلق الدَّعوة الإسلامية في العالم ، ومهد أول مجتمعٍ إسلاميٍّ يقوم بعد ظهور الإسلام ـ يجب أن نعرف وضعها المدنيّ ، والاجتماعيَّ ، والاقتصاديَّ ، وصلة القبائل المقيمة فيها ، بعضها ببعض ، ومركز اليهود فيها ، الاجتماعيَّ ، والاقتصاديَّ ، والحربيَّ ، والواقع الذي كانت تعيشه هذه المدينة الخصبة الغنية ، التي التقت فيها دياناتٌ ، وثقافاتٌ ، ومجتمعاتٌ مختلفةٌ ، بخلاف مكة ذات الطبيعة الواحدة ، والطابع الموحد ، والدِّين المشترك ، وإلى القارىء بعض الأضواء .

اليهود :

المرجح في ضوء التاريخ أنَّ غالبية اليهود حلوا بالجزيرة العربية بصفةٍ عامة ، ومدينة يثرب بصفةٍ خاصَّةٍ ، في القرن الأول الميلادي ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

« بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود في أصقاع العالم ، قصدت جموعٌ كثيرةٌ من اليهود بلاد العرب كما حدَّثنا عن ذلك المؤرخ اليهوديُّ « يوسى فوس » الذي شهد تلك الحروب ، وكان قائداً لبعض

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الثالث والعشرون عام ١٩٧٩م .

وحداتها . . . وتؤيد المصادر العربية كلَّ هذا[١] » .

وكانت في المدينة ثلاث قبائل من اليهود ، بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين ، وهي : « قينقاع » و « النضير » و « قريظة » ، ويقدَّر أنَّ رجال قينقاع المحاربين ، بلغ عددهم سبعمئة ، كما كان عدد رجال النضير مثل هذا العدد ، وكان الرجال البالغون من قريظة ما بين سبعمئة وتسعمئة[٢] .

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربةً متوترةً ، وقد يكون بعضهم حرباً على بعض ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

« قد كانت هناك عداوةٌ بين بني قينقاع وبقية اليهود ، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم « بعاث » وقد أثخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ، ومزَّقوهم كلَّ ممزق ، مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم « بعاث » ، حتى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع ، فلم ينهض معهم أحدٌ من اليهود في محاربة الأنصار .

---

(١) « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام » للدكتور إسرائيل ولفنسون (أبو نوئيب) ، ص٩ ، مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٧هـ .

(٢) أستفيد في هذا التقدير مما جاء في سيرة ابن هشام من الأعداد عند الحوادث والحروب ، كجلاء بني النضير ، وقتل الرجال من بني قريظة ، وغير ذلك من القرائن .
و« قينقاع » و« النضير » و« قريظة » ، هي القبائل اليهودية الأم ، ولها توابع يلتحقون بها ، وينسبون إليها كبني هدل ، التابعين لبني قريظة ، كان منهم كبار الصحابة الذين أسلموا من أهل الكتاب . وكبني زنباع وهم فرع من فروع بني قريظة ، وقد جاءت أسماء لجماعات يهودية في العقد الذي تم بين رسول الله ﷺ وبين اليهود ، كيهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني ثعلبة ، وبني جفنة ، وبني الحارث ، وغيرها ، وقد جاء في هذا العقد بعد ذكر هذه الجماعات « إنَّ بطالة يهود كأنفسهم » ، وذلك الذي حمل السمهودي صاحب كتاب « وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى » « على أن يقول : إنَّ يهود كانوا نيفا وعشرين قبيلة » ، (وفاءالوفاء ، ص١١٦) .

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾[١]

[البقرة : ٨٤ ـ ٨٥] .

وكانوا يعيشون في أحياءٍ وقرىً مختلفةٍ خاصَّةٍ بهم ، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلة خاصَّةٍ بهم بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة ، وكانت مساكن بني النضير بالعالية بوادي « بطحان » على بعد ميلين ، أو ثلاثة من المدينة ، وكانت عامرة بالنخيل ، والزروع ، وكانت بنو قريظة يسكنون في منطقة مهزور التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة[٢] .

وكانت لهم حصونٌ ، وآطامٌ ، وقرى يعيشون فيها متكتِّلين مستقلِّين ، لم يتمكنوا من إنشاء حكوماتٍ يحكمها اليهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها ، يؤدون لهم إتاوةً في كلِّ عامٍ مقابل حمايتهم لهم ، ودفاعهم عنهم ، ومنع الأعراب من التعدِّي عليهم ، وقد لجؤوا إلى عقد المحالفات معهم ، وكان لكلِّ زعيمٍ يهوديٍّ حليفٌ من الأعراب ، ومن رؤساء العرب[٣] .

وكانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع ، وكانت لهم مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم ، وأيامهم الماضية ، وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم ، كما كانت أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم ، وكانت تسمى « المدراس » وكان المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية .

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ، ص١٢٩ .

(٢) « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » للدكتور محمد سيد الطنطاوي ص٧٧ .

(٣) ملخص من « تاريخ العرب قبل الإسلام » ج٧ ص٢٣ للدكتور جواد علي .

وكانت لهم تشريعاتهم ، ونظمهم الخاصَّة بهم ، أخذوا بعضها عن كتبهم ، وبعضها وضعه لهم كهَّانهم وأحبارهم من عند أنفسهم وكانت لهم أعيادهم الخاصة بهم ، وأيامٌ خاصَّةٌ يصومون فيها ، كيوم عاشوراء(١) .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات ، وتعاطي الربا ، وكانت لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصةٌ إلى ذلك ، لأنَّ الزراع عادةً يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد(٢) .

وكانت المراهنة لا تقتصر على الرهائن المالية ، بل تخطَّتها إلى مراهنة النساء والولدان ، وقد جاء في قصة قتل كعب بن الأشرف النضري التي رواها الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه : أنه قال له محمد بن مسلمة : قد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين ، فقال : نعم ، أرهنوني . قالوا : أي شيءٍ تريد ؟! قال أرهنوني نساءكم ، قالوا : كيف ترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال : فارهنوني أبناءكم قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأمة(٣) .

ومن طبيعة هذه المراهنات خصوصاً إذا كانت في الأبناء والنساء نشوء الحقد والكراهة بين الراهنين والمرتهنين ، لا سيما وأهل العرب اشتهروا بالغيرة الشديدة على نسائهم وشدَّة الأنفة .

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالي ، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكماً فاحشاً ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم ، فكرههم السواد الأعظم من الناس ؛ بسبب أنانيتهم ، واشتطاطهم في أخذ الربا ، وحصولهم على غنى

---

(١) « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » ، ص٨٠ ـ ٨١ .
(٢) « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » ص٨٠ ـ ٨١ .
(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي . باب « قتل كعب بن الأشرف » ، وقد سرد القصة ابن هشام باختلاف يسير في السيرة النبوية ، ق٢ ، ص٥١ .

وثراء بطرق يأنف العربيُّ عن سلوكها والتعامل بها[١] ، ولما طبعوا عليه من الجشع ، ولسياستهم التوسعية ، يقول (De-Lacy O,Leary) في كتابه : « العرب قبل محمد » :

« ساءت العلاقة بين أولئك البدو (المدنيين[٢]) واليهود المستعمرين في القرن السابع الميلادي ، فإنَّهم كانوا قد وسعوا مناطقهم المزروعة إلى مراعي هؤلاء البدو[٣] » .

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج ـ سكان المدينة العرب ـ خاضعة للمنفعة الشخصية ، والمكاسب المادية ، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدةً لهم ، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج ، وكان يهمُّهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة ، وحديثهم عن النبي المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام[٤] .

أما لغة اليهود في بلاد العرب ، فقد كانت العربية بطبيعة الحال ، ولكنها لم تكن خالصةً ، بل كانت تشوبها الرطانة العبرية ، لأنَّهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ، ودراساتهم[٥] .

أما الجانب الدِّينيُّ والدعويُّ ؛ فيقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

« لا شكَّ أنَّه كان في المقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الدِّيني بين العرب ، حتى تبلغ منزلةً أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على

---

(١) « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » ، ص٧٩ .

(٢) المراد بهم القبائل العربية ، مثل الأوس والخزرج ومن جاورهم من العرب في ضواحي المدينة .

(٣) Arabia Beafore Mohamad London 1927.

(٤) مستفاد من كتاب « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » من ص٧٣ إلى ١٠١ .

(٥) « مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول » للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف ص٢٠٣ .

نشر الدعوة الدينية بطريقةٍ مباشرةٍ ، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأنَّ الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عامٍّ إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها ، وأنَّ نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظورٌ على اليهود[١] » .

ولكن مما لا شكَّ فيه أنَّ عدداً من العرب المنتمين إلى الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل العربية الأصيلة ، دانوا باليهودية عن رغبةٍ منهم ، أو بتأثير المصاهرة والزواج ، أو بحكم النشأة في البيئة اليهودية ، وكان في يهود العرب جميع هذه الأنواع ، وقد ثبت أنَّ التاجر اليهودي الكبير والشاعر المشهور كعب بن الأشرف الذي يعرف بالنضري كان من قبيلة « طيء » تزوج أبوه في بني النضير فنشأ كعب بن الأشرف يهودياً متحمِّساً ، قال ابن هشام : « وكان رجلاً من طيء ، ثم أحد بني نبهان ، وكانت أمه من بني النضير[٢] » ، وكان بعض من لا يعيش له ولد من العرب ينذر ، إذا ولد له ابن وعاش هودوه ، فكان في المدينة عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق . روى الإمام أبو داود السجستاني بسنده عن ابن عباس قال : « كانت المرأة تكون مقلاةً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد ، أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] « قال أبو داود : المقلاة : التي لا يعيش لها ولد »[٣] .

الأوس والخزرج :

تنتمي بطون الأوس والخزرج ـ سكان المدينة العرب ـ إلى القبائل الأزدية اليمنية ، وكانت موجات هذه الهجرة من اليمن إلى يثرب متفرقةً في أوقاتٍ مختلفةٍ ، وكانت لعوامل متعدِّدة ، منها : اضطراب أحوال اليمن وغزو

---

(١) راجع « اليهود في بلاد العرب » لإسرائيل ولفنسون ص٧٢ .
(٢) ابن هشام ق٢ ـ ص٥١ .
(٣) راجع سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في الأسير يكره على الإسلام » ، ج٢ .

الأحباش ، وإهمال أمر الارواء ، بخراب سدِّ مأرب وعلى هذا فالأوس ، والخزرج أحدث عهداً في المدينة من اليهود[١] .

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية ، وهي منطقة العوالي من يثرب ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية ، وهي سافلة المدينة ، وليس وراءهم شيء في الغرب إلى خلاء حرَّة الوبرة[٢] .

وانقسم أمر الخزرج إلى أربعة أبطن ، وهم : مالك ، وعدي ، وماض ، ودينار ، كلها من بني النجار المعروف بـ « تيم اللات » ، وقد سكنت بطون بني النجار في المنطقة الوسطى التي حول مسجد النبي ﷺ .

وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة ، وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم ، واستوطن الخزرج مناطق أقل خصباً ، وقد جاورهم قبيلةٌ يهوديةٌ كبيرةٌ واحدةٌ وهي القينقاع[٣] .

ليس من السهل الحصول الآن على إحصاء دقيق عن عدد رجال الأوس والخزرج ، ولكن الباحث المتتبع للحوادث يستطيع تحديد قوَّتهم الحربية من المعارك التي خاضوها بعد الهجرة ، فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة أربعة آلاف مقاتل[٤] .

وكان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب ، وبيدهم كان توجيه الأمور بها ، ولم يستطع اليهود مقابل ذلك أن يجمعوا كلمتهم ، ويقفوا صفاً واحداً في وجه خصومهم ، فتفرَّقت بطونهم ، ودخل بعضها في محالفاتٍ مع الأوس ، ودخل بعضها في مخالفاتٍ مع الخزرج ، وكانوا في وجه القتال أقسى على بني جنسهم من العرب ، واستحكم عداءٌ بين

---

(١) راجع « مكة والمدينة » ، ص٣١٥ ـ ٣١٦ .
(٢) « مكة والمدينة » ص٣١١ .
(٣) « مكة والمدينة » ، ص٣١٣ .
(٤) الامتناع ، ١/ ٣٦٤ .

بني القينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم ، ويقتصرون على الصناعة[١] .

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروبٌ كثيرةٌ ، أولاها حرب سمير ، وآخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات[٢] ، وعمل اليهود على تشجيع عوامل الفرقة وإذكاء روح التحاسد بين العرب ، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم[٣] ، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بالثعالب .

الوضع الطبيعي :

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمةً إلى عدة دوائر ، تسكنها بطونٌ عربيَّةٌ ويهوديةٌ ، وكلُّ دائرة تابعةٌ لبطن من البطون ، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين : يشتمل القسم الأول على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها ، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام[٤] .

وقد بلغ عدد آطام اليهود في يثرب تسعة وخمسين أطماً[٥] ، ويقول الدكتور ولفنسون في وصف هذه الآطام :

« كانت أهمية الآطام عظيمةً في يثرب ، فكان يفزع إليها أفراد البطن عند هجوم العدو ويأوي إليها النساء والأطفال والعجزة ، حين يذهب الرجال لمقاتلة الأعداء ، وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ، ذلك أنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب ، وكان الأطم مربعاً لكنز الأموال والسلاح ، وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه ، كما كانت تقام على أبوابه الأسواق .

---

(١) « مكة والمدينة » ، ص٣٢٢ .
(٢) « مكة والمدينة » ص٣٢٢ ـ ٣٢٣ .
(٣) راجع القصة التي رواها ابن هشام ق١ ص٥٥٥ .
(٤) مستفاد من كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » للدكتور إسرائيل ولفنسون ص١١٦ .
(٥) « وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى ﷺ » للسمهودي ، ج١ ص١١٦ .

وكانت الآطام تشتمل ـ كما يظن ـ على المعابد وبيوت المدراس ، إذ كانت فاخرة الأثاث ، كثيرة الأدوات ، مملوءة بالأسفار ، فكان يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة ، حين يهمُّون بإبرام العقود والاتفاقات[(١)] » .

ويقول الدكتور في تفسير كلمة « أطم » : « أنها مأخوذة من اللغة العبرية فيقال : أطم عينيه : أغمضهما ، وأطم أذنيه : سدهما ، والأطم في الجدران والحيطان : هي النوافذ المغلقة من الخارج ، والمفتوحة من الداخل ، ويستعمل في السور أي الحائط الضخم » ، يقول الدكتور : « وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم أطم ، لأنَّه كان في إمكانهم أن يغلقوا أبوابه ، وكانت له نوافذ من الخارج وتفتح من الداخل[(٢)] » .

ومن هذه الأحياء والدوائر المحصنة كانت تتكوَّن مدينة يثرب ، فهي في الحقيقة مجموعةٌ من القرى تقاربت وتجمعت ، فتكونت منها المدينة ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ [الحشر : ٧] وبقوله : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ ﴾[(٣)] [الحشر : ١٤] .

وحرة واقم التي تحدُّ المدينة من الشرق ، كانت أكثر عمراناً من الوبرة ، وحين هاجر النبي ﷺ إلى يثرب، كانت حرة واقم مسكونةً من أهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية بنو عبد الأشهل ، وبنو ظفر ، وبنو حارثة ، وبنو معاوية ، وفي منازل بني الأشهل كان يقوم حصنهم واقم، الذي سميت الحرَّة باسمه[(٤)].

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ص١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) نفس المصدر السابق ص١١٧ .
(٣) مكة والمدينة ، ص/ ٢٩٤ .
(٤) « منزل الوحي » للدكتور محمد حسين هيكل ، ص٥٧٧ .

الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية :

كان أهل العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة ، ينظرون إلى قريش كسدنةٍ للبيت ، وقادةٍ في الدِّين ، وقدوةٍ في الاعتقاد والعبادة ، خاضعين للوثنية السائدة على جزيرة العرب ، يعبدون من الأصنام ما تعبدها قريش وأهل الحجاز ، إلا أنَّ علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها ، فكانت مناة لأهل المدينة ، وكانت أقدم الأصنام ، وكان الأوس والخزرج أشدَّ إعظاماً لها من غيرهم ، وكانوا يهلُّون لها شركاً بالله تعالى ، وكانت حذو « قديد » الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل ، كما كانت اللات لأهل الطائف ، والعزَّى لأهل مكة ، وكان أهل هذه المدن أكثر تعصباً وحميةً لها من غيرها ، وكان من اتخذ في داره صنماً من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه « مناة » أيضاً ، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد من سادات بني سلمة قبل أن يسلم[1] ، وقد جاء في حديث رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] قالت : إنَّ الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان منْ أهلَّ لها يتحرَّج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية : فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ . . . الآية [البقرة : ١٥٨] . ولم نطَّلع على صنمٍ لهم خاص في المدينة اشتهر كاللات ومناة ، والعزى ، أو كهيل ، يعكفون على عبادته ، ويشدُّ إليه الرحال من خارج المدينة ، ويبدو أنَّ الأصنام لم تنتشر في المدينة انتشارها في مكة ، فقد كان لكل بيتٍ في مكة صنم خاص ، وكانت الأصنام يطاف بها وتباع ، فكانوا في الوثنية عيالاً على أهل مكَّة وأتباعاً لهم .

---

(١) مستفاد من « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للعلامة السيد محمود شكري الآلوسي ، ج١ ص٣٤٦ ج٢ ص٢٠٨ .

وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما ، فلما قدم النبيُّ ﷺ قال لهم : « قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر والأضحى[١] » ، وقد ذكر بعض شراح الحديث : أنهما النيروز والمهرجان ، وكأنهم أخذوهما من الفرس[٢] .

وكانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج ، وهم بنو قحطان العرب العاربة ، وكانوا يصاهرونهم ، ويتزوَّجون فيهم ، وقد تزوج هاشم بن عبد مناف وهو سيد قريش في بني النجار ، تزوج سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار وهم من الخزرج إلا أنَّهم كانوا يرون لأنفسهم فضلاً عليهم ، وقد قال عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة الذين دعوا إلى المبارزة يوم بدر ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا رهط من الأنصار ، قالوا ما لنا بكم حاجة ، ثم نادى مناديهم ، يا محمد ! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ! وقم يا حمزة ! وقم يا علي ! » فلما قاموا ودنوا منهم ، وسموا أنفسهم ، قالوا : نعم أكفاء كرام[٣] وكانوا ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المدينة بحكم طبيعة أرضهم ولاعتمادهم عليها في معاشهم نظرة فيها شيء من الاحتقار ، وقد تجلَّت هذه النظرة في الكلمة التي قالها أبو جهل وهو عقير ، قد قتله ابنا عفراء ، وهما من الأنصار ، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق « لو غير أكَّارٍ قتلني »[٤] .

---

(١) الحديث في الصحيحين .

(٢) « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » .

(٣) ابن هشام ق١ ص٦٢٥ .

(٤) رواه الشيخان ، قال العلامة محمد طاهر الفتني في « مجمع بحار الأنوار » : أي : الزرع والفلاح ، وهو عند العرب ناقص يعرض بأن ابني عفراء من الزراع فلو غيرهما قتلني لم يكن على نقص ، ج١ ص٦٨ .

الحالة الاقتصادية والحضارية :

كانت مدينة يثرب بطبيعتها منطقةً زراعيةً ، وكان أكثر اعتماد أهلها على الزراعة والبساتين ، وكان من أهم حاصلاتها التمر والعنب ، فكانت فيها جنات النخيل والأعناب[١] ، وجناتٌ معروشاتٌ وغير معروشاتٍ ، وزروعٌ ونخيلٌ صنوان وغير صنوان[٢] ، ومن الزروع الحبوب والبقول ، وكان التمر وخاصة أيام الجدب ، وتخلف الأمطار ، يسدُّ كثيراً من حاجة السكان الغذائية ، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة وكان النخيل مصدر خيراتٍ كثيرةٍ في حياتهم ، فكانوا يستخدمونه في الغذاء والبناء ، والصناعة ، والوقود ، وعلف الدواب[٣] ، ولتمر المدينة أنواع كثيرة وتفاصيل دقيقة تصعب الإحاطة بها[٤] ، ولأهل المدينة تجارب وطرق في تنمية حاصل النخيل وتحسينه استفادوها من طول المراس ، منها تأبير النخل[٥] .

---

(١) اقرأ حديث أبي طلحة في بيرحاء الذي رواه الشيخان : وكانت بساتين ملتفة الأغصان والأوراق حتى يدخل فيها الدبسي ـ وهو طائر صغير ـ فلا يكاد يخرج منها ، جاء في قصة أبي طلحة الأنصاري : أنه كان يصلي في حائط له ، فطار دبسيٌّ ، فطفق يتردَّد يلتمس مخرجاً ، فأعجبه ذلك ، فجعل يتبعه بصره ساعةً ، إلى قصة تصدقه بهذا الحائط بسبب الفتنة التي فتن بها ، أخرجه مالك في موطأه .

(٢) راجع سورة الأنعام وسورة الرعد .

(٣) اقرأ شرح الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (في كتاب العلم ، وترجم له : « باب طرح الإمام المسألة على الناس ليختبر ما عندهم من العلم » في فتح الباري) للحافظ ابن حجر العسقلاني أو « عمدة القارىء » للعيني .

(٤) تدل الثروة اللغوية الكبيرة التي تدور حول النخلة والتمر على ما كانت تشغله هذه الشجرة وثمرتها من مكانٍ في حياة العرب عامة وأهل المدينة خاصة ، وما كان لهما من أهمية ، راجع على سبيل المثال « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و « فقه اللغة » للثعالبي ، و « المخصص » لابن سيدة ، وقد أفرد عدد من العلماء كتباً للنخل .

(٥) التأبير هو أن يشق طلع النخلة لبذر فيه شيءٌ من طلع ذكر النخل ، (شرح مسلم للنووي) .

هذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة ، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة ؛ إذ كان اعتماد أبناء الوادي ـ وهي غير ذي زرع ومياه وفيرة ـ على التجارة ، ورحلة الشتاء والصيف .

وكانت في المدينة بعض الصناعات يمارس أكثرها اليهود ، ولعلهم جلبوها من اليمن ، فلم يزالوا فيه إلى أن غادروه في الزمن الأخير ، حاذقين في الصناعات ، وكان عامة بني قينقاع صاغةً ، وكانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب ، وكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة ، والحلي الكثيرة من الفضة والذهب ، مع أن عددهم كان غير كثيرٍ[١] .

وقد منحت طبيعة يثرب ـ وهي بركانية التربة ـ أراضيها خصباً زائداً ، وهي ذات وديانٍ كثيرةٍ ، تفيض بمياه السيول ، فتروي أرضها ، وتسقي النخل والزروع ، اشتهر منها وادي العقيق[٢] ، الذي كان منتزه المدينة ، وكان يتدفق بالماء ، ويزهو بالبساتين ، وكانت الأرض صالحةً لحفر الآبار ، وقد كثرت في البساتين ، ومنها ما هو مسور ، ويسميه أهل المدينة « الحائط »[٣] واشتهر آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته ، وكانت لهم شراجٌ[٤] ، وكانوا يحولون الماء بالمساحي إلى حدائقهم[٥] .

وكان من الحبوب الرئيسية الشعير ، ثم القمح ، وتكثر الخضروات والبقول ، وكانت لهم طرق في المزارعة ، والمؤاجرة ، والمزابنة ،

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ص١٢٨ .
(٢) اقرأ « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، و « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني .
(٣) اقرأ قصة ابتلاء كعب بن مالك في الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المغازي) ، وقد جاء فيه : « حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي » .
(٤) الشرجة : هي مسيل الماء .
(٥) اقرأ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم ، وجاء فيه : « اسق حديقة فلان » وجاء فيه ذكر الشراج وتحويل الماء بالمسحاة .

والمحاقلة ، والمخابرة ، والمعاومة ، منها ما أقرَّه الإسلام ومنها ما منعه ، أو أصلحه[١] .

وكانت العملة في مكة والمدينة واحدة ، وقد شرحناها ، وكانت المدينة تعتمد على المكاييل وتحتاج إليها أكثر من مكة ، لاعتماد أهلها على الحبوب والثمار[٢] وكانت الأكيال المستعملة في المدينة هي المدُّ ، والصَّاع ، والفرق ، والعرق ، والوسق[٣] أما الأوزان المستعملة فهي : الدرهم ، والمثقال ، والدانق ، والقيراط ، والنواة ، والرطل ، والقنطار ، والأوقية[٤] .

ولم تكن المدينة ـ على خصبها ـ مكتفيةً غذائياً ، فكان أهلها يستوردون بعض المواد الغذائية من الخارج ، وكانوا يجلبون دقيق الحوار ، والسَّمن ، والعسل من الشام ، قد جاء في حديث رواه الترمذيُّ عن قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ « كان الناس إنما طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير ، وكان

---

(١) اقرأ أبواب الحرث والمزارعة في الصحاح ، و « المزابنة » : بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر كيلاً ، و « المحاقلة » بيع الزرع في سنبله ، الشعير بشعير كيلاً ، والقمح بقمح كيلاً ، و « المخابرة » و « المزارعة » متقاربتان ، وهما المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع ، كالثلث ، والربع ، لكن في المزارعة يكون البذر من مالك الأرض ، وفي المخابرة يكون البذر من العامل ، وقال جماعة من أهل اللغة هما بمعنى ، وفي صحة المزارعة والمخابرة خلاف مشهور للسلف والخلف ، (مستفاد من شرح النووي لمسلم) ، و « المعاومة » هو بيع السنين ، ومعناه : أن يبيع ثمر الشجرة عامين ، أو ثلاثة أو أكثر .

(٢) لذلك قال النبي ﷺ : « الميزان ميزان أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » (رواه أبو داود والنسائي من رواية طاووس عن ابن عمر وصححه ابن حبان ، والدارقطني) .

(٣) راجع للتفصيل والتقدير شروح كتب الحديث ، وكتب الخلاف ، انظر لمقاديرها « التراتيب الإدارية » ج١ ص٤١٣ ـ ٤١٥ .

(٤) المرجع السابق .

الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة[١] من الشام من الدرمك[٢] ، ابتاع الرجل منها ، فخصَّ بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير[٣] ، والقصة تلقي ضوءاً على الحالة الغذائية في المدينة ـ التي لم تحدث بعد الهجرة فجأة ـ وعلى المستويات المختلفة في المعيشة .

وكان اليهود ـ كما عرف من طبيعتهم وتاريخهم في كلِّ بلد ـ أكثر غنى من العرب ، وكان العرب بطبيعتهم العربية البدوية ، لا يفكرون في المستقبل كثيراً ، فيوفرون له المال ، وكانوا أهل ضيافةٍ وكرم ، يضطرون إلى الاستدانة من اليهود ، وكثيراً ما تكون هذه الاستدانة بالرِّبا ، والرهن .

وكان لأهل المدينة ثروةٌ من الإبل ، والبقر ، والأغنام ، ويستخدمون الإبل في إرواء الأراضي ، ويسمونها بـ « الإبل النواضح » وكانت لهم مراعي اشتهرت منها « زغابة » و « الغابة » يحتطب منها الناس ، ويرعون فيها ماشيتهم[٤] وكانت لهم خيل يستخدمونها في الحروب ، وإن كانت قليلةً بالنسبة إلى مكة ، وكان بنو سليم مشهورين باقتناء الخيل ، يجلبونها من الخارج .

وكانت في المدينة عدَّة أسواق ، أهمها « سوق بني قينقاع » مركز بيع الحلي والمصوغات الذهبية وكانت سوق البزازين ، وتوجد في المدينة المنسوجات القطنية والحريرية ، والنمارق الملونة ، والستور المرسومة[٥] ،

---

(١) الضافطة : قال الفتني : « الضافطة » و « الضفاط » من يجلب الميرة والمتاع إلى المدن ، وكانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق ، والزيت ، وغيرهما . (مجمع بحار الأنوار ، ج٣ ص٤١٠ ، طبع حيدرآباد الهند) .

(٢) « الدرمك » : الدقيق الحواري ، واحده « الدرمكة » .

(٣) انظر تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾ . . . الآيات [النساء : ١٠٧] في جامع الترمذي .

(٤) راجع « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، و« وفاء الوفاء » للسمهودي .

(٥) اقرأ حديث عائشة الذي رواه الشيخان ، وقد جاء فيه ذكر « القرام » قال الفتني : هو ستر رقيق ، وقيل : صفيق من صوف ذي ألوان ، قيل : ضربته مثل حجلة =

وكان عطارون يبيعون أنواع العطور والمسك ، وكان يوجد من يتَّجر في العنبر والزئبق[١] وكانت أنواع من البيع منها ما أقرَّه الإسلام ، ومنها ما منعه ، من النجش والاحتكار ، وتلقي الركبان خارج المدينة ، وبيع المصرَّاة ، والبيع بالنسيئة ، وبيع الحاضر للبادي ، وبيع المجازفة ، وبيع المزابنة ، والمخاضرة[٢] ، وكان من الأوس والخزرج من يتعامل بالربا ، وإن كان ذلك نادراً بالنسبة إلى اليهود .

وقد توسعت الحياة في المدينة بعض التوسع ، ورقت بحكم طبيعة أهلها ، فكانت البيوت ذات طبقات[٣] ، وكانت لبعض البيوت حدائق ، وكانوا يستعذبون الماء ، وقد يأتون به من بعيد ، وكانت توجد كراسي[٤] ، وكانت تستعمل أقداح من زجاج ، وأقداح من الحجارة ، وسرج منوعة[٥] وكانوا يستخدمون المكاتل والقفف في أعمال المنزل والزراعة ، وكان للأغنياء شيءٌ كثير من الأثاث لبيوتهم خصوصاً اليهود ، وكانت أنواع من الحلي كالأساور والدمالج ، والخلاخيل ، والأقرطة ، والخواتم ، والعقود من الذهب ، أو من جزع ظفار[٦] ، وكانت الغزل والنسيج فاشيين في النساء ، فكانت الخياطة ، والدباغة ، وعمل بناء البيوت ، وضرب الطوب والنحت ، من الصناعات التي عرفت في المدينة قبل الهجرة .

= العروس ، وقيل : كان مزيناً منقشاً ، (مجمع بحار الأنوار ج٤ ص٢٥٨) .

(١) راجع « التراتيب الإدارية » للعلامة عبد الحي الكتاني ـ القسم التاسع .

(٢) انظر أبواب البيع في كتب الحديث والفقه وشرح الكلمات فيها ، وأحكامها من الحلِّ والحُرمة .

(٣) انظر حديث الهجرة ، ونزول رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب رضي الله عنه .

(٤) « التراتيب الإدارية » ج١ ص٩٧ .

(٥) أيضاً ص١٠٤ .

(٦) اقرأ حديث عائشة في قصة الإفك الذي رواه البخاريُّ في كتاب المغازي ، والجزع : خرز فيه سواد وبياض ، و « ظفار » مدينة باليمن .

الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب :

وهكذا لم ينتقل رسول الله ﷺ والمهاجرون من مدينة ـ مكة ـ إلى قرية ـ يثرب ـ بل انتقل من مدينةٍ إلى مدينةٍ ، وإن كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرةٍ للحياة ، وكانت أكثر منها نسبياً ، ولكن الحياة فيها كانت أكثر تعقداً ، والقضايا التي سيواجهها الرسول أكثر تنوعاً ، لوجود دياناتٍ ، وبيئاتٍ ، وثقافاتٍ مختلفة ، لا يتغلب عليها ، ولا يصهر المدينة كلَّها في بوتقة عقيدة واحدة ، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله ، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة ، والقوى المتصارعة ، والأهواء المتعاكسة ، وألقى عليه محبةً منه ، وصدق الله العظيم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣] .

* * *

محمد ﷺ وتعدُّد الزوجات[١]!

وقفةٌ قصيرةٌ عند تعدُّد الزَّوجات :

قضى رسول الله ﷺ شطراً من عمره في العزوبة مدة خمسة وعشرين عاماً ، وهي فترة الشباب التي استوفت أفضل شروطه وصفاته ، وكان مثلاً للفتوة الإنسانية العربية السَّليمة ، والصِّحَّة التي كان فيها نصيبٌ للنشأة في البادية ، والبعد عن أدواء المدنيَّة ، والتحلِّي بأفضل صفات الفروسية والرجولة التي تفاخر بها العرب ، وأشاد بها علماء النفس والأخلاق ، ولم يجد أشدُّ أعدائه له مغمزاً في هذه الفترة الحاسمة الدقيقة في حياته قبل النبوة وبعد النبوة إلى هذا اليوم ، فكان مثلاً للطُّهر ، والعفاف ، والنزاهة ، والبراءة ، والعزوف عن كلِّ ما لا يليق به .

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، وهي أيِّمٌ ، قد بلغت من عمرها أربعين سنة ، وقد تزوجت قبله برجلين ، ولها أولاد ، وبينه وبينها من التفاوت في السن ١٥ سنة على القول المشهور ـ ثم تزوج بعدها ـ وقد جاوز الخمسين ـ سودة بنت زمعة ، وقد توفي زوجها في الحبشة مسلماً ، مهاجراً ، ولم يتزوج ﷺ بكراً إلا عائشة بنت أبي بكر ، وما تزوج زواجاً إلا ولهذا الزواج مصلحةٌ راجحةٌ من مصالح الدَّعوة والإسلام ، أو المروءة ومكارم الأخلاق ، أو جلب منفعةٍ عامَّةٍ ، ودرء خطرٍ اجتماعيٍّ كبير ، فقد كان للأرحام والمصاهرة تأثيرٌ كبيرٌ في حياة العرب القبلية ، والاجتماعية ، وقيمةٌ ليست في أمَّةٍ أخرى ، فكانت لهذه المصاهرة أثرها البعيد في تاريخ الدَّعوة

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها التاسع ، المجلد الأربعون ، عام ١٩٩٥م .

الإسلاميَّة ، والمجتمع الإسلاميِّ المثالي ، وحقن الدماء ، والتوقِّي من معرة القبائل العربية .

ولم تكن حياته معهنَّ حياة ترفٍ ورفاهية ، وتوسُّعٍ في المطاعم والمشارب ، وخفض العيش ـ وتلك غاية تعدُّد الزوجات في نظر كثيرٍ من الناس ـ بل كانت حياة زهدٍ ، وتقشُّفٍ ، وإيثارٍ ، وقناعة ، لا يطيقها أعاظم الرجال ، وكبار الزهاد في القديم والحديث ، وشيء منها يعرفه القارىء فيما يتعلق بالأخلاق والشمائل ، وحسب القارىء المنصف أن يقرأ قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ـ ٢٩] .

وكان من أثر هذه الغاية المتوخاة ، والنفسية السَّامية ، والتربية العميقة المؤثرة ، أن اخترن كلهن ـ رضي الله عنهن وأرضاهن ـ من غير استثناء وتلكؤ اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرة ، ويكفي مثالًا ، ما أجابت به عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ، وقال لها : لا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك ، قالت له : أفي هذا استأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ، ورسوله ، والدَّار الآخرة[1] ، قالت : ثم فعلت أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت[2] .

ولم يشغل رسول الله ﷺ تعدُّد الزوجات ، وما يستلزم ذلك نفسياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً عن النهوض بأعباء الدعوة ، والجهاد ، والتقشُّف ، والحياة المثالية ، والقيام بالأمور الجسام برهةً من الزمان ، بل زاده ذلك نشاطاً ، وقوةً ، وكنَّ أعواناً له على القيام بما أكرمه الله به ، من تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتعليم المسلمين دينهم ، ذكوراً وإناثاً ، وكن يرافقنه في الحروب والغزوات ، فيداوين الجرحى ، ويمرضن المرضى ، ويبشرن

---

(١) رواه البخاري في الجامع الصحيح عن عائشة .
(٢) رواه البخاري ، ورواه ابن أبي حاتم وأحمد .

بالخير ، ويواسين في الشدَّة ، وبهنَّ قام نحو ثلث الدين ـ مما يتعلق بحياته المنزلية ، والعشرة ، وكثير من الأحكام ـ تعلمها المسلمون منهنَّ ، وحفظوه ، ونشروه[(١)] .

وناهيك بأمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقد قال إمام علم الرجال والطبقات الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (م٧٤٨هـ) في كتابه المشهور « تذكرة الحفاظ » .

« كانت أكبر فقهاء الصحَّابة ، كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها ، يروى عن قبيصة بنت ذؤيب . قالت : كانت عائشة أعلم الناس ، يسألها أكابر الصحابة ، وقال أبو موسى ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديثٌ قطُّ . فسألنا عائشة ، إلا وجدنا عندها منه علماً ، وقال حسان : ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضةٍ ، ولا بحلالٍ ، وحرام ، ولا بشعر ، ولا بحديث العرب ، ولا النسب من عائشة ـ رضي الله عنها ـ »[(٢)] .

وأمَّا مكارم الأخلاق ، وعلو الهمَّة ، والجود ، والمواساة ، فعن البحر حدث ولا حرج ، وحسبك ما رواه هشام عن أبيه : أنَّ معاوية بعث إلى عائشة مئة ألف . فوالله ما غاب علينا الشهر حتى فرقتها ، فقالت مولاة لها : لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً ، فقالت : ألا ذكرتني[(٣)] ، وكانت صائمة[(٤)] .

وقد نشأت « مشكلة تعدد الزوجات » في حياة محمد ﷺ وشغلت عقول

---

(١) وقد أحسن الكلام في موضوع تعدُّد الزوجات وما كان فيه من حكم ومصالح وما يحيط به من أحوال وظروف ، مؤلف السيرة الهندي القاضي محمد سليمان المنصور فوري في ج/٢ من كتابه النفيس « رحمة للعالمين » راجع ص/١٤١ ـ ١٤٤ ، والكاتب المصري الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « عبقرية محمد » تحت عنوان « تعدُّد الأزواج » وعنوان « أسباب تعدد زوجاته » .

(٢) تذكرة الحفاظ ج/١ ، ص/٢٧ ـ ٢٨ ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

(٣) نفس المصدر : ص/٢٨ .

(٤) زيادة من رواية أم ذر (المصدر السابق) .

كثير من الباحثين الغربيين وأقلام الكتاب المستشرقين ، وكثر التساؤل عنها ؛ بسبب اخضاعهم الحياة الزوجية في بلاد العرب وفي الشريعة الإسلامية ، وفي العصر الذي ظهر فيه الإسلام للقيم والتصورات والأعراف الغربية ، وتسليط الموازين والمقاييس الغربية « التي ما أنزل الله بها من سلطان ـ وإنما هي وليدة حضارةٍ خاصَّةٍ . ومجتمعٍ خاصٍّ » على ما تقبله الفطرة السليمة والبيئة العربية . وتقتضيه المصالح الخلقية والاجتماعية ، ويأذن به الله ، وتلك نقطة ضعف في التفكير الغربي ، وفي الكتابات الغربية ، يجعلون الغرب هو الميزان ، ثم يطلقون أحكاماً قاسية على كل ما جانبه ، أو اختلف عنه ، فيخلقون مشكلةً ثم يعالجونها ، وما هي إلا نتيجة كبريائهم ، وتقديسهم الزائد للقيم والمثل الغربية ، وقد كان مؤلف السيرة الإنجليزي المستر (R.V.CBodlfey) منصفاً وجريئاً في نقد هذا الشعور الغربيِّ نحو تعدُّد الزوجات في حياة النبي ﷺ يقول في كتابه « محمَّد الرسول » :

« إنَّه لا داعي إلى قياس حياة محمد الزوجية بالمقاييس الغربية ، ولا الحكم عليها من وجهة نظر التقاليد والقوانين التي سنَّتها المسيحية في الغرب ، فلم يكن أولئك الرجال ـ العرب ـ غربيين ولا مسيحيين ، إنَّما نشؤوا في بلادٍ وفي عصرٍ كان يسود عليه نظامهم الخلقي الخاص ، ورغم كل ذلك لا مبرر لتفصيل النظام الخلقي الأمريكي ، أو الأوربي على النظام الخلقي العربي ، إنَّ الغربيين لا يزالون في حاجة إلى بحثٍ دقيقٍ ، وتمحيصٍ كبيرٍ لتفضيل نظامهم الخلقي ، وطريقة حياتهم على غيرها ، فعليهم أن يتجنَّبوا الطعن في دياناتٍ أخرى ، ومدنياتٍ أخرى »(١) .

وليست « شناعة » تعدُّد الزوجات « التي تخيلها الغرب ، وآمن بها أبناؤه في تقليدٍ وحماسٍ ، واعتبروها حقيقةً بديهيةً مسلمة ، وجسَّمها كتَّابه ومشرعوه » . شناعةً دائمةً على مرِّ العصور والأجيال ، قائمةً على أسسٍ علميَّةٍ

---

(١) R.V.C.Bodley: The Messenger - The Life of Mohammad. (London. 1946) pp. 202-203.

ثابتةٍ ، أو الفطرة الإنسانية السليمة ، بل هي شناعةٌ خياليَّةٌ عاطفيَّةٌ ، ناتجةٌ عن دعايةٍ قويَّةٍ متحمِّسة ، تخفُّ ، وقد تزول مع الزمان بتغير الاتجاهات والأوضاع الاقتصادية ، والاجتماعية ، والتربوية[١] .

* * *

(١) وإلى ذلك أشار الكاتب الغربي العصري (Alwin Toffler) في كتابه الحديث (Future Shock) الذي أحدث دوياً في الأوساط العلمية أخيراً ؛ اقرأ (على سبيل المثال) ص/٢٢٧ ـ ٢٣٢ (طبع لندن ١٩٧٥م) .

من غار حراء[1]

طلعتُ جبل النور ، ووقفت على غار حراء ، وقلت لنفسي : هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ ، ونزل عليه الوحي الأوَّل ، فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً ، وحياةً جديدةً ، إنَّ العالم ليستقبل كلَّ يومٍ صباحاً جديداً ، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً لا جدَّة فيه ، ولا طرافة ، ولا خير فيه ، ولا سعادة ، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الإنسان ، ولم تستيقظ فيه الإنسانية ، واستيقظت فيه الأجسام ، ولم تستيقظ فيه القلوب ، والأرواح ، وما أكثر النهار المظلم ، والصبح الكاذب في تاريخ العالم ، ولكن من هنا طلع الصبح الصَّادق الذي أشرق نوره على كلِّ شيء ، واستيقظ فيه الكون ، وتغيَّر مجرى التاريخ .

لقد كانت الحياة كلُّها أقفالاً معقَّدة ، وأبواباً مقفلةً ، كان العقل مقفلاً أعيا فتحه الحكماء ، والفلاسفة ، كان الضمير مقفلاً أعيا فتحه الوعَّاظ ، والمرشدين ، كانت القلوب مقفلةً ، أعيا فتحها الحوادث ، والآيات ، كانت المواهب مقفلةً ، أعيا فتحها التعليم ، والتربية ، والمجتمع ، والبيئة ، كانت المدرسة مقفلةً أعيا فتحها العلماء ، والمعلمين ، كانت المحكمة مقفلةً أعيا فتحها المتظلمين ، والمتحاكمين ، كانت الأسرة مقفلةً أعيا فتحها المصلحين ، والمفكرين ، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحه الشعب المظلوم ، والفلاح المجهود والعامل المنهوك ، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلةً أعيا فتحها جوع الفقراء ، وعري النِّساء ، وعويل الرضعاء ، لقد حاول

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها التاسع ، المجلد السابع ، عام ١٩٦٣م .

المصلحون الكبار ، والمشترعون العظام فتح قفلٍ من هذه الأقفال ، فخابوا ، وأخفقوا ، فإنَّ القفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وقد ضيَّعوا المفتاح من قرونٍ كثيرةٍ ، وجرَّبوا مفاتيح من صناعتهم ، ومعادنهم ، فإذا هي لا توافق الأقفال ، وإذا هي لا تغني عنهم شيئاً ، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم ، وكسروا آلاتهم .

ففي هذا المكان المتواضع ، المنقطع عن العالم المتمدِّن ، على جبلٍ ليس بمخضب ، ولا بشامخٍ ، ثمَّ ما لم يتمَّ في عواصم العالم الكبيرة ، ومدارسه الفخمة ، ومكتباته الضخمة ، هنا منَّ الله على العالم برسالة محمد ﷺ ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقودُ إلى الإنسانية ، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله ، والرسول ، واليوم الآخر ، ففتح به هذه الأقفال المعقَّدة قفلاً قفلاً ، وفتح به هذه الأبواب المقفلة باباً باباً ، وضع هذا المفتاح النبويَّ على العقل الملتوي ، فتفتح ونشط ، واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس ، ويتوصَّل من العالم إلى فاطره ، ومن الكثرة إلى الوحدة ، ويعرف شناعة الشرك ، والوثنية ، والخرافات ، والأوهام ، وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً ، يدافع عن كلِّ قضيةٍ حقّاً وباطلاً .

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم ، فانتبه ، وعلى شعوره الميت ، فانتعش ، وعاش ، وتحوَّلت النفس الأمَّارة بالسوء إلى نفسٍ لوَّامة ، ثم إلى نفسٍ مطمئنةٍ ، لا تسيغ الباطل ، ولا تتحمَّل الإثم ، حتىٰ يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ، ويلحَّ على العقاب الأليم الشديد ، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ، ثم تحضر المدينة ، وتعرض نفسها للعقوبة التي هي أشدُّ من القتل ، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى ويخفيه في لباسه ليستر صلاحه ، وأمانته عن أعين الناس ، ويدفعه إلى الأمير ؛ لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه ، كانت القلوب مقفلةً ، لا تعتبر ، ولا تزدجِر ، ولا ترقُّ ، ولا تلين ، فأصبحت خاشعةً واعيةً تعتبر بالحوادث ، وتنتفع بالآيات ، وترقُّ للمظلوم ، وتحنو على الضعيف .

وَضَع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة ، فاشتعلت

كاللهيب ، وتدفَّقت كالسيل ، واتَّجهت الاتِّجاه الصحيح ، فكان راعي الإبل راعي الأمم ، وخليفةً يحكم العالم ، وأصبح فارس قبيلةٍ ، وبلد قاهر الدول ، ويحكم الشُّعوب العريقة في القوَّة والمجد .

وضع هذا المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلِّمون ، وزهد فيها المتعلمون ، وسقطت قيمة العلم ، وهان المعلِّم ، فذكر من شرف العلم ، وفضل العالم والمتعلِّم ، والمربِّي ، والمعلِّم ، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونَفَاق ، وأصبح كلُّ مسجدٍ من المساجد ، وكلُّ بيت من بيوت المسلمين مدرسةً ، وأصبح كلُّ مسلمٍ متعلماً لنفسه ، معلِّماً لغيره ، ووجد أكبر دافعٍ إلى طلب العلم والدِّين .

وضعه على المحكمة المقفلة ، فأصبح كلُّ عالمٍ قاضياً عادلًا ، وكلُّ حاكمٍ مسلمٍ حكماً مُقْسطاً ، وأصبح المسلمون قوَّامين لله ، شهداء بالقسط ، وُجد الإيمان بالله ، وبيوم الدين ، فكثُر العدل ، وقلَّ الجدل ، وفُقدت شهادة الزور ، والحكم بالجَور .

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطَّفيف بين الوالد وولده ، والأخ وإخوته ، والرجل وزوجته ، وتعدَّى من الأسرة إلى المجتمع ، فظهر بين السَّيد وخادمه ، والرئيس والمرؤوس ، والكبير والصغير ، كلٌّ يريد أن يأخذ ماله ، ولا يدفع ما عليه ، وأصبحوا مطفِّفين ، إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فغرسَ في الأسرة الإيمان ، وحذَّرها من عقاب الله ، وقرأ عليها قول الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] وقسَّم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كلِّه ، فقال : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته »[١] .

وهكذا أوجد أسرةً عادلةً ، متحابَّةً مستقيمةً ، ومجتمعاً عادلًا ، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة ، وخوفاً شديداً من الآخرة ، حتى تورَّع

(١) حديث صحيح .

الأمراء ، وولاة الأمور ، وتقشَّفوا ، وأصبح سيِّد القوم خادمهم ، ووالي الأمَّة كولي اليتيم ، إن استغنىٰ ، استعفَّ ، وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهَّدهم في الدُّنيا ، ورغَّبهم في الآخرة ، وأضاف الأموال إلى الله ، فقرأ : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] وقرأ : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] وحذَّرهم من الاكتناز ، وادِّخار الأموال ، وعدم الإنفاق في سبيل الله ، فقرأ عليهم : ﴿ ... ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ ـ ٣٥] .

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصَّالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدُّنيا ، المستعين بالمادَّة ، المتغلِّب عليها بإيمانه وقوته الرُّوحية ، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له ، وأنَّه خلق للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجراً ؛ فهو التاجر الصَّدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً ؛ فهو الرَّجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملاً ؛ فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً ؛ فهو الغنيُّ السَّخيُّ المواسي ، وإذا كان قاضياً ؛ فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً ؛ فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً ؛ فهو الرئيس المتواضع الرَّحيم ، وإذا كان خادماً أو أجيراً فهو الرَّجل القويُّ الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامَّة فهو الخازن الحفيظ العليم . وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ ، وتأسَّست الحكومة الإسلاميَّة في دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورةً مكبَّرةً لأخلاق الأفراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع صالحاً أميناً ، مؤثراً للآخرة على الدُّنيا ، متغلباً على المادة ، غير محكوم لها ، انتقل إليه صدق التاجر ، وأمانته ، وتعفُّف الفقير ، وكدحه ، واجتهاد العامل ، ونصحه ، وسخاوة الغني ، ومواساته ، وعدل القاضي ، وحكمته ، وإخلاص الوالي ،

وأمانته ، وتواضع الرئيس ، ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة راشدةَ ، مؤثرةً للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع ، وبنفوذ هذه الحكومة وُجدَتْ حياةٌ عامَّةٌ كلُّها إيمانٌ وعملٌ صالحٌ ، وصدقٌ ، وإخلاصٌ ، وجدٌّ ، واجتهادٌ ، وعدلٌ في الأخذ والعطاء ، وإنصافٌ مع النفس والغير .

وقد ذهلت في حديث لنفسي ، وتمثَّلت لي الحياة الإسلامية الأولى بجمالها ، وتفاصيلها ، كأني أشاهدها ، وأتنفس في جوِّها ، وانقطعت الصِّلة بيني وبين العالم المعاصر .

وحانت مني التفاتةٌ إلى هذا العصر الذي نعيش فيه ، فقلت : إني لأرى أقفالًا جديدةً على أبواب الحياة الإنسانية ، وقد قطعت الحياة مراحل طويلةً ، وخطت خطوات واسعةً ، وتعقَّدت الحياة ، والْتوَت ، وتطوَّرت المسائل ، وتنوعَّت ، وتساءلتُ : هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق ؟ وأبيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الأقفال ، وأضع عليها المفتاح ، ولمست هذه الأقفال بالبنان ، فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديدٍ ، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم ، وإذا المشكلة الكبري وأساس الأزمة ؛ هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع ، وأساس الحكومة ، ووجدت أنَّ هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادَّة والقوَّة ، ولا يُعنىٰ إلا بذاته وشهواته ، وأنه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذَّات ، وإرضاء الشهوات ، وقد انقطعت الصِّلة بينه وبين ربِّه ، ورسالة الأنبياء ، وعقيدة الآخرة ، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء المدنيَّة ، فإذا كان تاجراً ؛ فهو التاجر المحتكر النَّهم ؛ الذي يحجب السلع أيام رُخصها ، ويبرزها عند غلائها ، وبسبب المجاعات والأزمات ، وإذا كان فقيراً ؛ فهو الفقير الثائر ؛ الذي يريد أن يتغلَّب على جهود الآخرين بغير تعبٍ ، وإذا كان عاملاً ؛ فهو العامل المطفف ؛ الذي يريد أن يأخذ ماله ، ولا يدفع ما عليه ، وإذا كان غنيّاً ؛ فهو الغنيُّ الشَّحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ، ولا عطف ، وإذا كان والياً ؛ فهو الوالي الغاشُّ ، الناهب للأموال ، وإذا كان سيِّداً ؛ فهو الرَّجل

المستبدُّ ، المستأثر ؛ الذي لا يرى إلا فائدته ، وراحته ، وإذا كان خادماً ؛ فهو الضعيف الخائن ، وإذا كان خازناً ؛ فهو السَّارق المختلس للأموال ، وإذا كـان وزيـر دولـة ، أو رئيـس وزارة ، أو رئيـس جمهـوريـة ؛ فهـو المـادِّيُّ المستأثر ؛ الذي لا يخدم إلا نفسه ، وجماعته ، ولا يعرف غيره ، وإذا كان زعيماً ، أو قائداً ، فهو الوطنيُّ ، أو القوميُّ ؛ الذي يقدِّس وطنه ، ويعبد عنصره ، ويدوس كرامة البلاد الأخرى ، والشعوب الأخرى ، وإذا كان مشترعاً ؛ فهو الذي يسنُّ القوانين الجائرة ، والضرائب الفادحة ، وإذاكان مخترعاً ؛ اخترع المدمِّرات ، والناسفات ، وإذا كان مكتشفاً ؛ اكتشف الغازات المبيدة للشعوب ، المخربة للبلاد ، والقنبلة الذرية ؛ التي تُهلك الحرث والنسل ، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ ؛ لم ير بأساً بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد .

وبهؤلاء الأفراد تكوَّن المجتمع ، وتأسَّست الحكومة ، فكان مجتمعاً مادِّياً ، اجتمع فيه احتكار التاجر ، وثورة الفقير ، وتطفيف العامل ، وشحُّ الغنيِّ ، وغشُّ الوالي ، واستبداد السَّيِّد ، وخيانة الخادم ، وسرقة الخازن ، ونفعية الوزراء ، ووطنية الزعماء ، وإجحاف المشترع ، وإسراف المخترع والمكتشف ، وقسوة المنفذ ، وبهذه النفسيات المادية تولَّدت أزماتٌ طريفةٌ ومشاكل معقَّدةٌ ، تشكو منها الإنسانية بثَّها وحزنها ، كالسُّوق السوداء ، وفشوِّ الرشوة ، والغلاء الفاحش ، واختفاء الأشياء ، والتضخُّم النَّقدي ، وأصبح المفكرون والمشترعون لا يجدون حلاً لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة ؛ واجهوا أزمةً أخرى ، بل إنَّ حلولهم القاصرة ، ومعالجاتهم المؤقتة هي التي تسبب أزماتٍ جديدةً . وتنقلوا من حكوماتٍ شخصيةٍ إلى ديمقراطيةٍ ، إلى دكتاتوريةٍ ، ثم إلى ديمقراطيةٍ ، ومن نظامٍ رأسماليٍّ إلى نظام اشتراكيٍّ ، إلى شيوعيٍّ ، وإذا الوضع لا يتغيَّر ؛ لأنَّ الفرد الذي هو الأساس لا يتغيَّر ، ويجهلون أو يتجاهلون في كلِّ ذلك : أنَّ الفرد هو الفاسد المعوج ، ولو عرفوا : أنَّ الفرد هو الأساس ، وإنَّه فاسدٌ معوجٌّ ؛ لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه ، لأنَّهم ـ على كثرة مؤسَّساتهم العلمية ، ودور التعليم والتربية

والنشر ـ لا يملكون ما يُصلحون به الفرد ، ويُقوِّمون اعوجاجه ، ويحوِّلون اتجاهه من الشرِّ إلى الخير ، ومن الهدم إلى البناء ، لأنَّهم أفلسوا في الرُّوح ، وتخلَّوا عن الإيمان ، وفقدوا كلَّ ما يغذِّي القلب ، ويغرس الإيمان ، ويُعيد الصِّلة بين العبد وربِّه ، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى ، وبين المادة والروح ، وبين العلم والأخلاق ، وفي الأخير أدَّى بهم إفلاسهم الرُّوحي ومادِّيتهم العمياء ، واستكبارهم إلى استعمال آخِر ما عندهم من آلات التَّدمير ، التي تبيد شعباً بأسره ، وتخرِّب قطراً بطوله ، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية ـ إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات ـ للنهاية الأليمة .

* * *

كذا فليجلَّ الخطب وليفدح الأمر[١]

(اطلعت على كلمة الأستاذ عتيق الرحمن السنبهلي منشىء مجلة « الفرقان » الشهرية التي تصدر في لكهنؤ الهند ، في التعليق على مقال الأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة « الأزهر » الذي آثار استنكار جميع أصحاب الضمائر والإيمان في العالم الإسلاميِّ وسخطهم ، والكلمة دافقةٌ بالحياة والقوَّة ، وهي تعرب عن وجهة نظر مسلمي الهند ، والبلاد العجميَّة ، ومدى ارتباطهم بالمقام النبويِّ الشريف ، ورأيت من حقِّ هذه الكلمة المؤمنة أن أتولى نقلها وتعريبها ليطلع عليها إخواننا العرب) .

يُؤثر عن شاعرٍ إيرانيٍّ كبيرٍ[٢] اشتهر بنبوياته الخالدة بيتٌ سار به الركبان في عصره ، وبعد عصره ، يقول مخاطباً للرسول الأعظم ﷺ :

« اعتزيت مرَّة إلى كلبك ، وتصببت عرقاً ، وأطرقت حياءً ، لأنَّ الاعتزاز إلى كلبٍ من كلاب الحيِّ في مدينتك إساءةَ أدبٍ وغرورٌ بالنفس »[٣] .

ويقول شاعر آخر من شعراء العجم :

« إنَّ محمـداً العربي هـو الذي يتشرَّف به كلُّ أحدٍ في الدُّنيا والآخرة ،

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد الثامن ، عام ١٩٦٣م .

(٢) هو الشاعر الإيرانيُّ الكبير الملقب في الشعر على عادة شعراء الفرس القدسي ، توفي سنة ١٠٥٦ ، عاش في الهند في عصر شاهجهان الإمبراطور المغولي .

(٣) ليس على المؤلف عهدة فيما بلغ إليه الشاعر في تصوير عاطفته ، فإنه ناقل ومترجم ، ولا شك أن الإنسان ـ وخاصة المسلم ـ أشرف من الكلب في إنسانيته وإيمانه ، وقد قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ . . . الآية [الإسراء : ٧٠] .

فمن أبى أن يكون تراب عتبته تربت يداه ، ورغم أنفه » .

إلى هنا وصل الشعراء والأدباء في العجم من الحساسية ورقّة الشعور ، والتواضع والتأدب لمقام الرسالة العظمى ، وقد نشؤوا في بيئةٍ عجميةٍ بعيدةٍ عن مهد الإسلام ، ومهبط الوحي ، وعيِّروا بالعجمة ، والرطانة .

قارن ذلك بما صدر حديثاً عن قلم كاتب عربيٍّ كبيرٍ ، في بلدٍ إسلاميٍّ كبيرٍ ، كان يعتبر كنانة الإسلام ، وقبلة الإسلام في مجلة تصدرها كبرى الجامعات الإسلامية وأقدمها وأشهرها في العالم الإسلامي ، الأزهر الشريف :

« إنَّ الوحدة المحمَّدية كانت كليَّةً عامَّة ، لأنَّها قامت على العقيدة ، ولكن العقيدة مهما تَدُمْ ؛ قد تضعف أو تحول ، وإنَّ الوحدة الصَّلاحيَّة كانت جزئيةً خاصَّة ، لأنها قامت على السلطان ، والسلطان يعتريه الوهن فيزول .

أما الوحدة الناصريَّة فباقيةٌ ناميةٌ ، لأنَّها تقوم على الاشتراكية في الرزق ، والحرية في الرأي ، والديمقراطية في الحكم ، وهذه المقومات الثلاثة ضمانٌ دائمٌ للوحدة »[١] .

هل يبلغ رجل يلفظ بكلمة الإسلام ، ويؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام في نزوةٍ من نزوات الشَّباب ، وفي عثرةٍ من عثرات اللسان إلى هذا الحدِّ من الوقاحة وقلَّة الحياء ، والاعتداء على مقام الأنبياء ؟ لقد عرف عن الماجنين المستهترين السكارى في بلادنا ، أنَّهم في سكرهم ، وثورتهم لا ينسون التأدب مع مقام الرسالة ، فإذا تناوله أحد الأشقياء بإساءةٍ أو إهانةٍ ، قامت قيامتهم ، وثارت ثائرتهم . وإلى القارىء الكريم قصَّةً رواها صحافيٌّ معروفٌ عن شاعرٍ كبير في شبه القارة الهندية ، كان في طليعة شعراء الهوى والشباب ، ومن المدمنين للخمر والشراب ، وهو الشاعر « أختر الشيراني » الذي توفي قبل سنوات . يقول الأستاذ شورش الكشميري في صحيفته السيارة CHatan « جتان » الصادرة في لاهور الباكستان :

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة الأزهر في عدد محرم سنة ١٣٨٣هـ تحت عنوان « أمة التوحيد تتوحَّد » .

« اجتمع فريق من الشباب والشعراء في فندق (العرب) في لاهور مرَّةً ، وكان في الجماعة شباب شيوعيون في غاية من الذكاء ، وسلاطة اللسان ، وتجاذبوا مع الأستاذ (أختر الشيراني) أطراف الحديث ، وصاروا يتناقشون معه في موضوعاتٍ شتَّى ، وكان الأستاذ الشيراني قد شرب كأسين من الخمر ، وقد فقد رشده ، وملكته نشوة الخمر ، وأخذته رعشةٌ في الجسم ، وكان يتكلَّم كلاماً متقطعاً غير متزن ، وكان معروفاً بالإعجاب الشديد بنفسه ، والتيه بها ، وكان لا يعترف بغيره من الشعراء ، ولست أذكر اليوم جيداً الموضوع الذي كان يدور البحث فيه ، ولكن أذكر أنه قال : قد ظهر في المسلمين ثلاثة نوابغ عبقريين ، أولهم أبو الفضل[١] والثاني أسد الله خان غالب[٢] والثالث أبو الكلام آزاد[٣] ، أما الشعراء المعاصرون فكان لا يعترف لأحدٍ منهم بالمساواة أو المجاراة ، وقد سأله الشباب الشيوعيون عن الشاعر الكبير (فيض أحمد فيض) فأعرض عن الجواب ، وسألوه عن (شير حسن جوش) الشاعر المعروف ، فقال : ليس بشاعر إنَّما هو ناظم ، وهكذا كان موقفه من جميع الشعراء المعاصرين ، استخفافٌ ، أو إعراضٌ ، أو تبسُّمٌ ، أو تنكيتٌ ، ولما رأى الشباب أنه لا يعترف بقيمة حركة الأدب التقدُّميِّ لجؤوا إلى موضوع آخر ، لعلَّه يثيره ، أو يحرِّك منه ساكناً ، فقالوا : يا سيدي ، ماذا تقول عن النبي الفلاني ؟ وكانت عيناه محمرَّتين ، وأخذت الخمرة فيه كل مأخذ ، وكان لا يملك لسانه ، ولكنه أفاق ، وقال : ما هذا الهراء ؟ لا تتحدثوا إلا عن الأدب والإنشاء والشعر والشعراء ، فعطف عنان الكلام إلى أفلاطون ، وقال ما رأيك عن مكالماته ؟ وسألوه عن أرسطو وسقراط ، وكان نشيطاً للكلام

---

(١) من وزراء الإمبراطور « أكبر » وصاحب « أكبرنامه » المأثرة العلمية التي تعتبر من الكتب الخالدة في التاريخ والدستور وتخطيط البلاد .

(٢) شاعر أردو ، يعتبر من أئمة الشعر الأردوي وصاحب مدرسة خاصة كان في القرن الثالث عشر الهجري .

(٣) العالم الأديب المعروف ، رئيس المؤتمر الهندي الوطني الأسبق ووزير المعارف في الجمهورية الهندية سابقاً .

فقال : أمَّةٌ قد خلت ، حدثونا عن شخصياتنا وحاضرنا ، إنَّ أولئك الفلاسفة لو كانوا في عصرنا لتتلمذوا علينا ، ما لنا ولأولئك حتى ندلي برأينا فيهم ؟

وانتهز شاب « شاطر » من هؤلاء الشباب الشيوعيين فرصة نشاطه ومرجه ، فقال : وما رأيك عن سيدنا محمد ؟ وكأنَّما نزلت صاعقةٌ وهبَّت عاصفةٌ ، فلم يكد الشاب يتمُّ جملته حتى تناول الشاعر السكران كأس الزجاج وضربها على رأسه قائلاً : يا قليل الأدب ! أنت توجِّه هذا السؤال الوقح إلى رجلٍ مذنبٍ معترفٍ بشقائه ، ماذا تريد أن تسمع من فاسق ؟ وكان جسمه يرتعد ، وانفجر باكياً ، وأجهش بالبكاء ، وأقبل على الشاب الوقح يقول له في عنفٍ ، وغضبٍ : كيف سوَّلت لك نفسك يا خبيث ! أن تذكر هذا الاسم النزيه المقدَّس ، كيف تجاسرت على ذلك يا قليل الأدب ! يا قليل الحياء ! لقد كان لكلامك مجالٌ واسع ، فلماذا دخلت في هذا الحمى المقدَّس ، تب إلى الله من هذا السؤال الوقح ، إنني أعرف خبث باطنكم جيداً ، وعُرف الشرُّ في وجهه ، وكأنه يريد أن يفتك بالشابِّ ، ويسطو به » .

أما الشاب فقد سقط في يديه ، وغاب رشده ، ولم يكن يقدِّر أنه سيلقى هذه النتيجة الوخيمة ، وأنه يوقظ في الشاعر هذا الليث الثائر ، ويثير فيه هذه الشرارة الكامنة ، شرارة الإيمان والحنان ، وشرارة الحميَّة والغَيرة ، فكان لا يعرفه إلا شاعر الهوى والشباب ، وشاعر الغزل والغرام ، وحاول أن يشغله عن هذا الحديث المثير ، وأن يهدىء فيه هذه الثائرة ، ولكنَّه لم ينجح ولم تهدأ ثائرة (أختر) فأمر بإخراجه من المجلس ، ثم قام بنفسه ، وبات طول الليل باكياً يقول : لقد بلغ هؤلاء الشباب الملحدون هذا الحدَّ من الوقاحة والجراءة ، إنهم يريدون أن ينتزعوا منا آخر ما نعتزُّ به ، ونعيش عليه من حبٍّ ، وولاءٍ ، وإخلاصٍ ، ووفاءٍ ، إنني رجلٌ مذنب ، لاشكَّ أعترف بذنبي ، ولكن هؤلاء يحاولون أن نخلع ربقة الإسلام ، ونخرج من حظيرة الإيمان ، لا والله لا نرضى بذلك !

ولكن ـ واأسفاه ! وواويلاه ! ـ ما أبعد المسافة بين هذا الوفاء العجمي ، وبين هذه الحميَّة الهندية ، وبين هذه الغيرة الإيمانية الثائرة المضطرمة التي

يمثلها شاعرٌ لم يكن قطُّ من أبناء العرب ، ولم يتكلم مرَّةً بلغة العرب ، لقد نشأ بعيداً عن كل ذلك ، بعيداً عن البيئة الدينية ، والعلمية ، والأزهر الشريف ، وعاش في مجالس الشرب ، ونوادي اللهو ، وأوساط الشعر والأدب ، وعرف بالاستهتار وخلع العذار ، والشعر الخليع كشعر عمر بن أبي ربيعة ، وأبي نواس ، وبشار بن برد . ما أبعد المسافة بينه وبين أديبٍ كبير ، رضع بلبان اللغة العربية وآدابها الإسلاميَّة ، واشتهر بمقالاته في السيرة النبوية والموضوعات الإسلامية ، يرأس تحرير مجلة هي لسان حال الأزهر الشريف ، مثابة العلم والعلماء ، ومعقل الدين الحنيف . كيف يقرن الاسم الذي هو من أكرم الأسماء وأعزِّها عند المسلمين ، باسم حاكم مصر الحالي ، ويقارن بينهما ، ثم تبلغ به الوقاحة إلى أن يعلن رجحان ناصر في هذا الميزان ، وأنَّ الوحدة التي يتزعمها وحدةٌ باقيةٌ ناميةٌ ، أمَّا الوحدة التي دعا إليها محمد ﷺ ، فمعرَّضةٌ للضعف والتحوُّل ، يا ليته لم تلده أمه ! ويا ليتنا لم نعش لنسمع ذلك !

ثم يا ليتنا سمعنا أنَّ جمال عبد الناصر اضطرب لهذا المقال المخذول اضطراباً شديداً ، وطار نومه ، وتكدَّر عيشه ، وأنَّ قصر الحكومة قد تزلزل ، وصعق المسلمون في مصر ، وأجهش الناس بالبكاء ، وقامت مصر كلُّها قومة رجلٍ واحدٍ ، وثار ضمير الشعب المصري المؤمن الذي عرف بغيرته وحماسته للإسلام ، وحبِّه العميق المتفاني لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ، فكانت ثورةً عارمةً تكون نكالًا لكلِّ من يقع في حمى النبوة ، ولكن ـ يا خيبة الأمل ! ـ لم يقع شيء من ذلك ، وقد رأينا مجلَّةً مصريةً تصدر من القاهرة تعلق على هذا الحادث بعد شهرين من صدور مقال الزيات وتقول :

« الزيَّات وأمثاله بهذا النفاق المتبجح الأحمق يؤذون الثورة ، ويمكِّنون منها خصومها والمتربِّصين بها » .

ولقد كان لعلماء الأزهر على أثر نشر هذا الهراء اجتماعاتٌ ، وتجمعاتٌ ، وقراراتٌ ، وبرقياتٌ ، ولكن لبعضهم مواقف إيجابية تذكر ، وتشكر ممَّا جعل شيخ الأزهر يصدر بياناً ، ويصدر الزيَّات بياناً .

ولم نطلع على البيانين ، ولكن منشىء المجلة يعلِّق عليهما بقوله : « لم يغنيا عنهما من الله شيئاً » .

ويتناول صاحب المجلة مقال الزيات بالتحليل والتجزئة ويقول : « إنَّ الزيات ذكر الوحدة الإسلامية باسم الوحدة المحمَّدية شأن المستشرقين من جهة ، ويقارن بين أسماء محمد وصلاح ، وناصر من جهةٍ أخرى ، وهذا سوء أدبٍ مع الله لا يغتفر » .

ثم يتناول هذا المقال بالنقد ويقول :

« نسي الزيات أنَّ السَّيِّد الرئيس أشرف من أن يدَّعي النبوة ، أو يتورك عليها ، أو أن يرضىٰ بتفضيله على رسول الله ﷺ ، وأنَّه أسمىٰ من أن يقول أنَّه جاء بما لم يجيء به سيدنا محمد ﷺ » .

وهنا يملكنا العجب والأسف ، كيف تحرص هذه المجلة الإسلاميَّة على التأدب مع ناصر في هذه المناسبة التي لا تدع رجلاً يفكر في هذه الألقاب التي يكرم بها السيد المنشىء رئيس جمهورية ، فلا ينسى أن يذكره « بالسيد الرئيس » مع أن جميع الرئاسات الزائفة العارضة تتبخر أمام سيادة سيد البشر ، وسيد العرب ، والعجم ، الذي يسعىٰ إليه سلاطين العالم ، وسادة الأمم على رؤوسهم ، وقد تركوا وراءهم جميع شارات الشَّرف ومظاهر العظمة والفخار ، ويتقدَّمون إلى المقام النبويِّ الكريم مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، كيف استطاع هذا (الكاتب المسلم) وهو يدافع عن هذه الحرِّيَّة المقدسة أن يذكر الرجل الذي قُورن به مع سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم « بالسيد الرئيس » ويهيل عليه هذه التحيات ، وهذه الألقاب ويسبِّح بحمده ، لقد كان المقام يقتضي أن ينسىٰ الكاتب كلَّ شيءٍ غير ما يستحقه هذا المقام الكريم مقام النبوة الخالدة ، ومقام السيادة العالمية من الإجلال والتكريم والغضب لحرمته ، وينسى ما يذكره العبيد المتزلفون ، والصَّحافة الخانعة الذليلة من الألقاب الرسمية الفارغة الممجوجة ، إنَّها قلة ذوق نعاتب عليها الكاتب الفاضل ، والعالم الدِّيني الذي يرأس تحرير هذه المجلة ، إنَّه دفاعٌ ضعيفٌ نربأ بمقام النبوَّة عن مثله ، ونترقَّب من مصر الإسلاميَّة موقفاً

أقوى ، وأشرف منه . لقد كنا ننتظر لهذا الدفاع لغةً أقوى حماسةً ، وأروع غيرة ، لقد كنا ننتظر أن يقول قائل في مصر : يكفي لشرف ناصر أن يُقر بسيادة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفاه فخراً أن يجد مكاناً في آخر صف من صفوف موالي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعبيده الأرقاء ، ويكفي لسعادة ناصر أن يكون له حظٌ من سعادات صلاح الدين الأيوبي .

يا حسرتا ! إنَّ مصر التي لا يقل عدد المسلمين فيها عن ٩٠ في المئة ، ودينها الرَّسمي لا يزال الإسلام ، ولم تكن وطنيتها وحكومتها إلا منحةً من منح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكثيرة ، استطاع فيها منافقٌ أن يرجِّح كفة حاكم مصر على كفة سيد البشر ، وهو في وسط علماء الأزهر الشريف ، يتمتَّع بثقتهم ، ويأكل من رفدهم ، ولا يستطيع رجلٌ في طول هذه البلاد وعرضها أن يرفع صوته بقوله : أين الثرى من الثريَّا ، وأين الضريح من الضُّراح[1] ، وأين فقاقيع الماء من نبوَّةٍ خالدةٍ لا تغرب شمسها ، ولا يأفل نجمها ! أوليس في مصر من يغضب لهذا الشرف ويقوم ثائراً ، فيقول لهذا الوقح الذي يقارن بين رئاسة لا يعرف مصيرها إنسان ، وبين هذه الرئاسة التي انتظمت الشرق والغرب وانتظمت الماضي ، والحال ، والمستقبل ويقارن بين الوحدة التي وحَّدت العرب والعجم ، ووحَّدت بين الأمم والشعوب المتحاربة من قرون فكانت أقوى أخوَّةً من الأخوة الأشقاء : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . وبين الوحدة التي لم تستطع أن توحد بين بلدين عربيين قريبين ، بين شعبين عربيين شقيقين ، ويريد أن يصف تلك الوحدة النبوية الخالدة العصماء بالوهن والزوال ، ويريد أن يوهن العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، لتحلَّ محلَّها وحدةٌ مصطنعةٌ ولدت ناقصةً مخدجةً ، وعاشت سقيمةً مسلولة ، تعاني الاحتضار ، وتخاف الانهيار في كلِّ ساعةٍ من ساعات الليل والنهار .

كناطحِ صخرةٍ يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهىٰ قَرْنَه الوعلُ

* * *

(١) الضُّراح : البيت المعمور في السماء الرابعة (قاموس) .

وفود الأمّة بين يدي نبيّها ﷺ(١)

عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ ، إنَّهم لا يفارقهم الشعور التاريخيُّ والتفكير في أقدس مكانٍ وأفضل زمانٍ ، إنَّهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ، ويصلون الحاضر بالماضي .

كنت أمس في الرَّوضة في المسجد النَّبويِّ ، وحولي جمعٌ حاشدٌ من المصلِّين ، والمتعبِّدين بعضهم في ركوعٍ ، وبعضهم في سجودٍ ، ولتلاوة القرآن دويٌّ كدويِّ النحل ، كلُّ ذلك كانَ جديراً بأن يشغلني عن التفكير في التاريخ ، وفي رجال الماضي ، ولكن سحابة غشيتني من الذكريات القديمة ، لم أستطع لها دفعاً ، ولم أملك لها قهراً .

رأيت كأن عظمّاء هذه الأمة عاشوا من جديد ، وجاؤوا وفوداً يصلِّون في هذا المسجد العظيم ، ويسلمون على هذا النَّبيِّ الكريم ، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والامتنان والاعتراف بالجميل ، يشهدون له على اختلاف طبقاتهم ، بأنَّه هو الذي أخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النور ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها ، ويشهدون على أنفسهم بأنَّهم غرس الإسلام ، وزرع النُّبوَّة ، وأنَّهم ـ لا سمح الله ـ لو تجرَّدوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النَّبيِّ ومما أتحفتهم به نبوَّته ؛ لعادوا أجساداً بلا روح ، وخطاً بلا وضوح ، ولعادوا إلى عهد الظلمات ، وشريعة الغابات ، وقانون العصابات ، وانطمست معالم هذه الحضارة .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الواحد والعشرون ، عام ١٩٧٦م .

حانت مني التفاتةٌ ، فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل ـ وهو أقرب الأبواب إليَّ ـ عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم وسيما التفكير ، وقد ملؤوا الرحاب من باب جبريل باليسار إلى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتُهم عن العدِّ والتشخيص ، سألت البواب عنهم ، فقال : هؤلاء أعلام الأمة ، وأئمة العلم ، وعباقرة الإنسانية ، ونوابغ الوجود ، كلٌّ واحدٍ منهم إمام أمَّة ، ومؤسس مكتبة ، ومبتكر علمٍ ، ومربِّي جيلٍ ، قد خلَّدت آثارهم فامتدت على العصور والآفاق ، وسارت في ضوء علومهم واجتهادهم وتحقيقهم الأجيالُ بعد الأجيال ، وقد سمَّي منهم على عجلٍ واحتشامٍ ، مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النُّعمان ، ومحمد بن إدريس الشَّافعيَّ ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وليث بن سعد المصريَّ ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيَّ ، ومحمد بن إسماعيل البخاريَّ ، ومسلم بن حجَّاج القشيريَّ ، ومحمد بن محمد الغزاليَّ ، وتقي الدين بن تيمية ، وموفق الدين بن قدامة ، وأبا إسحاق الشاطبيَّ ، وكمال بن الهمام ، وأحمد بن عبد الرحيم الدَّهلويَّ ، على تفاوتهم في الزمان والمكان ، وأصالة العلم ، وعلوِّ الشأن .

رأيتهم بدؤوا بتحية المسجد ، وصلُّوا ركعتين في خشوعٍ وقنوتٍ ، ثم تقدموا إلى القبر الشريف في أدبٍ وتواضعٍ ، وسلَّموا على نبيهم ﷺ في كلماتٍ وجيزة المباني ، كثيرة المعاني ، عميقة الجذور ، سامقة الذُّرى ، وكأني أسمعهم يقولون ، وفي عيونهم دموعٌ ، وفي صوتهم خشوعٌ : « لولاك يا رسول الله ! ولولا شريعتك السَّمحة الواسعة الخالدة مع الزمان ، ولولا أصولها المفتِّقة للقرائح ، ووضعها الحكيم المعجز ، الباعث على التفكير والتفريع ، ولولا حاجة الإنسان إليها في كلِّ زمانٍ ومكان ، لما دوِّن هنا هذا الفقه العظيم ، وهذا التشريع الحكيم الذي لا تحمله أمةٌ من الأمم ، ومجتمعٌ من المجتمعات البشرية ، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التي تتضاءل أمامها كلُّ مكتبات العالم الدِّينية ، ولولا جهادك في سبيل نشر العلم ، والحثِّ على استعمال العقل والتدبُّر في آيات الله ؛ لما عاش العلم ، وانتشر هذا الانتشار الواسع ، ولما أطلق العقل الإنسانيُّ من إساره ، وسار العالم في آثاره » .

ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريقٌ آخر يدخل من باب الرَّحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ، وفي وجوههم أثر التقشف والزَّهادة ، قيل لي : إنَّ فيهم الحسن البصريُّ ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان الثوريُّ ، والجنيد البغداديُّ ، والفضيل بن عياض ، وداود الطائيُّ ، وابن السَّماك ، وعبد القادر الجيلانيُّ ، ونظام الدين البدايونيُّ[1] ، وعبد الوهاب المتَّقيُّ[1] ، وأضرابهم ، اقتدوا بالأولين ، وتقدَّموا بعد الصَّلاة ، ووقفوا أمام المدفن الشريف ، يصلُّون على نبِّيهم وإمامهم وقدوتهم ، ويقولون : « لولا المثل العملي الذي ضربته في حياتك ، ولولا منارك الذي أقمته لمن يأتي بعدك يا رسول الله ! ولولا قولك : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ووصيتك « كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل » ولولا حياتك التي وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، « وطلوع هلالٍ بعد هلالٍ ، ومرور شهرٍ بعد شهرٍ لا توقد في بيتك نارٌ ، ولا تنصب لها قدر » لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدُّنيا ، وأن نكتفي ببلغةٍ من العيش ، وكفافٍ من الزاد ، لما كان لنا أن نتمرد على الشَّهوات ، ونقاوم إغراء الأموال ، والمناصب ، والحكومات ، في غير تحريمٍ لما أحلَّ الله من الطيبات ، ومن غير تحقيرٍ لما منَّ الله علينا من النعيم ، ووسَّع لنا في الحياة ، ولكنَّه إيمان المؤمن ، وإيثارٌ للآخرة ونعيمها على الحياة الدُّنيا وطيباتها ، وعزوفٌ عن الشَّهوات وكراهةٌ للتكالب على حطام الدُّنيا » .

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة المرققة حتى لفت نظري فريقٌ يدخل من باب النساء في حشمةٍ وتستُّرٍ ، بعيدٌ عن كلِّ ما ينافي الإسلام وآدابه من الزينة الظاهرة والتبرُّج ، وتقدَّم هذا الفريق من المسلمات الصالحات ، من شعوبٍ مختلفةٍ وبلادٍ متنائيةٍ ، من عجمياتٍ ، وعربياتٍ ، وشرقياتٍ ، وغربيات ، وتكلمن في صوتٍ خافتٍ ، وأدبٍ ظاهرٍ :

---

(١) البدايوني والمتَّقي عالمان ربانيان ، ومن كبار الزهاد والمربين ، ولدا ونشأا في الهند .

« نصلِّي ونسلِّم عليك يا رسول الله ! تسليم من عظمت عليه منَّتك ، فقد أنقذتنا بإذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية ، وظلم المجتمع ، وجور الرِّجال ، وحرَّمت وأد البنات ، وحذَّرت من عقوق الأمهات ، وقلت : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وأشركتنا في الإرث ، وبينت نصيبنا أمَّاً ، وأختاً ، وبنتاً ، وزوجاً ، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة يوم عرفة ، فقلت : « فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله » إلى غير ذلك مما حثثت به الرِّجال على الإنصاف للنساء ، وأداء حقوقهنَّ ، وحسن عشرتهنَّ ، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين .

ولم ينقطع عن أذني هذا الصوت الرَّخيم حتى سمعت حسيس قومٍ يدخلون من باب السَّلام ، والتفت إليهم فإذا هم مبتكرون للعلوم ، ومدوِّنون للفنون ، أئمة النحو واللغة والبلاغة ، فيهم أبو الأسود الدؤليُّ ، والخليل بن أحمد الفراهيديُّ ، وسيبويه ، والكسائيُّ ، وأبو علي الفارسيُّ ، وعبد القاهر الجرجانيُّ ، والسَّكاكيُّ ، وابن منظور ، ومجد الدين الفيروز آباديُّ ، وسيد مرتضى الزبيديُّ ، يريدون أن يبلغوا تحية علومهم ، ويدفعوا ضريبة ما عاشوا عليه ، واشتهروا به ، وسمت مكانتهم بفضله ، وسمعتهم يقولون في بلاغةٍ وأدبٍ : لولاك يا رسول الله ! ولولا الكتاب الذي نزل عليك ، ولولا حديثك الذي نطقت به ، ولولا هذه الشريعة التي دانت بها الأمم ، واحتاجت لأجلها إلى تعليم اللغة العربية والتفقه فيها ، لما نشأت هذه العلوم التي كُتبَ لنا شرفُ الزَّعامة فيها ، ولما كان نحوٌ ، ولا بيانٌ ، ولا بلاغةٌ ، ولما ألفت هذه المعاجم الكبيرة ، ودقِّق في مفردات اللغة العربية ، ولما جاهدنا في سبيلها هذا الجهاد الطويل ، ولما خضع العجم وَهُم في سعةٍ من لغاتهم ، وغبطةٍ بلهجاتهم لدراسة اللغة العربية والتعمُّق فيها ، ولما كان منهم هؤلاء الأعلام الذين أقرَّ بفضلهم ونبوغهم أدباء العرب ، وجهابذة الأدب ، فأنت الرابطة يا رسول الله ! بيننا وبين هذه العلوم الناشئة في الإسلام ، النابتة في عهد رسالتك وإمامتك ، وأنت الرابطة بين العرب والعجم . وأنت الذي ملأ الله بك هذا الفراغ ، ووصل البعيد بالقريب ، والعجميَّ بالعربيِّ ، فكم لك من فضلٍ

على نبوغنا وعبقريَّتنا ! وكم لك من فضل على ثروة العلم ، ونتاج العقول ومحصول الأقلام ! .

ولولا أنت يا رسول الله ! لطويت اللغة العربية فيما طوي من اللغات ، واندرس من اللهجات ، ولولا القرآن الكريم العظيم العربي المبين لتناولها المسخ والتحريف ، كما تناول اللغات الكثيرة ، وابتلعتها العجمة ، واللهجات المحليَّة ، وقضى عليها اللحن ، ولكنه هو وجودك ، وشريعتك الخالدة ، ودينك العالميُّ وكتاب الله المعجز ؛ الذي منعها من العَفاء والدروس ، وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الإسلاميِّ كلِّه ، وغرس حبها وإجلالها في قلب كلِّ مسلمٍ ، فأنت الذي خلد الله بك هذه اللغة ، وضمن بقاءَها ، وانتشارها ، وسلامتها ، فلك على كلِّ من ينطق بها ، أو يكتب فيها ، أو يعيش بها ، أو ينادي إليها فضلٌ لا يجحد » .

ولم أنته من مقالتهم حتى استرعى انتباهي قومٌ يدخلون من باب عبد العزيز ، خليطٌ من البشر ، ومزيجٌ من الأمم ، فيهم أعظم سلاطين العالم ، وأعظم ملوكٍ عرفهم التاريخ ، فيهم الوليد بن عبد الملك ، وهارون الرشيد ، ومحمود الغزنويُّ ، وملك شاه السلجوقيُّ ، وصلاح الدين الأيوبيُّ ، والظاهر بيبرس ، وسليمان القانونيُّ العثمانيُّ ، وأورنك زيب عالمكير التيموريُّ الهنديُّ ، وقد نحَّوا الخدم ، ورجال الشرطة عنهم ، وتركوهم وراء الباب ، يتقدَّمون في هيبةٍ وتواضعٍ ، غضيضةٌ أبصارهم ، خافتةٌ أصواتهم واستعرضت أسماءهم ، وأدوارهم ، والدنيا الواسعة التي كانوا يحكمونها ، والسيطرة العظيمة التي كانوا يتمتَّعون بها ، فمنهم من كان يحكم دولةً لا تُقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل[١] ، ومنهم من قال مرَّة لسحابة مرَّت به : « أمطري حيث شئت . . فسيأتيني خراجك »[٢] ، ومنهم من اتسعت مملكته ، حتى استطاع أن يأمر بأن يُدفع إلى أصحاب سفن جيحون أقصى

---

(١) المراد به الوليد بن عبد الملك .

(٢) المراد به هارون الرشيد .

الشرق أجرتهم من مالية أنطاكية في أقصى غرب المملكة ، وحضر رسول القيصر ليدفع إليه الخراج فما تسلم منه إلا على باب كاشغر[١] ، ومنهم من كان يرهب فيه أوربا ، وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس ، إذا دخل المسلمون في بلادهم احتراماً لدينهم وإشفاقاً من سلطانهم[٢] ، ومنهم ، ومنهم ، ومنهم . . .

رأيتهم يتقدَّمون ليصلُّوا في مسجد الرسول ، ويسلِّموا على صاحبيه ، يعتبرون ذلك أعظم سعادةٍ لهم ، وأكبر شرفٍ ، ويتمنَّون لو رفعت هذه الصَّلاة ، ولو قبل هذا التسليم ، ويسمح لهم بالوقوف في مصلَّاه ، والوقوف أمام مرقد الرسول يقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والاعتراف بالجميل ، رأيتهم يتقدَّمون إلى الإمام تقصر خطاهم ، وتتعثَّر أقدامهم ، والمهابة تملأ قلوبهم حتى وصلوا إلى الصُّفَّة ـ وهو مكان فقراء الصحابة ـ ووقفوا أمامها ينظرون إليها نظر الإكبار والإجلال ، ونظر الحياء والاحتشام ، وصلُّوا بجوارها تحيةً للمسجد ، ثم تقدَّموا إلى القبر الشريف ، فسلَّموا على نبيهم كما شاء حبُّهم وإجلالهم ، وكما شاء علمهم وإيمانهم ، متأدِّبين بآداب الشرع ، متقيِّدين بشريعة التوحيد ، وسمعتهم يقولون : « لولاك يا رسول الله ! ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت الآفاق وفتحت البلاد ، ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا ، فخرجوا به من حياة الخمول ، والهوان ، والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف والطموح والمغامرة ، فأسسوا دولًا واسعةً ، وفتحوا بلاداً شاسعة ، وجبوا الخراج من الأمم التي كانت تسوقهم بالعصا ، وترعاهم كالغنم ، فلولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الانطواء على النفس والحياة القبلية الضيقة إلى غزو العالم ، وفتح الأمم لما ارتفعت لنا رايةٌ ، ولا رويت لنا رواية ، ولبقينا في صحارينا القاحلة ، وفي أوديتنا الضَّيِّقة المظلمة ، نتصارع ونتناحر ، يأكل القوي منا الضعيف ، ويظلم الكبير منا الصغير ،

---

(١) هو ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي .

(٢) هو سليمان بن سليم العثماني .

طعامنا أفقر طعام ، وعيشنا أخسُّ عيش ، لا نفكر في مكانٍ أوسع من هذه القرية الصغيرة التي نعيش فيها ، ولا في مجموعٍ من البشر أكبر من هذه القبيلة الصغيرة التي نرتبط بها ، أسماك بركةٍ ، وضفادع بئر ، نعيش في عالمٍ من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ، ونتغنَّىٰ بمجد آبائنا الجهلاء السفهاء ، ولكنَّك يا رسول الله ! ألقيت علينا ضوءاً من دينك ، تفتحت به عيوننا ، وتوسع به خيالنا ، فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع ، ورابطته الجامعة ، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة ، نحارب الشرك والوثنية ، والجهالة والظلم ، فأسَّسنا هذه الدولة العظيمة ، ونعمنا ، ونعم أولادنا ، وإخواننا في ظلِّها قروناً ، وهانحن أولاء ، نقدِّم إليك تحياتنا ، ونقدِّم إليه ضريبة الإجلال ، والتكريم ، والحبِّ ، والتعظيم ، وهي ضريبة نقدمها طوعاً واختياراً ، ونتشرف بتقديمها ، ونعترف بتقصيرنا في جنب دينك الذي أسعدنا الله به ، وتطبيق أحكامه ، وتنفيذ قانونه ، ونستغفر الله تعالى ، إنَّه هو الغفور الرحيم » .

وقد كنت مصروفاً إلى هؤلاء الملوك ، أرى وجوههم الخاشعة وأسمع كلامهم الرقيق ، الذي لم أسمعه أبداً منهم ؛ إذ تقدَّم فريقٌ آخر مشى في صفوف الملوك من غير اكتراثٍ واهتمامٍ ، لا يخشى لهم سطوةً ، ولا يراعى لهم حرمة ، فقلت شاعر أو ثائر ، فإذا هو مجموع من الفريقين ، فيهم السيد جمال الدين الأفغانيُّ ، والأمير سعيد حليم ، والزعيم محمد علي الهنديُّ ، والشهيد حسن البنا ، والشاعر التركيُّ محمد عاكف ، والشاعر محمد إقبال ، وقدموا الأخير ترجماناً لهم يقول : « أشكو إليك يا رسول الله ! من قومٍ لا يزالون يعيشون في رفدك ، ويأكلون من فتات مائدتك ، وينعمون بالحرِّية والشرف في بلادٍ أنت حررتها من حكومة الظالمين ، وأخرجتها إلى ضوء الشمس ، إنهم يحاولون أن ينقضوا الأساس الذي قامت عليه هذه الأمَّة العظيمة ، وهذا الصرح العظيم ، ويريدون أن يوزِّعوا أمتك الواحدة في قومياتٍ وعصبياتٍ كثيرةٍ ، ويحيوا ما أمتَّه ، ويبنوا ما هدمته ، ويرجعوا بهذه الأمَّة إلى الجاهلية التي أخرجتها منها للأبد ، ويقلِّدوا في ذلك أوربا التائهة

الحائرة المفلسة ، ويبدِّلوا نعمة الله كفراً ، ويحلُّوا قومهم دار البوار . إنَّ الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبي لهب قد عاد من جديدٍ ، وقد انضمَّ إلى معسكر أبي لهب كثيرٌ من الناطقين بلغتك ، وعادوا يتغنَّون بأمجادهم الجاهلية ، والأصنام التي حطَّمتها ، إنَّهم المطفِّفون الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، نالوا منك كل برٍّ عاشوا به ، وكلَّ قوةٍ اعتزُّوا بها ، ثم إنهم يأخذون بنواصي شعوبهم التي يحكمونها ، ويريدون أن يلقوها في أحضان أوربا ، وفلسفاتها الجاهلية من قوميَّةٍ ، واشتراكيَّةٍ ، وشيوعيَّةٍ .

هاهي الأوثان التي أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد إلى الشعوب المسلمة السليمة البريئة بأسماءٍ جديدةٍ وبثيابٍ جديدةٍ . إنِّي أرى في بعض أجزاء العالم العربي الذي يجب أن يكون معسكرك ثورةً لا فاروق لها ، وردَّةً لا أبا بكر لها . منِّي ومن جميع أصحابي الذين أتشرَّف بتمثيلهم ، والتعبير عما في ضمائرهم إليك أفضل التَّحيات ، وأشرف التسليمات ، وأؤكِّد لك وأشهد على ما أقول أنَّنا براء من الزُّعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب ، وانصرفوا عن قبلة الإسلام وشطره ، والذين لا صلة لهم بك ، ولا شأن لهم بدينك ، إنَّنا ندين لك بالولاء والوفاء وسنظلُّ متمسِّكين بحبل الإسلام حتى يأتي وعد الله ونلقى ربنا » .

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منائر مسجد الرسول ﷺ : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . وأفقت من غفوتي وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ ، وإذا بي أمام الواقع ، رجال في الصَّلاة ، ورجالٌ في تلاوة القرآن ، وجموعٌ من المسلمين ، ووفودٌ من العالم الإسلاميِّ ، تسلِّم على الرسول ﷺ ، وخليطٌ من الأصوات ، والانطباعات ، والعواطف .

* * *

الأدب النَّبويّ(١)

ما ظنُّك ببشرٍ ذلَّ بالقرآن لسانه ، وامتزج القرآن بلحمه ودمه ، وجرى فيه مجرى الروح ، وأخذ بقلبه واستأثر بلبِّه ، بل أشرب في قلبه القرآن ، وتمكَّن منه ما الله أعلم به ؟ فإن لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحي ـ فكما قال أخونا الشاعر مصطفى صادق الرافعي ـ قد جاء من سبيله ، وإن لم يكن له منه دليل فقد كان هو من دليله ، قد عبَّد له الوحي طريق الكلام ، وذلَّله .

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

ما ظنُّك بمولود من بني هاشم ، ولدته أم القرى ؟ نشأ في بني سعد بن بكر ، وعاش في قريش ، أخواله بنو زهرة ، تزوَّج في بني أسد ، وهاجر إلى بني عمرو .

ما ظنُّك ببشر ؟ يقول فيه ناعته « متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلَّم في غير حاجةٍ ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه . . . ويتكلَّم بجوامع الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ، ولا تقصير » اقرأ فصلاً للجاحظ في بيان أفضل الكلام ـ والقول ما قالت حذام ـ قال رحمه الله : « أفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه ظاهراً في لفظه ، وكان الله قد ألبسه من ثياب الجلالة ، وغشَّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلُّف : صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة . . . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ،

---

(١) كتب العلامة الندوي هذا المقال لأول عدد من مجلة « الضياء » الشهرية التي أصدرتها ـ دار العلوم ـ ندوة العلماء في محرم عام ١٣٥١هـ .

ونفذت من قائلها على هذه الصفة ؛ كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة » .

ثم أنظر إلى قول النبي ﷺ :

١ ـ « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقيةٌ قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منه أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا ، وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى ، إنما هي قيعان ، لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني به الله ، فعلم ، وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[١] .

٢ ـ « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثيرٌ من الناس ، فمن اتَّقى الشُّبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشُّبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمى ، ألا إنَّ حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت ؛ صلح الجسد كلُّه ، وإذا فسدت ؛ فسد الجسد كلُّه ، ألا وهي القلب »[٢] .

٣ ـ إنَّ أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض : قيل : وما بركات الأرض ؟ قال : زهرة الدُّنيا ، لا يأتي الخير إلا بالخير ، إنَّ هذا المال خضرةٌ حلوةٌ ، وإنَّ كلَّ ما أنبت الربيع يقتل حبطاً ، أو يلم ، إلا آكلة الخَضِرِ ، أكلت حتى إذا امتدَّت خاصرتاها ؛ استقبلت الشمس ، فاجترَّت ، وثلطت ، وبالت ، ثم عادت ، فأكلت . وإنَّ هذا المال حلوةٌ من أخذه بحقِّه ، ووضعه في حقِّه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ، ولا يشبع[٣] لو أن لابن آدم مثل وادٍ لأحبَّ أنَّ له إليه مثله ،

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ، باب فضل منْ علِم ، وعلَّم .

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا ، والتنافس فيها .

ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »[١] .

« سبعة يظلُّهم الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه » . . . الحديث ، وفيه : « ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[٢] إنَّ المكثرين هم المقلُّون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً ، فنفخ فيه يمينه وشماله ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً » .

« سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن ، من يوقظ صواحب الحجرات ، يا رب كاسية في الدنيا عاريةٌ في الآخرة »[٣] . « قيل : يا رسول الله ! وما الجسر ؟ قال دحض مَزَلَّةٌ ، فيها خطاطيف ، وكلاليب ، وحسكة تكون بنجدٍ فيها شويكة ، يقال لها : السعدان فيمرُّ المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فناجٍ مسلم ومخدوشٍ مرسل ، ومكدوسٍ في نار جهنم . انتهى »[٤] . ومن جوامع كلمه ﷺ في معنى الإحسان : « أن تعبد الله كأنَّك تراه ، فإن لم تكن تراه ؛ فإنَّه يراك »[٥] وقوله : « إنَّما الناس كالإبل المئة ، لا تكاد تجد فيها راحلةً »[٦] .

« بعثت في نفس السَّاعة ، فسبقتها ، كما سبقت هذه هذه »[٧] « إنَّما الأعمال بالنيات »[٨] « اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى »[٩] « لا تجن يمينك

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب الصدقة باليمين .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب التهجد ، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل . . . إلخ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة ﴾ .
(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان .
(٦) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة .
(٧) جامع الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في قول النبيِّ ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين .
(٨) صحيح البخاري ، بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي . . . إلخ .
(٩) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : هذا المال خضرة =

على شمالك » « المضعف أمير الراكب » « إياكم وخضراء الدِّمن » « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[١] « الإثم ما حاك في صدرك »[٢] « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[٣] « الدِّين النَّصيحة »[٤] .

هل ترى الجاحظ يعني غير كلام النَّبيِّ ﷺ : حاش لله ، وأيُّ كلامٍ أحقُّ بأن يلبسه الله من ثياب الجلالة ، ويغشيه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، ويكسوه من التوفيق ، ويمنحه من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمه به صدور الجبابرة من كلام نبيه ﷺ .

وهو مع إعجازه إذا سمعه الجاهل ربما ظنَّ : أنه يحسن مثله ، وهذا هو الكلام البليغ ، كما قال ابن المقفع ، والسهل الممتنع ، ثم أنشأ الجاحظ يصف كلام النَّبيِّ ﷺ وحسبك به وصافاً ، وناعتاً ، ونكتفي به « هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلَّ عن صنعةٍ ، ونزه عن التكلُّف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشيَّ ، ورغب عن الهجين السوقيِّ ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمةٍ ، ولم يتكلَّم إلا بكلام قد حفَّ بالعصمة ، وشدَّ بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشَّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلَّة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمةٌ ، ولا زلَّت له قدمٌ ، ولا بارت له حجَّةٌ ، ولم يقم له خصمٌ ، ولا أفحمه خطيبٌ ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتجُّ إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحقِّ ، ويستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ، ولا يلمز ،

= حلوة . . . إلخ .

(١) جامع الترمذي ، كتاب الزهد .

(٢) جامع الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في البرِّ والاثم .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب تفسير المشبهات .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : الدِّين النَّصيحة .

ولا يبطىء ، ولا يعجِّل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمَّ نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلام النَّبيِّ ﷺ . انتهى » .

وأصحابه ﷺ اقتبسوا من هذا النور ـ رضي الله عنهم ، ومعشر الأنبياء قومٌ لا يشقى بهم جليسهم ، وهم حملة هذا العلم ، وأحقُّ عباد الله بالانتفاع به ، وأولى به من غيرهم ـ والله أعلم حيث يجعل الفضل ، فإن كان غنياً ـ ولا جرم ـ فقد وجد تربةً كريمةً وأصاب أرضاً نقيَّةً ، كما قال عليه الصلاة والسلام « قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ ، والعشب الكثير » .

وما هو إلا أنَّهم جلسوا إليه ، وغشوه ، وخالطوه ـ وعاشروه ، وصحبوه ، وأحبُّوه ، وتضلَّعوا من كلامه ، وحفظوا أحكام منطقه ، واقتفوا آثاره في كل شيء[١] .

وهل نشأ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب ، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما إلا في حجره ﷺ وكنا نرجو أن نأتي بأمثلةٍ من كلامهم ، فيتبيَّن الصبح لذي عينين ، ولكن قد طال بنا الكلام ، ومن شاء فليراجع حديث أبي هريرة قال : كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر ، وعمر في نفرٍ فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقتطع دوننا ، وفزعنا ، وقمنا فكنت أول من فزع »[٢] الحديث . . . إلخ ، أخرجه مسلم .

وحديث الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة رواه البخاريُّ وغيره عن أنس ،

---

(١) والله لكلامهم أحرى وأحقُّ بأن يدرَّس ، ويحفظ ، ويذاكر ، ويحتجَّ به من غيره ، ولكن أقواماً أخطأهم كتاب الله ، وكلام نبيه ، وأصحابه أن يتعلموا منه كلام العرب ، وسننهم فيه ، ومذاهبهم ، واشتغلوا بما ربما لا يكون في شيء من كلام العرب ، ولا نرى عليه أثارة من أدب ، وكانوا ظالمين ، وهل الظلم إلا انتقاص الحقِّ ، ووضع الشيء في غير موضعه ، والناس أعداء ما جهلوا . انتهى » .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان .

وابن مسعود ، وأبي سعيدٍ ، وحديث أبي قتادة قال : خاطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « إنَّكم تسيرون عشيكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله » أخرجه مسلم وغيره .

وحديث الإفك ، وحديث كعب بن مالك في قصة تبوك .

وحمال هذا العلم من بعدهم منهم من قعد به الفقه ، وأمر الفتوى ، وعلم الرجال ، وغلبه ، كإمام أهل السنَّة أحمد بن حنبل ، والإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، وصاحبه الإمام مسلم بن حجَّاج القشيريُّ ، إلا أنَّ في الجامع الصحيح للبخاري من أدبٍ ، ولطف كلامٍ ما قد يستوقف نظر الناظر ، وفي المحدِّثين أدباء كعلامة التابعين الإمام الشعبي ، والإمام الليث بن سعد ، والشيخ الإمام أبي عبد الرحمن عبد الله بن مبارك الحنظلي ، والإمام عثمان سعيد الدارمي ، والإمام المتبوع والشاعر المطبوع محمد بن إدريس الشافعيُّ رحمه الله ، وغيرهم ـ فهؤلاء أدباء المحدِّثين ـ .

ثم جاء بعدهم أقوامٌ دَرَسُوا الحديث ودَرَّسُوا ، ولكن ما استطعموا كلام النبيِّ ﷺ ، وما ذاقوا حلاوته ، فلم يوفقوا لفقه كلام النبيِّ العربيِّ الهاشميِّ إلا كما وفقوا لفهم كلام الفقهاء الذين ليس لهم حظٌّ كثيرٌ في لغة القرآن ، وأدبها ، فنراهم لا يدهشهم أدبه الجليل ، وإن قيل لهم في ذلك ؛ قالوا : ما لنا ولهذا ، أو : ليس هذا من شأننا معشر الفقهاء ، وإنَّما لنا إقامة الدليل ، والترجيح ، والتحقيق ، فهم كما قال الشيخ أحمد بن فارس : يسرون بما ساء به اللبيب .

والعجب لقومٍ يذهبون بأنفسهم ، ويرونها من الأدب ما يرون ، ترى الواحد منهم يحفظ آلافاً من أبيات رؤبة بن العجاج ، والراجز ، وذي الرُّمة ، وأمثالهم ، إن شاعراً من الشعراء المحدثين كان يصلِّي الصلوات في آخر عمره بالتيمم ، ويدلُّ عليه قوله كذا ، وشعره كذا ، وإنَّ امرأ القيس لما ذهب إلى الروم يستنجد قيصر ذهب بطريق كذا ، ويبسط القول في حب ابن أبي ربيعة وشعره ، لو استمليته جملةً من جوامع كلمه ﷺ ؛ لسقط في يديه ، وتحيَّر .

فنعوذ بالله من سوء الاختيار .

والحقُّ أنَّ حديث رسول الله ﷺ كدينه ـ كما قال نابغة كتَّاب الشرق ـ ضاع بين جاحدٍ وجامدٍ .

هذه سطور علقتها على تشتت بالٍ ، وتزاحم أشغالٍ ، وعسى الله أن يوفقنا لإفراد كتابٍ في هذا الباب ، وعلى الله قصد السبيل .

* * *

دراسة للسِّيرة النبوية
من خلال الأدعية المأثورة المرويَّة[١]

الفضائل النبوية لها فرعان :

يمكن أن نقسِّم الفضائل النبوية التي توفَّرت في شخصية النبي الكريم ﷺ على قسمين « العبودية الكاملة » و « النبوة الجامعة » .

الدُّعاء والدَّعوة :

الدُّعاء هو مظهر العبودية ، كما أنَّ مظهر النبوَّة هو الدَّعوة ، كلاهما من أهم وأبرز عناوين السيرة المحمَّدية ، وناحيتان متفرِّدتان ، وفصلان مستقلان لهذه الصحيفة المعجزة ، أما الدَّعوة ؛ فقد وقع عليها نظر كلِّ دارسٍ ، ولفتت عناية كلِّ باحثٍ ، وزخرت الكتب والمؤلفات بتفاصيلها ، وتنوَّر العالم كله بأنوارها ، ولا يزال يتمتع بآثارها وثمارها ، وذلك لأنَّ الدعوة تتعلق بالمشاهد والمجالس ، فشهدها كلُّ إنسان جليَّةً واضحةً أما الدعاء فقد قلَّ عدد من تأمَّل فيما يحمله من الأهمية من بين جوانب السيرة ، وما كان نصيبه من التأثير في الدعوة النبوية نفسها ، وإلى أيِّ حدٍّ من الأوج والكمال انتهى النبي ﷺ بهذه الناحية للعبودية والخضوع التامِّ أمام الرب ، وكيف قام بإحياء هذه الناحية الهامَّة وإنمائها وريها وسقيها ـ وقد كانت ضائعةً مهملةً كجميع نواحي العبادة والعبودية ـ ولم يلحق برفيقه الأعلى إلا بعدما قام بتكميلها ، وتعميمها .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » بعنوان « دعاء النبي ﷺ معجزة من معجزات السيرة ، ودليل من دلائل النبوة » في عددها التاسع ، المجلد العشرون ، عام ١٩٧٦م .

ضعف الصِّلة بين العبد والمعبود في الجاهلية :

كلٌّ من درس تاريخ العقائد والدِّيانات دراسةً عميقةً شاملةً ، وأحاط به في معنى الكلمة عرف جيداً : أنَّ الصِّلة بين العبد والمعبود في هذا العهد ـ الذي تسمَّى بالجاهلية ـ قد ضعفت ، واضمحلت ، حتى نضب معين الدُّعاء ـ الذي ينبع من اليقين ، والحبِّ ، والخشوع والخشية ـ في داخل النفوس البشرية ، وقد تعلق العبد ـ فيما يتعلق بنفسه وبالمعبود معاً ـ بأوهامٍ وأخيلةٍ كان معها من المستحيل أن تتحرَّك في النفوس عاطفة الدُّعاء ، وتشعر بالحاجة إليها ، فإنَّ الدُّعاء لا يكاد يصدر حتى يتمكَّن العبد من الإيمان بالذي يحقق جميع متطلباته وحاجاته ، ثمَّ من اليقين بأنَّه مليك مقتدر على كلِّ شيءٍ ، ثم من الثقة بأنه لا ملجأ إلا إليه ، ولا معطي إلا هو ، وبالتالي من الإيمان بأنه يحبُّ الإعطاء ، وأن المحبة والرحمة ، والجود والسُّخاء ، والكرم والعطاء ، من أهم صفاته ، وأكرم أخلاقه ، ويفرح ـ عزَّ وجلَّ بالإعطاء فرحاً لا يفرحه أحد بالأخذ والقبول ، ثمَّ من التأكد أنَّ العبد احتياج في احتياج ، وسؤال في سؤال ، وفقرٌ في فقرٍ ، وأنَّ المعبود أقرب إلى العبد بأكثر مما يتصوَّر من كلِّ شيءٍ في الكون ، حتى من نفسه ، بل إنه أقرب إليه من حبل الوريد ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويُقبل على نصره إذا ما استنصره ، ويؤتي سؤله ، ويقضي حاجته ويفرِّج كربته .

نفي الصفات وأثره في النفوس البشرية :

إنَّ نظرةً عابرةً على التاريخ الجاهليِّ كفيلةٌ بالدَّلالة على ما لقيه كلَّ يقينٍ هناك من تزعزعٍ واضمحلالٍ ، وكم ثارت حول الحقائق من الشكوك والشبهات ، وكم خيمت عليها من الأوهام والمغالطات ؟ أما الفلسفة الإغريقية فيفضل إبائها الشديد لصفات « واجب الوجود » أو « المبدء الأول » وتأكيدها على تجريده من كلِّ وصف ، وإصرارها الأكيد على إثبات الذات المجردة من كلِّ وصف ، وإيمانها بذلك إيماناً لا تشوبه شائبةٌ من الشكِّ ، قد سدت باب الدُّعاء والالتجاء ، وقطعت كلَّ خيطٍ من الأمل والرجاء ، فما معنى السؤال

والاستغاثة ـ يا ترى ـ بمن تجرَّد من كل صفة . وتخلى من كلِّ قوة ، وفرغ من كلِّ كمال ؟! والذي لا دخل له في أيِّ شأنٍ من شؤون الكون وفي أيِّ أمرٍ من أموره ، وقد تعطل بعدما خلق « العقل الأول » . و « الواحد » الذي لا يمكن أن يصدر عنه إلا « واحد » ، وقد انتهى هذا الصدور ـ فيما تعتقده الفلسفة اليونانية القديمة ـ فكيف يصحُّ الأمل في صدور الأعمال عنه متتابعة في كلِّ حينٍ وآن .

عقيدة الشّرك والوثنية تمنعان عن الدُّعاء :

وبالعكس من ذلك كانت الوثنية والعقيدة الجاهلية قد خلعتا كلَّ صفةٍ من صفات الإله على أشخاصٍ ممَّن خلق ، فهذا يحمل القدرة على الإحياء ، وذاك يقدر على الرزق ، وهذا علمه محيطٌ ، فأصبح له كلُّ غيبٍ كالشهود ، وذاك يستطيع أن يصل متى شاء إلى من شاء ، وهكذا فهل كان هناك رجاء في السؤال ـ والحال على هذا المنوال ـ من « الإله الواحد » والالتجاء والرجوع إليه ؟ ولاسيما إذا كان هذا الإله ما وراء الرؤية ، وما فوق الإدراك ، على حين كانت الآلهة « المحلية » مشهودةً محسوسةً ، وفي متناول اليد ، ولا يعزبنَّ عن البال : أنَّ الصفات والأعمال الإلهية قد أصبحت هناك في طيِّ النسيان ، وضمير الغيب ، لا تكاد تذكر ، على حين كانت النوادي والمجالس عامرةً بذكر مآثر « الآلهة الكثيرة » وأعمالها الجليلة ، وكانت القلوب والأذهان مأخوذةً بمكارمها النبيلة ، وصنائعها المجيدة « فالوضع الذهني والفكريُّ » الذي صوَّره القرآن الكريم كانت نتيجةً حتميةً منطقيةً لهذه البيئة : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

الفلسفة اليونانية والعقيدة الجاهلية وأثرهما :

على كلٍّ فالفلسفة اليونانية ـ بتأثير موقفها الذي وقفته من الصفات ـ قد قفلت كلَّ بابٍ من أبواب الدُّعاء ، والالتجاء ، كما أنَّ عقيدة الشرك ـ بحكم إسباغها للأوصاف والكمالات الإلهية على الخلق ـ قد اتَّجهت بكلِّ ما تنطوي

عليه كلمات الدُّعاء ، والتضرُّع ، والسؤال من الخالق إلى المخلوق ، وغيَّرت اتجاهها من العابد إلى المعبود ، فكلتاهما ـ الفلسفة اليونانية وعقيدة الشرك ـ أدَّتا إلى نتيجةٍ واحدةٍ موضوعيةٍ ، وهي أن أصبح السؤال من الله ـ الخالق ـ مباشرةً ، والالتجاء إليه ، والاطراح على عتبته دون وساطة من المعاني التي لا تدرك ، والغايات التي لا تقصد ، ولذلك فلا تجد في هذه الفترة حتى أشخاصاً معدودين ، متعودين على الدعاء ، عارفين الطريق إلى الالتجاء ، مرتاحين إليه بألسنتهم ، وضمائرهم ، وقلوبهم .

فضل الرسول ﷺ على الإنسانية :

ومن فضل محمَّد رسول الله ﷺ ـ فدته أنفسنا وأرواحنا ـ أنه أعاد إلى الإنسانيَّة المحرومة ثروتها المفقودة ـ الدُّعاء ـ وجعل العبد يتشرَّف بالمناجاة مع ربه ، والتكلُّم معه ، فكأنه أعاد إليه لذَّة العبادة ، بل ولذة الحياة ، وشرفها ، وكرامتها ، وأتاح للإنسانية المطرودة أن تتشرَّف باللقاء ، وتتمتع بالحضور والاجتماع ، وعاد ابن آدم الآبق من ربه إلى عتبة ربه معتذراً ، يقول بلسان حاله :

إلهي عبدُك العاصي أتاكا   مقرّاً بالذنوب وقد دعاكا

عامل من عوامل الحرمان من الدُّعاء :

كانت من عوامل الحرمان الكبرى من الدُّعاء هي فكرة الجاهلية الخاطئة : أنَّ الله بعيدٌ عنا ، فكيف يصل إليه صوتنا ؟ فأعلن النبي ﷺ من قبل الله ، وبشَّر العبد : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

النافع والضار الحقيقي :

وكانت العقيدة الثانية الفاسدة : أنَّ هناك منْ غير الله منْ يملك النفع والضر ، ويقدر على الإعانة والإغاثة ، ومن جناية هذه العقيدة أنها حوَّلت اتجاه الدُّعاء ، والاستغاثة ، والاستنجاد بالنافع والضَّار الحقيقيِّ إلى الآلهة

« المساعدين » فأعلن النبيُّ ﷺ بكلِّ قوَّةٍ وصراحةٍ هذا الإعلان الذي وجه إليه مباشرة : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٤ ـ ١٠٧] .

للدُّعاء شأنٌ أيُّ شأنٍ :

ولم يصرِّح النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنَّ العبد يستطيع أن يدعو معبوده ، والمعبود يجيب دعوته فينصره ، لم يصرِّح بذلك فحسب ، بل وأثبت ذلك أنّ الدعاء مطالب به من الله ، ويسبب رضاه ، ويجلب سروره ، كما أنَّ الإضراب عنه يسبب سخطه وغضبه ، والدعاء أبرز مظاهر العبودية ، وأوضح عناوينها ، وأعمقها أثراً ، والإعراض عن الدعاء دلالةٌ على الاستكبار ، والعصيان ، والطغيان ، وقد أدّى إعلان النبيِّ ﷺ بالدُّعاء إلى ما أدّى ، فانتهى به من أعمال العبادة الإجبارية إلى مكانة العبادة العظمى ، ووسائل التقرُّب الكبرى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

وتدلُّ أحاديث النبيِّ ﷺ صريح الدَّلالة على أنَّ عدم الدُّعاء والالتجاء إلى الله ليس من عوامل الشقاء والحرمان فحسب ، بل وهو يجلب سخط الله وغضبه ، فيقول الحديث : « من لم يسأل الله يغضب عليه »[١] ولم يكتف بذلك ، فجعل الدعاء مخ العبادة ، وقال : « الدُّعاء مخُّ العبادة[٢] » وجعله

---

(١) البزار في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه .

مفتاح الرحمة والبركة ، فقال : « من فتح له منكم أبوابُ الدُّعاء فتحت له أبواب الرَّحمة »[١] .

الأدعية المأثورة دلائل مستقلةٌ على النُّبوَّة :

ولم تكتف النُّبوة المحمدية ـ على صاحبها الصَّلاة والسلام ـ بهذا التجديد في الدعاء ، ولم تقتصر على هذا القدر من التكميل في بابه ، بل تخطته ، فبينما علمنا النبيُّ الدعاء إذا هو جعل مكتبات العالم الأدبية تزخر وتموج ، فعادت تفيض بالجواهر ، واليواقيت ؛ التي عيَّت آداب العالم ـ على غناها ـ عن أن تقدِّم نظيرها في لمعانها ، وصفائها ، وبهائها ، اللهمَّ إلا بعض الصحف السماوية والكتب المنزلة ، فقد دعا ربَّه بكلماتٍ وألفاظٍ لم يستطع أحد ـ ولن يستطيع ـ أن يأتي بأكثر منها تأثيراً وبلاغةً ، وأحسن منها اعتدالًا ، واتزاناً ، ومن ثمَّ فهذه الأدعية دليلٌ مستقلٌ من دلائل نبوته ﷺ ، ومعجزة ذاتية كمعجزاته الأخرى الكثيرة ، وأنها ـ بنفس الوقت ـ تدلُّ دلالةً صارخةً على أنَّها إنَّما جرت على لسان رسول من رسل الله ، فيشع منها نور النبوة ، ويتجلَّى فيها يقين الأنبياء ، وتمتزجها عبودية « العبد الكامل » وتواضعه ، ويتجلَّى فيها اعتماد حبيب ربِّ العالمين ، وثقته ، ودلاله وغناجه ، وتسري فيها طبيعة النبوة مع بساطتها وعفتها ، وتجمع بين بساطة القلب المتألم وانكساره ، وإلحاح ذي الحاجة ، وقلقه ، واضطراره ، وحزم من يقف على آداب العتبة الإلهية والبلاط القدسي وأدبه ، والاعتماد على مواساة المواسي وأغاثته ، وبين إظهار الألم ، وإعلان الواقع الصَّادق ، كما قال الشاعر الفارسي :

« رب قد أصبتني بالألم ، فواسيتني أنت ، واحتضنتني أنت بالعطف والحنان ، وعالجتني أنت بنفسك » .

قيمة الدُّعاء الأدبية :

إنَّ هذه الأدعية المأثورة تحتلُّ ـ بالإضافة إلى قيمتها الرُّوحية وحقيقتها

---

(١) رواه الترمذي والحاكم مروياً عن ابن عمر رضي الله عنهما .

المعنوية ـ أعلى مكانةٍ أدبيةٍ وأرفعها ، وإنها درر الأدب اليتيمة ، وآثاره النادرة الخالدة التي ينقطع نظيرها في المكتبات الأدبية البشرية بأسرها .

هناك رسائل شخصية قد نالت من نقاد الأدب مكانةً كبيرةً ؛ لأنَّها تحمل سذاجةً ، وتتنزه عن التصنع ، وتعبر عن عواطف القلب تعبيراً صادقاً ، بيد أنه قد فاتهم أن يدركوا أنَّ هناك نوعاً من الأدب يحمل من السذاجة والحقيقة ما لا تحمله الرسائل والكتابات ، وتصبح هناك المصطلحات اللغوية بأنواعها هباءً منثوراً حينما يصب فيها المتكلم عصارة قلبه ، ويعبر لسانه عن القلب بأصحِّ ما يكون ، وأصدق ما يتصوَّر ، ويستغني المتكلم عن الترحيب والتحبيذ ، والإشادة والتقدير ، ولا يحسب حساباً للسَّامع ، بل يخاطب قلبه ، ويتناجى مع مشاعره ، ويتحدَّث مع عواطفه ، وهذا النوع من الأدب الرفيع هو « الدُّعاء » و« المناجاة » .

الإخلاص والصدق والواقعية من أهم عناصر الأدب :

إنَّ من أهم عناصر الأدب هما الإخلاص والصدق ـ اللذان ظلَّ يتغافل عنهما معظم نقاد الأدب ، واللذان يهبان الأدب روحاً ، وقوَّةً ، وحيويَّةً ، ويجعلانه حقيقةً أبدية خالدةً ـ وقد اتَّسم « الدعاء » و« المناجاة » بهذين العنصرين ما لم يتَّسم ـ ولا يمكن أن يتَّسم ـ به أيَّ نوعٍ من أنواع الأدب ، فكيف إذا كان الدَّاعي والمناجي رقيق القلب ، وجريح الكَبد ؟ وله كلُّ نصيب من القدرة على التعبير عن ألمه بأنواع الأساليب ؟ فتكون الكلمات الصَّادرة عن لسانه معجزةً من الأدب ، فإنها أفلاذ كبده ، وقطع قلبه ، ودموع عينيه ، فتملك القلوب ، وتبكي آلاف البشر قروناً طوالاً ! أما إذا كانت هذه الكلمات قد جرت على لسانٍ تكرَّر عليه الوحي الإلهي ، وامتلك ناصية البلاغة وعنان الفصاحة ، فلا تسأل عن تأثيرها وإعجازها !

الدُّعاء الذي دعاه النبيُّ ﷺ في الطائف :

تعالوا نلق نظرةً على الأدعية التي أثرت عن رسول الله ﷺ في دواوين الأحاديث ، وكتب التاريخ ، والسير ، ولننظر : هل يستطيع أحدنا ـ مهما بلغ

من تضلعه من الأدب ، وبراعته في الفنون الأدبية والأساليب البيانية ـ أن يأتي ـ وهو يريد أن يبدي عجزه ، وضعفه ، ويصوِّر فقره ، واحتياجه ، ويستجلب رحمة ربِّه ، ويستمطر سحابة كرمه ـ بكلماتٍ أشدَّ منها تأثيراً ، وأدقَّ منها دلالةً على المعاني ، وأكثر منها قلة في المباني ، وأحسن منها وقعاً في النفوس وجذباً للقلوب ، وسحراً للأذهان ، والعقول .

تصوَّر سفره ﷺ إلى الطائف ، وما يحفُّه ، وأرسل النظر إلى قلب المسافر المتكسِّر ، وقدميه المتضرجتين بالدَّم ، واقرأ في هذه البيئة الظالمة الخانقة .

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلَّة حيلتي ، وهواني على الناس ، ربَّ المستضعفين ! إلى من تكلني ؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحلَّ بي غضبك ، أو ينزل عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ، ولا قوة إلا بك »[١] .

أفهل تستطيع أن تأتي ـ وقد تكيفت نفسك بهذه الكيفية العجيبة ـ بكلمات أحسن منها وأوقع ؟ أو هل تقدر مكتبات العالم الأدبية الغنية على أن تسعفك بألفاظٍ أكثر منها رشاقةً ، وأحسن منها صياغةً ؟!

الدُّعاء الذي دعاه في ميدان عرفات :

وتصوَّر كذلك ميدان « عرفات » ، وما حواه من مئةٍ وعشرين ألفاً من الداعين المبتهلين والخاشعين المنصتين ، وهو يدوي بأصداء « اللهم لبيك ، اللهم لبيك » ويتجاوب مع أدعية الحجَّاج الكرام ، وقد تجلَّت فيه صمدية الأحد الصَّمد ، وعظمته وجبروته ، ترى في هذا الحشد العظيم الكريم « رجلاً » ، حاسراً عن رأسه ، لابساً إحرامه ـ فداه أبي وأمِّي ـ يحمل على

(١) جاء هذا الدعاء في تاريخ الطبري بهذه الألفاظ ، وقد أخرجه صاحب « كنز العمال » بتغيير يسيرٍ .

عاتقه مسؤولية البشرية جمعاء ، ويشاهد عظمة الإله وكبرياءه أكثر من كلٍّ من يستطيع هذه المشاهدة ، ويطلع على عجز الإنسان وضعفه وعيِّه أكبر من كل من يقدر على هذا الاطلاع ، في هذا الجو المهيب ، يدوِّي بصوته الأرجاء ، فيسمعه السامعون :

« اللهم ! إنَّك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقرُّ المعترف بذنبي ، أسألك مسألة المسكين ، وابتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، فاضت لك عبرته ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم ! لا تجعلني بدعائك شقيًّا ، وكن رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين ! ويا خير المعطين ! »[1] .

أفهل يستطيع الإنسان أن يجد ـ لكي يعبِّر عن كبرياء الله وعظمته ، ويعترف بعجزه وضعفه ، وفقره واحتياجه وقلة حيلته وهوانه ، ويثير رحمة ربه ، ويستجلب كرمه ـ كلمات أكثر منها وقعاً ، وأغنى منها إخلاصاً ، وأشدَّ منها جذباً للنفوس ونفوذاً في القلوب أو هل يستطيع أحدنا أن يصور كيفية قلبه ، وعجزه ومسكنته ، بأحسن من ذلك وأدق منه ، وأيم الله ! إنَّ هذه الكلمات لكفيلةٌ بإثارة سحابة كرم الكريم الحقيقي ، وكلما تكررها الأذهان ، ويجري بها اللسان تفيض العيون دموعاً، وتتراءى الرَّحمة الإلهية مقبلةً ، فألف ألف صلاةٍ وسلامٍ على من هو رحمةٌ للعالمين وسيد المعلمين ؛ إذ أنَّه علَّم أمته هذه الأدعية الرائعة ذات الأثر البالغ ، والصياغة الدَّقيقة ، وعرفنا كيف نقرع « باب الرحمة » اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى عترته بعدد كلِّ معلومٍ لك .

الاعتراف بعجزه وضعفه :

ولكي يستميل الإنسان الملك المقتدر ، القويَّ الغنيَّ ، القادر المطلق ، السلطان العادل ، ويستجلب رحمته ، وعطفه ، وحنانه ، لا سبيل إلى ذلك إلا

---

(١) « كنز العمال » مروياً عن ابن عباس رضي الله عنهما .

بالاعتراف بعجزه وضعفه ، وعبوديته ونقصه ، بأحسن ما يكون الاعتراف بأنَّه عبد الملك كابراً عن كابر ، وجيلاً بعد جيل ، فهو مملوك بن مملوك . . . إلخ ، وهو متسول على باب السُّلطان القديم ، وربيب هذا النعيم العميم ، والسُّلطان يملك نفسه وماله ، وكلُّ شيء بيده ، إذاً فمن يرحم عبده ويواسيه من بعده ، فلننظر : هل يمكن لأحدٍ أن يأتي بهذه المقدمة « اللازمة » بأحسن مما أتى به محمد رسول الله ﷺ ، يدعو ربه ، فيفيض لسانه بما يلي :

« اللهم ! إني عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسمٍ هو لك سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني وذهاب همي »[١] .

التمثيل الصادق الجامع للحوائج البشرية :

إنَّ حاجات الإنسان لا يأتي عليها الحصر ، واختيارها صعب ، واستقصاؤها أشقُّ ، إذاً فأيُّ حاجةٍ يسألها ، وأيُّ حاجة يتركها ، شيء في منتهى الصعوبة ، وغاية الحرج .

ولننظر في حاجاتنا ، لو أتيح لنا فرصة سؤالها واستشباعها ، لتواجهنا الصعوبة ، ويعقبها التلهُّف والأسف ، فانظر كيف عبَّر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن حاجيات الإنسان أدقَّ تعبيرٍ ، وكيف مثل الإنسانية كلَّها تمثلاً صادقاً جامعاً شاملاً ـ إذا كانت هذه الإنسانية سليمة الطبع ، صحيحة الإدراك :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربِّ العرش العظيم ، والحمد لله ربِّ العالمين ، أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كلِّ برٍّ ، والسلامة من كلِّ إثم ، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ، ولا همَّاً إلا فرجته ، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الرَّاحمين ! »[٢] .

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه عن عبد بن أبي أوفى .

ويقول في دعاءٍ آخر :

« اللهم ! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادةً لي في كلِّ خير واجعل الموت راحة لي من كلِّ شر »[١] .

الراحة التي لا تنتهي ، والسرور الذي لا ينفد :

ما أحرص الإنسان على الراحة واللذة ! غير أنه قصير النظر ، فهو يطلب اللذة الفانية ، ويسعى للمسرَّة الزائلة ، والنبيُّ ﷺ يدرك ذلك ، فيعلم أمَّته من خلال أدعيته أنَّ ما ينبغي أن يطلبه الإنسان هو اللَّذة الباقية ، والراحة الدائمة ، والمسرَّة في الحياة الآخرة ، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، والشوق إلى لقائه ، فيقول :

« اللهم ! إني أسألك نعيماً لا ينفد ، وقرَّة عينٍ لا تنقطع ، وأسألك الرضا بالقضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك »[٢] .

الحقائق التاريخية والدّقائق النفسيّة في الأدعية المأثورة :

إنَّ الخلق الحسن أغلى نعمةٍ بعد الإيمان ، والذي أخبر عن نفسه : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ما كان ليتغافل عن أهمية الأخلاق الكريمة والصفات النبيلة ، ويتغاضى عن خطورتها ودقتها ، ولذلك ترى أنَّ مكارم الأخلاق والترغيب فيها ، والتشجيع عليها ، تشغل جزءاً كبيراً من الأدعية الماثورة ، ويشتمل هذا الجزء على الحقائق الخلقية ، والخلجات النفسية الدقيقة التي تناولها علماء الأخلاق والنفس ـ فعلاً ـ دراسةً وتحليلاً .

فاقرأ أولًا دعاءً له ﷺ جامعاً ، ثم اقرأ الأدعية المأثورة الأخرى التي

---

(١) رواه الإمام مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المستدرك عن عمار بن ياسر رضي الله عنه .

تتناول الجوانب المتنوعة للخلق البشري ، فيقول ﷺ في دعاء له اثناء قيامه بالليل :

« اللهم ! اهدني لأحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت ، وقني سيىء الأعمال ، وسيىء الأخلاق ، لا يقي سيئها إلَّا أنت »[١] .

حينما يشاهد الإنسان صورته في المرآة ، يدرك اعتدال أعضائه ، واتزان جسمه ، وصدق قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، فلم يفت النبيَّ ﷺ ، أن يُشعر أمته بهذه المناسبة كذلك ، بأهمية الخلق الحسن ، فعلَّمها أن تدعو الله لتحسين الباطن بجانب تحسين الظاهر ، فباجتماعهما يستحق البشر أن يكون خليفة الله في الأرض ، فيقول ﷺ ، وهو يرى صورته في المرآة :

« الحمد الله ! اللهم ! كما حسَّنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي »[٢] .

إنَّ « الحياة الطيبة » تحتاج في تكاملها إلى إيمانٍ ، وصحَّةٍ ، وخلقٍ حسنٍ ، فيقول ﷺ في دعاءٍ له :

« اللهم ! إني أسألك صحَّةً في إيمان ، وإيماناً في حُسن خُلُقٍ »[٣] .

وفي دعاءٍ آخر :

« وأسألك لساناً صادقاً ، وقلباً سليماً ، وخُلُقاً مستقيماً »[٤] .

دقائق أخلاقية :

وقد دعا النبيُّ ﷺ بجانب هذه الأدعية العامَّة المجملة التي تتَّصل بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأوصاف لبعض المحاسن الأخرى ـ وقد لفت بذلك انتباه

---

(١) رواه النسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة رضي الله عنها .
(٣) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) رواه الإمام الترمذي عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

الأمة للاهتمام بهذا الجانب العظيم ـ التي هي في غاية الدِّقة والخطورة ، وهي بمنزلة المقياس لتكامل الأخلاق ، فمما يدلُّ على كمال الأخلاق والإنسانية ، والشرف والكرامة ، والورع والتقوى أن يرزق الإنسان حبَّ الفقراء والمساكين ، فقد كثر من يُجِلُّون الثروة وذويها ، ويكرمون الدنانير والدراهم وأهلها ، أما الذين يحبون الفقراء والمساكين ، ويعطفون على ذوي الحاجة ، فهم في قلَّةٍ وندرةٍ ، إلا من وفقه الله وهداه إلى مسالك الخير ، يقول ﷺ في دعائه :

« اللهم ! إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات وحبَّ المساكين »[١] .

قد اعتاد الإنسان أن يستكبر نفسه ، ويستصغر غيره ، ولم يسلم من هذا الداء إلا أولئك الأفذاذ المخلصون ؛ الذين عصمهم ربُّك ، فتزكَّت نفوسهم ، وتنزَّهت قلوبهم ، والتأمل في ذلك يؤدي إلى أنه قد شذ من يسلمون من داء الاستكبار والإعجاب ، فإنَّ ذلك يتمكن من النفس من حيث لا يشعر بنو آدم ، وبألوانٍ وأشكالٍ لا يدركها البشر ، ولكي يسلم منه الإنسان يحتاج إلى العناية البالغة ، والاهتمام المتواصل بالدُّعاء ، فإنَّ إدراك هذا الداء وتشخيصه صعبان ، والشفاء منه شيء غير يسير ، ولذلك فسيد المخلصين يدعو لنفسه ـ ويعلم أمته أن تدعو لنفسها :

« اللهم ! اجعلني صبوراً ، واجعلني شكوراً ، واجعلني في عيني صغيراً ، وفي أعين الناس كبيراً »[٢] .

إن اتحاد الظاهر والباطن ، وصلاحهما من نعم الله العظمى ، ومن فضل الله الكبير ؛ الذي يحتاج الحصول عليه إلى العناية الزائدة بالدعاء المخلص ، يقول معلم الأخلاق ﷺ :

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن ثوبان رضي الله عنه .

(٢) جاء في كنز العمال عن بريدة رضي الله عنه .

« اللهم ! اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة »[١] .

ويفصِّل ﷺ ذلك في هذا الدعاء :

« اللهم ! طهِّر قلبي من النفاق ، وعملي من الرياء ، ولساني من الكذب ، وعيني من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصُّدور »[٢] .

التعبير عن القلب :

وقد ناب النَّبيُّ ﷺ في دعائه كلَّ إنسانٍ عن كلِّ ما يحتاج إليه ، بأكمل ما تكون النيابة فسيجد كلُّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى يوم يرث فيه الله الأرض ومن عليها ، تعبيراً عن قلبه ، وتمثيلاً لعواطفه ومشاعره ، وأسباب ارتياح لقلبه ، وطلباً لحاجات قلما تخطر ببال عامة البشر ، اقرأ هذا الدعاء على سبيل المثال :

« اللهم ! إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والأهواء ، والأدواء ، نعوذ بك من شرِّ ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ[٣] ومن جار السوء في دار المقامة ، فإنَّ جار البادية يتحوَّل ، وغلبة العدو وشماتة الأعداء ، ومن الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة ، فإنها بئست البطانة ، وأن نرجع على أعقابنا ، أو نفتن عن ديننا ، ومن الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ومن يوم السُّوء ، ومن ليلة السوء ، ومن ساعة السوء ، ومن صاحب السُّوء »[٤] .

---

(١) رواه الترمذي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٢) « كنز العمال » عن أم سعيد رضي الله عنها .
(٣) جاءت هذه الفقرة نيابة عن من يدعو من الأمة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام .
(٤) الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه .

طلب السعة في الرزق عند كبر السن :

كلُّ واحدٍ منا يحتاج إلى الرزق ، غير أنه كم منا من يدرك أنَّ السعة في الرزق ، والرغادة في العيش ، يحتاج إليهما الإنسان ـ بأشد ما يكون الاحتياج ـ حينما يجتاز آخر مرحلة من مراحل حياته ، فلا يقدر على تحمُّل المشاق ومعالجة العسر ، ويفقد القدرة على كسب المعاش ، وتعجز قواه عن الكدِّ والاجتهاد ، فيروح حريصاً على الراحة ، وسعادة العيش ، وسعة الرزق ، فانظر كيف يدعو لذلك معلم الحكمة ﷺ :

« اللهم ! اجعل أوسع رزقك عليَّ عند كبر سني ، وانقطاع عمري »[١] .

طلب صلاح آخر العمر ، وسعادته وفلاحه :

ولم يكتف ﷺ بطلب السعة في الرزق في آخر العمر ، بل دعا أن يسود هذه المرحلة الباقية من العمر خيرٌ من كلِّ جانب ، وأن تكون آخر المراحل أسعدها ، وأفلحها ، وأصلحها ، فيقول :

« واجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتيمه ، وخير أيامي يوم ألقاك فيه »[٢] .

طلب فجأة الخير وسؤال النجاة من فجأة الشر :

ما من شكٍّ في أنَّ الخير والنعمة من ملاك السرور والراحة ، إلا أنَّ الخير الذي يصيب الإنسان فجأةً ، ويساق إليه بغتة ، يجلب سروراً يفوق الوصف ، ومن هنالك فإذا كانت الشرور والفتن مما تجب منه الاستعاذة والاستخلاص مرَّةً ، فالشرُّ الذي يفاجأ به الإنسان ، وينوبه مصادفة ، تجب الاستعاذة منه مئة مرة ، والذين جابهوا ذلك وجربوه ، يعرفونه جيداً ، فكم منا من يتذكر خطورة هذا الأمر وهوله ، فيستعيذ منه ، ولم يفت النبي ﷺ أن يذكر ذلك في دعائه :

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه الطبراني عن أنسٍ رضي الله عنه .

« اللهم ! إني أسألك من فجأة الخير ، وأعوذ بك من فجأة الشرِّ »[١] .

الاستعاذة من زوال النعمة بعد حصولها :

وكذلك الفقر والاحتياج بعد العيش السعيد والرزق الرغيد ، والعسر بعد اليسر ، مما تجب الاستعاذة منه ، فإنَّ ذلك ابتلاءٌ شديدٌ ، ومحنةٌ خطيرةٌ وقد دعا له ﷺ بكلِّ عنايةٍ :

« اللهم ! إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفجأة نقمتك »[٢] .

الاستعاذة من أرذل العمر :

إنَّ طول العمر مما طلبه الإنسان دوماً منذ اليوم الأول ، وقد جرت العادة أن يدعو البعض للبعض لطول العمر ، والبركة في الحياة ، لكن طول العمر الذي يفقد القوى ، ويجعل الإنسان عاجزاً عاطلاً كَلاًّ على غيره ، شيءٌ تجب الاستعاذة منه ، فيدعو النبي ربه .

« اللهم ! إني أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والجبن ، والهرم ، ومن أن أردَّ إلى أرذل العمر »[٣] .

الاستعاذة من نفس حريصة لا تشبع ، ومن علم عقيم لا ينفع :

الأموال ، يراها الإنسان كغايةٍ ، وأكبر شيءٍ في الحياة ، ولا يذكر أنَّ الكثرة الكاثرة ، والكمية الكبرى من الثروة لا تكفي لنفس حريصة ، والنفس التي لا تشبع إنها لمصيبة للإنسان نفسه ، وللعالم كله ، ولذلك استعاذ منهما الحكيم الرَّباني ﷺ وأوصانا بالاستعاذة ، كذلك العلم الذي لم يكسب صاحبه الخشية والتقى ، ولم ينفع الناس . والقلب الجريء الذي حرم خشية الله ،

---

(١) أخرجه النووي في « كتاب الأذكار » عن أنسٍ رضي الله عنه .
(٢) رواه مسلم ، وأبو داود عن عمرو بن العاص رضي الله عنه .
(٣) رواه الشيخان في صحيحيهما .

وتجرد من خوف خالقه ، كلُّ ذلك تجب الاستعاذة منه ، والتحصُّن منه ، فقد جنى على الإنسانية ما لم يجن عليها الأعداء ، وقد حوى النبي ﷺ كلَّ ذلك في دعاءٍ واحدٍ :

« اللهم ! إني أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع ، ودعاءٍ لا يسمع ، ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن علمٍ لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع »[1] .

بعض الحوائج الأساسية والجذرية في الحياة :

إنَّ من الحوائج الجذرية الواقعية التي لا معدى للبشر عنها ـ لكي يحيى حياة سعيدة ـ هي الدَّار الواسعة مع الرزق الواسع ، إنها حاجة لم تقلَّ أهمية في أيِّ فترة من الزمان ، أما في الحياة المعاصرة فقد أصبحت تشكل مشكلة كبيرة ، وأصبحت من أهم متطلبات الحياة ، غير أنه يجب أن لا يفوتنا أن نتذكر أنَّ سعة الدار ليست كلَّ العلاج ، وإنما هو كفايتها لأهلها ، وشعورهم بسعتها ، فلو عدم الشعور بسعتها ، لما كفت أوسع دار لطبع طموح ، ونفس طماعة ، وعدم هذا الشعور والطمأنينة والرضىٰ ، هو السرُّ وراء مشكلات الحضارة الحاضرة ، ونظم الاقتصاد المعاصرة التي تستعصي على المعالجة ، ولذلك فالنبيُّ الحكيم ﷺ يسأل ربه « السَّعة في الرزق » و « السَّعة في الدار » مكان « سعة الرزق » و « سعة الدار » ، والفرق بينهما واضحٌ لكلِّ خبير :

« اللهم ! اغفر لي ذنبي ، ووسِّع لي في داري ، وبارك لي في رزقي » .

التعبير عن حاجيات المسافر ومشاعره :

السفر من الحوائج التي لا بدَّ منها للإنسان ، والمسلم ـ بحكم المركز الذي يحتلُّه في الكون ـ يجب ألا تخلو أيُّ خطوةٍ منه ، بل وأيُّ تحرُّك منه من الدعاء والاستخارة ، وطلب البر والنجاح ، فالسفر الذي هو من أهم الخطوات ، يجب أن يكون مشفوعاً بكمية كبرى من الدعاء ، وطلب الخير ، وسؤال الصَّلاح والفلاح ، فالمسافر يترك داره ، وأهله ، ويصادف سفراً

---

(١) رواه الترمذي ، والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

طويلاً ، وأمكنة جديدةً ، وأناساً لا يألفهم ، ويقضي مدَّةً في هجرةٍ من أهله ، وبعدٍ عن وطنه ، ويموج قلبه بخليط من الآلام والآمال ، ويساوره الحزن على ما تركه من ورائه من الوطن والأهل والمال ، وتخالطه الأماني فيما يستقبله ، ثم العناية بالسفر ، والتأهب له ، ومتاعبه ومشاقه ، وبعد المنزل ، والاهتمام بالأهداف ، والحنين إلى الغايات ، والتطلُّع إلى الأغراض ، كلُّ ذلك يقلق قلبه ، ويشوش ذهنه ، وهو ـ لكي يفوز بالنجاح ـ يحتاج في كلِّ مرحلة من هذه المراحل إلى نصر الله ، ونجدته ، وعونه ، وعصمته .

فانظر كيف جاء التعبير جامعاً شاملاً عن كلِّ هذه الحوائج ، والأحاسيس في هذا الدُّعاء الموجز ، الذي سوف لا يمكن أحداً من البشر ـ مهما تمتَّع بذكاءٍ وافر ، وأعمل فكره العميق ـ أن يأتي بدعاءٍ أشمل منه ، وأكمل ، وأجمل ، وأدل :

« اللهم ! إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم! هون علينا سفرنا هذا ، واطوعنَّا بعد الأرض ، اللهم! أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم ! إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في الأهل والمال »[1] .

غير أنه ليس السفر هو الذي يستحقُّ العناية بالدعاء ، بل ينبغي للمسافر أن يطلب الخير والبركة كلما أتى مكاناً جديداً، ودخل مثوىً جديداً ، فقد جاء في الحديث الشريف أنَّ النبيَّ ﷺ كان يكرر ثلاث مرات ، كلما دخل قريةً : « اللهم ! بارك لنا فيها » ثم يقول : « اللهم! ارزقنا، جناها » وكل مسافر بصورةٍ عامَّةٍ ، والمسافر الذي يحمل دعوة ورسالة بصورةٍ أخصَّ ، يحتاج إلى أن يحرز حب أهل القرية التي نزل بها ، لكي يرتاح ضميره ، ويطمئن قلبه ، ثم لكي تتمكن رسالته من القلوب ، إلا أنَّ المسلم تحتم عليه عقيدته ودينه ألا يقصد إلا حبَّ أهل الصلاح والفلاح ، والدين والتقى ، ولذلك يقول ﷺ في دعائه :

---

(١) رواه مسلم ، والترمذيُّ ، وأبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) .

« وحببنا إلى أهلها ، وحبب صالحي أهلها إلينا »[١] .

الدُّعاء عند إقبال الليل والنهار :

ليس السفر ، أو المنزل هما اللذان يستحقَّان من المؤمن العناية بالدُّعاء والاستخارة ، لا ، بل يجب أن يطلب المؤمن من ربه لدى إقبال كل ليلٍ ، وإدبار ، كلِّ نهار ، وبالعكس ما فيهما من الخير والنفع ، ويستعيذ به مما فيهما من الشر والفتنة ، ويشهد بأنه هو المالك الحقيقي المطلق ، سائلاً أن يجعل له الحظَّ الأوفر ، والنصيب اللائق مما فيهما من الصَّلاح والبركة والنجاح ، وينبغي أن يستحضر لدى كلِّ تطوُّر وتغير يمرُّ به ، هذه الحقيقة الكبرى ، فقد جاء في الحديث الشريف : أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو كلما كان يمسي :

« أمسينا ، وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، رب أسألك خير ما في هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة وشر ما بعدها ، ربِّ أعوذ بك من الكسل ، وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذابٍ في النار ، وعذابٍ في القبر »[٢] .

« ويدعو حينما يصبح ، فيضع كلمة » أصبحنا وأصبح الملك لله ، مكان « أمسينا وأمسى الملك لله » ، وجاء في حديثٍ آخر دعاءٌ بهذه الكلمات :

« أصبحنا وأصبح الملك لله ربِّ العالمين ، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم : فتحه ، ونصره ، ونوره ، وبركته ، وهداه ، أعوذ بك من شرِّ ما فيه ، ومن شر ما بعده »[٣] .

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر (رضي الله عنهما) .
(٢) أخرجه صاحب جمع الفوائد عن أبي مالك (رضي الله عنه) .
(٣) رواه مسلم والترمذي وأبو داود عن ابن مسعودٍ .

الاستعاذة من شرِّ النَّفس :

لا شكَّ في أنَّ أخوف ما يجب أن يخافه الإنسان ، وأجدر ما يجب أن يستعيذ منه البشر ، هو شرُّ نفسه ، بكلِّ ما شهده العالم من فظائع الدَّمار والهلاك ، ومظاهر الوحشية والاستبداد ، ومن خسارة الدُّنيا والآخرة ، كلُّ ذلك يرجع إلى شرِّ النفس » ، ولذلك أكثر الرسول ﷺ من الاستعاذة من هذا العدو الألد ، فقد جاء في دعائه عند الصباح :

« اللهم ! فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ! أنت ربُّ كلّ شيء ، والملائكة يشهدون أنك لا إله إلا أنت ، فإنا نعوذ بك من شر أنفسنا ، ومن شرِّ الشيطان الرجيم وشركه ، وأن نقترف سوءاً أو نجره إلى مسلم »[١] .

وجاء في دعاءٍ آخر :

« اللهم ! قني شرَّ نفسي ، وأعزم لي على رشد أمري »[٢] .

وجاء في دعاءٍ آخر :

« يا حي يا قيُّوم ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين »[٣] .

طلب الخشية واليقين :

إنَّ ما يقف سدّاً منيعاً ، وسياجاً حديديّاً بين العبد وشرِّ النفس والمعاصي ، هو خشية الله ، والذي يهوِّن على العبد ضربة البلايا والرزايا ، ويخفف له أثر المآسي والمصائب ، هو اليقين ، فيقول ﷺ :

« اللهمّ ! اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن

---

(١) جميع الفوائد عن أبي مالك رضي الله عنه .
(٢) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو داود وابن عمر (رضي الله عنه) .

طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا »[١] .

منطلق الشرور والمعاصي والاستعاذة منه :

إنَّ منطلق هذه الشرور والمعاصي ، وأنشط وأقوى عاملٍ من عواملها ، هو حبُّ الدنيا ، إنَّه منبع الخطيئات كلها ، فقد جاء في الحديث الشريف : « حبُّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة » . أما طبيعة النبوة فهي « اللهم ! لا عيش إلا عيش الآخرة » ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، وقد جاء في دعائه ﷺ :

« ولا تجعل الدُّنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا غاية رغبتنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا »[٢] .

حبُّ الله هو الدواء الوحيد لكلِّ داءٍ :

بالتأكيد ، إنّ الذي يسهل الدين ، ويحبِّبه إلى القلوب ، ويكره إليها العصيان والفسوق ، ويستخرج حبَّ الدنيا من أعماقها ـ فتصبح كلُّ عظمةٍ في الدنيا شيئاً لا قيمة له ، وحينئذٍ يفقد كلُّ جميلٍ في الكون جماله ، وكلُّ عظيمٍ عظمته ـ والذي هو يثبت القلوب والأقدام لدى كلِّ ابتلاء ومحنة ، هو حبُّ الله الخالص من كلِّ شائبةٍ ! إلا أنَّ القلب الذي تمكَّن من هذا الحبِّ ، وتغلَّب على هذا الهيام لم يهب ـ ولن يهاب ـ أيَّ جلال ، ولم يأخذه ـ ولن يأخذه ـ أيُّ جمال ، وقد تغنى بذلك شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال في شعره الأردي ، فقال : « حبُّ الله عجبٌ في عجبٍ ، فإنَّه يجعل القلب يستغني عن العالمين بما فيهما » .

إنَّ العلاقة التي تقوم على أساسٍ من الحدود والقيود ، والطاعة التي تفرضها الأوامر والنواهي ، لن تقوما مقام هذا الحبِّ ، ولن تقوما بالدور الذي تقوم به هذه العلاقة ، فإنَّ القوانين ربما تؤدي إلى اتخاذ « الباب السِّرِّيِّ »

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه .
(٢) رواه الترمذي والنَّسائي عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) .

و « المدخل الخلفي » ثم إنَّ القوانين تأتي بالتأويلات ، وتأخذ الكلمات فتحمِّلها ما لا تحتمل ، ثم إنَّها تملُّ ، فتضع السِّلاح ، أمَّا الحبُّ فلم يعرف التأويل والملل ، وبعد عن الكل ، وتعالى عن الاستكانة والاسترخاء ، فهو داء ودواء ، وإنَّ هؤلاء العشاق ـ كما قال الشاعر الفارسي ـ لا يبالون بوعورة الطريق ، بما أنَّ الحب هو طريق ومنزل معاً ، ولذلك فالنبيُّ ﷺ عني بالدعاء لهذا الحب أبلغ العناية ، وأكملها :

« اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي ، وأهلي ، ومن الماء البارد »[1] .

وجاء في دعاءٍ آخر :

« اللهم ! اجعل حبَّك أحبَّ الأشياء إلي ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي ، واقطع عني حاجات الدُّنيا بالشوق إلى لقائك ، وإذا أقررت عين أهل الدنيا من دنياهم ، فأقرر عيني من عبادتك »[2] .

وجاء في دعاءٍ آخر :

« اللهم ! ارزقني حبَّك وحبَّ من ينفعني حبُّه عندك ، اللهم ! فكما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوةً لي فيما تحبُّ ، اللهم ! وما زويت عني ممَّا أحبُّ فاجعله فراغاً لي فيما تحبُّ »[3] .

طلب نصر الله وعونه وعطفه وكرمه :

بيد أنَّ هذا الحبَّ ، وهذه الطاعة ، والتوفيق للعبادة ، والذكر والشكر ، كلُّ ذلك منوطٌ بعطف الله وكرمه ، ويتوقف على إعانته ونصرته ، ولذلك أوصى حبيب ربِّ العالمين ﷺ أحد أصحابه بهذه الكلمات التي تتدفق بالحبِّ ، وتفيض بالحنان .

---

(١) الترمذي عن أبي الدرداء ، وعن معاذ (رضي الله عنهما) .

(٢) جاء في « كنز العمال » عن أبي مالك (رضي الله عنه) .

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن يزيد الأنصاري (رضي الله عنه) .

« يا معاذ ! والله إني لأحبك ، أوصيك يا معاذ ! لا تدعنَّ في دبر كلِّ صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك »(١) .

شهادة القلب السليم :

هذه هي الأدعية المأثورة ـ التي ألقينا على نذر منها نظرةً عابرةً ـ يتجلَّى فيها ـ كلَّ التجلي ـ نور النبوة ، ويقينها ، وحكمة الأنبياء ، وعلمهم ، وحبُّهم ، وعرفانهم ، وهي مزية الأنبياء كلهم عامة ، ومن سمات سيد الأنبياء ﷺ خاصَّةً ، وإنَّ القلب ـ إذا كان على فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها ـ سيشهد كلَّما يمرُّ بهذه الأدعية ، بأنها من كلام النبيِّ المعصوم المصون ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، كما شهد القلب السليم في صدر عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ حينما وقع نظره على وجه النَّبيِّ ﷺ « والله ، هذا ليس بوجه كذاب » .

وقد شهد بالأمرين كليهما العارف الرومي ـ مولانا جلال الدين الرومي ـ في شعره الفارسي :

« إنَّ ألم القلب وجرحه اللذين يعانيهما العشاق لذةٌ في لذةٍ لمن يعرف حقيقة هذا الألم ، وإن كلام النبي ووجهه كليهما معجزةٌ من المعجزات » .

فلئن كانت أبواب السير ، والأعمال ، والأخلاق ، والعبادات ، قد دلت على كمال النبوة وفضلها ، وعلومها وحكمتها ، فإنَّ هذه الأدعية المأثورة دليلٌ من دلائل النبوة ، ومعجزةٌ من معجزاتها .

فما أسعد الأمَّة التي ورثت من نبيها ـ محمد رسول الله ﷺ ـ مفتاح الدين والدنيا ، ونعم الغيب وثروته ؟! وبالعكس ، ما أشقى تلك الأمَّة التي لم تتمتع بهذا المفتاح ، ولم تستخدم هذا السلاح ؟!

وأخيراً ، لا بدَّ من إثبات حقيقةٍ كبرى : إنَّ من شقاء المنكرين للسنة

(١) رواه أبو داود والنسائي عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) .

ـ بالإضافة إلى خسائرهم الأخرى الكثيرة الكبيرة ـ إنهم حرموا تلك الأدعية المأثورة ، والكلمات النبوية التي هي جزء من الأحاديث ، فالشبهات التي تمكنت من قلوبهم في صحة الأحاديث وثبوتها ، حالت ـ طبعاً ومنطقياً ـ بينهم وبين التمتُّع بهذه الثروة الغيبية الغنية ، واتخاذها وسيلة إلى التضرُّع والتعبير عما في القلب ، وكفى به عقاباً .

* * *

جوانب السيرة المضيئة
في المدائح النبوية الفارسية والأردية[1]

الحمد لله والصَّلاة على رسول الله ﷺ أما بعد ! فإنَّ الملمَّ بلغات العالم ، وآدابها ، وثروتها الأدبية ، ومكتبتها الشعرية ، والمشتغل بالدراسات الأدبية المقارنة ، يعرف أنَّ صنف المديح النبوي أو (النبويَّات) ثروةٌ أدبيَّةٌ معنويةٌ من أغنى الثروات الأدبية والإنتاج الشعري ، وفيض القريحة ورشحاتها ، وتوليد المعاني والانطلاق في عرصاتها ، من بين لغات البشر المحفوظ تراثها ، الباقية آثارها ، وذلك لعمق تأثير البعثة المحمَّدية في العالم ، وفي الأجيال والنفوس البشرية ، ولكون سيرة سيِّد الأنبياء وخاتمهم معلومةً محفوظةً ، ومتداولةً متناقلةً ، على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأمم والبلاد ، وأخيراً لا آخراً لتعلق قلوب هذه الأمة وارتباطها عقدياً ، وعقلياً ، ونفسياً ، وعاطفياً ـ بنبيّها ﷺ ـ تعلُّقاً لم يعرف في تاريخ الديانات ، وفي واقع الأمم لأيِّ أمَّةٍ بنبيها رغم ما عُرفت من تخطٍّ للحدود الفارقة بين التوحيد والشرك ، وتأليهها له في بعض الأحيان ، أو اعتقاد الابنيّة أو التبنِّي على الأقلّ .

وذلك شأن المديح النبوي أو (النبويّات) مع ثروة المدائح البشرية وشعر المديح في تاريخ الأدب والشعر ، فإنَّ الأول (المديح النبوي) يفوق شعر

(١) هذا البحث قدَّمه العلاَّمة الندوي في الندوة العلمية التي عقدتها رابطة الأدب الإسلامي العالمي في مدينة « أورنغ آباد » (الهند) حول المدائح النبوية في الفترة ما بين ٢٥ ـ ٢٧ صفر ١٤٠٩هـ/ الموافق ٧ ـ ٩ أكتوبر ١٩٨٨م . ثم نُشر في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها التاسع ، المجلد الثالث والثلاثون ، عام ١٩٨٩م .

المديح ، والوصف ، وقصائد المدح ، والرثاء كمّاً وكيفاً ، وقامةً وقيمةً ، ذلك لأسباب نفسيَّةٍ واقعيَّةٍ ، تحليليةٍ طبيعيةٍ وعقليَّةٍ ، فإنَّ الأول تقترن به العقيدة المتغلغلة في الأحشاء ، المسيطرة على الأعصاب وقُوى الفكر والشعور العميق بالسعادة والتوفيق ، والأمل في النجاة والمغفرة في بعض الأحيان ، والزُّلفى عند الله ، والرَّجاء في الشفاعة ، وكلُّ ذلك كافلٌ بإثارة المواهب الدفينة ، وتدفيق القريحة الخامدة ، وإثارة المعاني ، والحماس البياني ، مع رقَّة الشعور الإنساني ، فإنَّ الشاعر إذا كان مدفوعاً من داخل نفسه ، مسُوقاً من إيمانه ، متجرِّداً من الأغراض الخسيسة والمنافع المادّية ، متجاوباً لقلبه وروحه ؛ غَرَف من بحرٍ لا ساحل له ، واقتنَصَ نجوماً كانت فوق متناول يده .

هذا بالعكس من المدائح التي قيلت في ملكٍ أو أميرٍ ، أو فاتحٍ أو غنيٍّ ؛ فقد ارتبطت به مطامع ، وآمال في بعض الأحيان ، أو مخاوف وتوجُّسات في أحيانٍ أخرى ، وصدرت عن اقتراحٍ وطلبٍ ، وأملاها مقتضى الوقت ومصلحةُ الزمان ، وشتان بين هُتاف الخارج ونداء الضمير ! وبين تحقيق رغبات المتملّقين المقترحين أو الوصول إلى غايات اقتصاديةٍ ، أو سياسيةٍ ، أو اجتماعية ! وبين تحقيق رغبة الضمير المؤمن القاهرة (من غير عُنفٍ ، أو قسوةٍ) وبين شكرٍ واعترافٍ بجميلٍ ناله هذا الشاعر الممدوح ، أو أمَّلَ فيه في المستقبل ، وبين شكرٍ واعترافٍ بكلِّ شعرةٍ من شعرات جسمه ، وبكلِّ جارحةٍ من جوارحه ، بما أنعم الله به عليه عن طريق هذا النبيِّ من نعمة الإيمان وكرامة الإنسان ، ولم يزل ولا يزال بين الجمال والكمال ، وبين الإشادة به والتغنِّي والاهتزاز لهما داخلياً ، والإعلان لهما خارجياً ، صلةٌ قويةٌ عميقةٌ خالدةٌ ، وتفاهمٌ ـ من غير مخططٍ أو مؤامرةٍ مصطنعة مدبَرةٍ ـ فأينما كان الجمالُ والكمالُ الساحران سحراً حلالاً ، وأينما كان الفضل والإحسان ـ من غير عوض أو أمل في مردود ـ كان الشعرُ البليغ ، والمديح الرقيقُ ، والبيانُ السَّاحر ، والأدبُ الخالد ، وذلك هو الباعثُ الأساسيُّ الأقوى على وجود الشعر الذي طربت به الآذان ، وصفَّق له الزمان ، ونقل الإنسان من عالم الهموم والأحزان إلى عالمٍ فسيحٍ ، وتهبُّ فيه نفحاتُ الإيمان والوجدان .

ومن الفوارق الكبيرة بين شعر المديح العام وشعر المديح النبويِّ والنبويَّات : أنَّ انطباع شاعر المديح لممدوحه وتعبيره عن مظاهر عظمته ومحاسنه ، وحبِّه لمن يرثيه من الملوك والأجواد ، والشجعان والفاتحين ، والقادة والنابغين من الحُكام أو العلماء ، والصالحين ، يبقى محصوراً في نطاق حياته وفي حدٍّ ذاته ، لا شأن له ، ولا دافعَ إليه بعد وفاته أو بعد ما انتهى هذا الشاعر الراثي من رثائه ، ولا شأن له ببلده الذي وُلِد فيه ، أو ماتَ ودُفن وقضى فيه حياته ، وعاش ، فقد كان هذا الممدوح أو المرثيُّ بشراً من البشر ، كانت كلُّ الفضائل التي امتاز بها مقرونةً مرتبطةً بذاته وحياته ، انتهت بحياته ، ولم يكن لبلده ومولده ومهجَرِه ـ دورٌ في تاريخ تغيُّر مسيرة الإنسانية وإنقاذ البشرية ، ولم تقترن به ذكريات الدَّعوة ، والإصلاح ، والجهاد ، والكفاح ، والإيثار على النفس ، والفداء ، والأخوَّة الصادقة ، والإنسانية السَّامية ، وآيات البُطولة ، والاستماتة في سبيل الله ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، وإيثار النَّبيِّ ﷺ على النفس والأولاد ، وبالعكس قد خصَّ الله بَلَدي الرسول بعَبير الإيمان ، وأريج الحبِّ والحنان ، فإحداهما : مولد الرسول ومبعثه ، وثانيهما : مهجره ومدفنه ، لذلك كان الحنين إلى هذين البلدين والحرصُ على الوصول إليهما مشياً على الرأس والعين ، وكنس أرضهما بالأهداب ، وغسلهما بالدُّموع ، أمنيّة العُشاق والمُتَيَّمين ، وأصحاب النبويّات والشوقيات من الشعراء والناظمين .

وكان ذلك أبرزَ وأقوى عنصرٍ شعري في هذا الصنف في الشعر الفارسي والأردي لبعد هذه البيئات التي نبغ فيها هؤلاء الشعراء ـ عن مركز الإسلام ومدينتي الرسول عليه الصلاة والسلام ، لذلك جاء في شعر شعراء إيران وشبه القارة الهندية من شعر الحنين ، والشوق ، والشعور بالبعد والهجران ، وشوق الوصول إلى البلدين الطيبين المباركين على جناح الشوق والحبِّ ، كما يقول الشاعر العربي في ممدوحٍ بعيدٍ غائب عنه :

فيا غائباً لو وجدنا له سبيلاً مشينا على الأرؤس
على ذلك الوجه مني السلام ولا أوحش الله من مؤنسي

ويمكن أن يقال بكلِّ ثقةٍ وبيّنةٍ : إن الشعر الذي قيل في اللغة الفارسية والأردية في الحنين إلى المدينة المنورة وتمثيلها في المخيَّلة ، وتصوير وصول الشاعر إلى أرضها ـ إذا قُدِّرت له هذه السعادة ـ وسرورُه بذلك ، واعتدادُه بهذه الكرامة ، وانتهازُه لهذه الفرصة ، التي لم تتحقَّق لكثيرٍ من الأولياء الكِبار ، وعباد الله الأبرار ، ويمكن أن يُعتَبَر من أرقِّ الشعر العاطفي وأقواه في الشعر العالمي الغزلي ، فإنَّه لا يزال يثير الأشواق ، ويُدِمُع الآماق ، وينزل إلى الأعماق ، ويثير الكوامن في نفوس العشَّاق .

إنَّ الحديث عن مكانة المديح النبوي أو النبويَّات في الشعر العالمي واستعراضه بوجهٍ عامٍّ مهما كان بإيجاز واختصار ، لا يتَّسع له هذا البحث القصير فإنَّه موضوع كتابٍ ، أو سلسلةٍ كتبٍ ، وقد تكلَّم كاتب هذه السطور في الموضوع بإيجازٍ في كتابه : (الطريق إلى المدينة المنورة) في مقاله : (شعراءُ العجم ، في مدح سيد العرب والعجم) [ص٩٧ ـ ١٢٠] ، ولكني أحدِّد موضوعي في عنوان (جوانب السيرة المضيئة ، في المدائح النبوية الفارسية والأردية) في هذه المناسبة الكريمة الطيّبة من جلسات الرابطة العالمية للأدب الإسلامي المنعقدة في مدينة (أورنك آباد) البلد الإسلامي ؛ الذي قضى فيه الإمبراطور المغولي المجاهد في سبيل الله ، المحبُّ لرسول الله ، المطبِّق لشريعته في مملكته الواسعة ، المدينة التي قضى فيها شطراً من عمره ، وبوفاته تزعزعت الإمبراطورية المغولية الإسلامية الأخيرة ، فهي تستحق أن تُسَمّى غرناطة الهند ، وكانت مدفَنَه .

وقد ازداد شعر المديح بتناوله جوانب السيرة قيمةً ، وإفادةً ، وقد كانت لفتاتٌ تاريخيةٌ تضيء جوانب السيرة ، وتعرض حقائق تاريخية في بلاغةٍ وإيجاز، يقصر عنها التاريخ المطوَّل مع قيمته العلمية ـ ويترك في نفس القارىء انطباعاتٍ نفسية عميقة غلاّبة ليست في متناول المؤرخين المسهبين ، ونختار في عرض هذه النماذج اللغتين الفارسية والأردية ، واللتين تزخر فيهما هذه الثروة ، واللتين كان الناطقون بهما أكثر حاجةً إلى هذه الإضاءات ، وتلخيص التاريخ الطويل المُشرق في أبيات معدودةٍ ، ولفظٍ قليلٍ ، ومعنى عميقٍ .

ونعرض من هذه النماذج مع رعاية الأدوار والعهود ، ونبدأ بالشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي (المتوفى ٦٩١هـ) ونبدأ بشعره الذي معناه :

« إنَّ اليتيم الذي نشأ أمِّياً ، وعاش أمِّياً ، ولم يقرأ القرآن في كتاب ، استطاع أن ينسخ مكتباتِ شعوبٍ كثيرةٍ ، فتفقد قيمتها وحيويتها ، وينشىء مكتبةً جديدةً كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كلِّ رائدٍ وظمآن » .

إنه لُغز من ألغاز التاريخ . إنَّ الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنساني ، والحركة التأليفية ، والكتابية الكبرى في النوع البشري ، نبعتا من نبي أمِّيٍّ . إنَّ ارتباط هذه الحركة العلمية ، وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة التي كانت هذه الأمة حاملةً لواءها بهذه الأمِّيَّة ، يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلّب من عقلاءِ العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابةً مُقنعةً عليه ، فإنَّ اليتيم الذي لم يتلقَّن مبادىء العلم ، استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان ، وجعلها لا تُغني غناءً ، ولا تحمل معنىً .

ولكن المرء قد يفهم من هذا البيت أنَّ معجزة النبيِّ ﷺ في هذا الصدد كانت سلبيةً ، حيث إنه قد نسخ المكتبات والذخائرَ العلميّةَ القديمةَ التي كانت قد تجرَّدَت عن رسالتها ودورها الإيجابي ، وبدأت تُمثّل دورَ التضليل ، وتنشُر الأباطيل ، لكن الواقع أنَّ هذه المعجزة كانت إيجابيةً بنّاءةً أكثر من أن تكون سلبيّة ، إنه نسخ ذخيرة كتبٍ محدودةٍ ، لكنه حبا الإنسانية مكتباتٍ واسعةً ذاخرةً ، ينقطع نظيرها في تاريخ الأمم .

ولقد انبثق من النبوَّة المحمَّدية وتعاليمها الحماسُ والتفاني في سبيل العلم ، وانطلقت حركةٌ علميَّةٌ خالدةٌ ، مساحتُها الزَّمنيّة من أكبر المساحات الزمنية ، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين[1] .

---

(١) ليرجع لمعرفة هذه المساحات ولمعرفة التنوع والتفنن في الموضوعات إلى كتب وضعت في ذكر المؤلفات التي ألّفها علماء الإسلام في عصور وأنحاء مختلفة ، والفضلاء الغربيون المستشرقون في العصر الأخير ، راجع هامش (الإسلام ، أثره =

ونكتفي هنا بشهادةٍ لباحثٍ غربيٍّ كبيرٍ ، ومؤرِّخٍ فرنسيٍّ شهيرٍ ، وهو الدكتور غوستاف لوبون ، ويقول في كتابه المشهور (حضارة العرب) :

« الإنسان يقضي العَجَب من الهمَّة التي أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ، وإذا كانت هنالك أممٌ فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينةٍ صرفوا همَّهم إلى إنشاء مسجدٍ ، وإقامة مدرسةٍ فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرةً أسَّسُوا فيها مدارسَ كثيرةً ، ومنها المدارس العشرون التي روى (بنيامين التطيلي) (المتوفى ١١٧٣م) ، أنَّه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المُدُن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطُليطلة ، وقُرطُبة . . . إلخ على جامعاتٍ مشتملة ، على مختبراتٍ ، ومراصد ، ومكتباتٍ غنيَّةٍ ، وكلِّ ما يساعد على البحث العلمي ، وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبةً عامةً ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني[١] بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك : إن (شارل الحكم) لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمئة مُجلد ، يكاد ثلثها يكون خاصّاً بعلم اللاّهوت »[٢] .

ويلي سعدي الشيرازي شاعر الهند بالفارسية الأمير (خسرو) الذي سلم له شعراء إيران بالزعامة والإمامة ، وشهدوا له بالإجادة والإبداع في الشعر الفارسي ، يقول في مقطوعةٍ شعرية :

« إنَّ أنفاس النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وأخلاقه قد نفخت الحياة في العرب الذين كانوا

= في الحضارة وفضله على الإنسانية) . طبع دار ابن كثير بدمشق .

(١) ولد في سنة ٣٠٢هـ وتوفي ٣٩٩هـ (٩١٤م ـ ٩٧٩م) فكان رمزاً للتقدم في العلم . العناية بالمكتبات في القرن السابع الهجري .

(٢) حضارة العرب : ص٤٣٤ ، تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه في مصر) .

في احتضارٍ ، واطفأت في وقتٍ واحدٍ شعلة أبي لهب[1] الوهّاجة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس ، إنَّه وصل في خُطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم[2] ، وفي جولةٍ من العالم الماديِّ إلى العالم الرُّوحيِّ » .

ويقول مولانا عبد الرحمن الجامي (المتوفى ٨٩٨هـ) :

« يا مَن نسبُهُ عَرَبيٌّ ولقَبُه أمّيٌّ ، لقد دان بولائك وخضع لسيادتك العرب والعجم سواء . إنَّ فصاحتك استأسرت العرب ، وإنَّ ملاحتك مَلَكت قلوبَ العَجَم ، ما ضرَّكَ ألا تقرأ ولا تكتب ، فبفضل جهودك وبعثتك تعلَّم الأمِّيُّون ، ونبغ الجاهلون ، بك ابيضَّت صحيفة الأعمال ، وأشرق نورك في الظلمات ، فلا ضير ألا تخطَّ سواداً على بياض ، أو تضمَّ سواداً إلى سواد » .

يقول أسد الله خان (غالب) الدهلوي أشهر شعراء أردو المغزلين ، وأحظاهم بالقبول (المتوفى ١٢٨٥هـ) :

« إن بنَانَهَ لم يمسك القلم ، لكنه سَطَّر ما عجزت عنه أقلام التاريخ ، ما وضع قدمه على الصحراء إلّا وتحولت إلى جنة خضراء ، وما تكلَّم مع كافر إلا حوله مسلماً مؤمناً ، يؤمن برب الأرض والسماء ، أنار الدنيا بنور الدين ، وأنقذ المؤمنين من عذاب رب العالمين ، حصاة عَتَبَتِهِ تُذيبُ الحديد ، وتلين الشَّديد ، عاكفٌ في المحراب وقلبُه معلَّق بخلق الله » .

ويليه زعيم الشعر الإسلامي الحديث الشيخ ألطاف حسين الملقّب في شعره بـ (حالي) (المتوفى ١٣٣٣هـ) صاحب المنظومة ، أو الملحمة الإسلامية المشهورة المقبولة :

« نزل من غار حراء وفي يده إكسيرٌ من السماء ، حوَّل التراب تبراً ، والحصى دُرّاً وجواهراً ، أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيِّم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورةً جذريةً ، انقلبت بها أوضاعها ، وتغيَّر بها مجرى

---

(١) يعنى به الشاعر زعيم الكفر والجاهلية ، وقد اتخذ شخصيَّة أبي لهب ، مُمثلاً لهذا الاتجاه .

(٢) يشير إلى الإسراء والمعراج .

التاريخ . . إنَّ الحجر الذي رفضه كلُّ بنَّاء وزَهَدَ فيه كلُّ معمار تناوله بيده الكريمة ، وجعله حجر الزاوية ، لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرَّقَ وغرَّبَ رعدُها وبرقُها ، فبينما رعدت على نهر (تاجه) في اسبانيا ، أمطرت على نهر (كنج) في اسبانيا ، أمطرت على نهر (كنج) في شبه القارة الهندية ، لقد أحيا ريُّها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعمَّ برها البرَّ والبحرَ ، فما ترى في العالم من رُواءٍ ، وبهَاءٍ ، ونورٍ وسناءٍ ، إلّا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمَّدية » .

ويقول الشاعر حفيظ الجالندهري صاحب الملحمة المشهورة بـ (شاهنامه إسلام) :

« إنَّه ردَّ إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها ، وإلى أفراد النوع الإنسانيِّ حقَّهم في الحياة نكَّس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كلِّ إنسانٍ صابرٍ ، وشرّف قدر الأجير ، وأهان المُثْري المستأثِر ، لقد كان الفقرُ فخرَه ، ولكنه كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه ، إنَّه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها ، وجَبَرَ القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها ، فصلوات الله عليك يا مَن كان كسره معجزةً ، وجبره معجزة ! » .

نختم هذا الباب بنموذجين من شعر شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال ، فهو مسك الختام وخير ما نختم به الكلام ، يقول الدكتور محمد إقبال :

« إنَّ قلب المسلم عامرٌ بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نام عَبيدُه على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً » .

لقد فتح باب الدُّنيا بمفتاح الدِّين ـ بأبي هو وأمِّي ـ لم تَلدُ مثله أمّ ، ولم

تُنجب مثله الإنسانيةُ ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يتساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، يأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنتُ حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرةَ الوجه ، خجلةً مُطرقةً رأسها ، فاستحيا النبيُّ ﷺ وألقى عليها رداءه نحن أعرى من السيَّدة الطائية ، نحن عراةٌ أمام أمم العالم .

لطفه وقهره كلُّه رحمةٌ ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم ، نحن المسلمين من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحد ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، مُتَّحدة الطيب والرائحة ، لم لا أحبه ، ولا أحنُّ إليه وأنا إنسان ، وقد بَكَى لفراقه الجذعُ ، وحنَّت إليه ساريةُ المسجد ، إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كلِّه ، أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ويقول في قصيدةٍ أخرى :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النَّبيِّ الأميِّ حُلَّةً أنيقةً ، وأنبتت زهرةً يانعةً ، إنَّ عاطفة الحرِّيَّة نشأت في ظلِّ هذا النَّبيِّ ﷺ ، بل ترعرعت ونَمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفَّاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضَّاءة .

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنمٍ ، وأورق كلُّ غصنٍ يابسٍ وأزهَر ، وأثمر ، إنَّه روح معركة بدر وحُنين ، وإنَّه مربي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصَّافَّات غيضٌ من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتَّار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدُّنيا والآخرة .

جرعةٌ من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روحُ الروميِّ بفكر الرَّازيِّ ، واجتمع بها العلم والحكمة والدِّين والشرع ، والإدارة والحُكم ، مع قلوبٍ أوَّاهةٍ مُخبتةٍ مُنيبةٍ في الصُّدور .

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتَّاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القدِّيسين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرةٌ من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجلِّيات والنفحات ، وباطنُه درٌّ مكنونٌ لم يطَّلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنَّه يستحقُّ ثناء الجميع ، وشكرهم ، وحمدهم ، إنَّه أسبغ نِعمةَ الإيمان على هذه الحفنة من التراب .

فمن أبرز الجوانب المضيئة في المدائح النبوية ، وأكثر سماتها أصالةً وأهميَّة ، وإبراز أكبر مآثر النبوة المحمدية وأهدافها ، هي الدعوة إلى عقيدة التوحيد الخالصة النقية ، ونبذ الوثنية ، والثنوية ، والإشراك بالندِّ بجميع أنواعه ومظاهره ، وممكناته ، ومفترضاته ، وقد وردت هذه المعاني في عددٍ من القصائد التي قيلت في المديح النبويِّ ، فإنَّ البعثة المحمَّدية قد اقترنت بالدَّعوة إلى التوحيد السالف اقتراناً بحيث لا يمكن تصور أحدهما إلّا بالآخر ، ولا يمكن الإنصاف ـ إذا كان الإنصاف ممكناً ـ لموضوع المديح النبويِّ ، إلا إذا أبرزت هذه الناحية الأساسية في الحديث عن فضل البعثة النبوية ومننها على العالم ، ومعطياتها ومنجزاتها .

وفي الإنصاف للموضوع أن يقال : إنَّه قد تورَّط عدد من أصحاب المدائح في بعض المزالق ، بتأثير بعض البيئات الموبوءة ، أو ضعف الثقافة الدِّينية ، أو بسبب الاتجاه إلى الغلو والمبالغة التي اعتبرت من سمات الشعر ومحاسنه في كثير من الآداب واللغات والعهود والأدوار ، وقد أبدى العارفون لروح الدِّين والغيارى على الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ استنكارهم لذلك ، واعتبروه شيئاً دخيلاً طارئاً على المديح النَّبويِّ .

وهنا نعرض نموذجاً واحداً للإشادة بعقيدة التوحيد الخالص عند أحد أئمة شعر المديح النبويِّ ، وهو الشيخ ألطاف حسين حالي ، عتاب المزدوجة المشهورة المعروفة بـ (مسدس حالي) يقول الشاعر :

« ولقد وقعت رجةٌ في المحيط ، واهتزَّ المجتمع العربيُّ ، حين نادى الرسول ، وقال بأعلى صوته : إنه لا يليق بالعبادة ولا بشهادة القلب واللسان بالوحدانية إلا ذلك الواحد الصمد ؛ الذي يستحقُّ وحده الطاعة والخضوع وامتثال الأوامر مطلقاً ، فإذا كنتم مطرقين رؤوسكم ؛ فاطرقوا أمامه ، وإذا كنتم خاضعين ؛ فاخضعوا له ، وإذا كنتم معتمدين على شيء ؛ فاعتمدوا عليه ، وإذا كنتم خائفين وجلين من أحد ؛ فاخشوا غضبه ، وعيشوا على حبه ، وموتوا في طلبه ، إنَّه متبرىءٌ من كل مشاركة ، ولا عظمة أمام عظمته إنَّ العقل والذكاء كليلان في إدراك كنهه وصفاته ، وإنَّ الشمس والقمر خاضعان لأوامره ، ولا قيمة لملوك وفاتحين في مملكته التي وسعت الأرض والسماء ، ولا قدرة لنبيٍّ وصدِّيقٍ على نقض ما أبرم ، ولا على إبداع ما نقض ، وليس للرهبان والأحبار ، ولا للأبرار والأحرار دالةٌ عليه حتى يستطيعوا أن يحققوا ما أرادوا ، ويشفعوا لمن ارتضوا ، فلا تغتروا كما اغترَّت أممٌ قبلكم ، ولا تدعوا لله ولداً ، ولا تطروني كما أطرت النَّصارى المسيح ابن مريم ، ولا تبالغوا في شأني ، فتسيئوا إليَّ ، ولا تتَّخذوا قبري مسجداً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

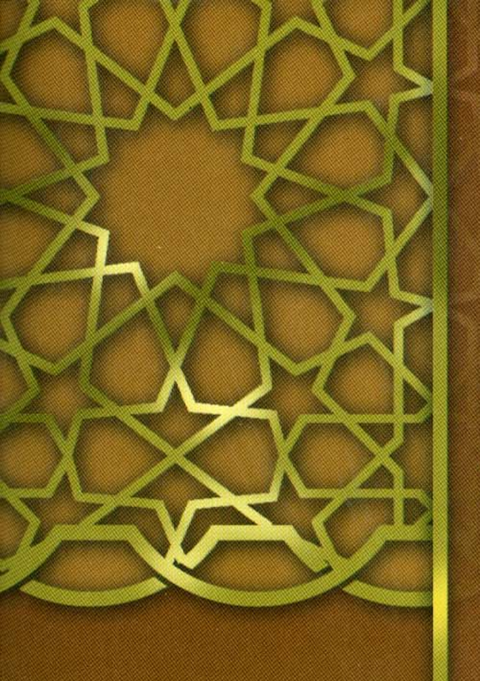
●●●



فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

* * *



هذا الكتاب

صنَّف العلامةُ الندوي عِدَّةَ مؤلفاتٍ حول السيرة النبوية، ولاقَتْ قبولاً حسناً لدى العلماء وعامة المثقفين؛ لما تحتوي عليه من عرضٍ متميز، وبحثٍ تاريخي، ودراسة تحليلية، مع استخلاص العِبَر والدروس المستفادة.

وهذا الكتابُ مجموعةٌ نفيسة من المقالات الهادفة؛ التي تتحدث عن السيرة النبوية الشريفة؛ بما يُلقي الأضواء القوية على ما تتضمَّنه من تصوير دقيق لحياة رسول الله ﷺ، والدعوة الإسلامية عبر سِنيِّ تاريخها المشرق.

ويجد القارئُ في هذا الكتاب قبساتٍ هاديةً من السيرة النبوية، ونفحاتٍ عطرةً من حياة النبي ﷺ ودعوته؛ بما يُوضِّح موضوعاتٍ كثيرة، ويجمع معلوماتٍ وافرة.

TICLES ABOUT
E PROPHET'S LIFE

yid Abul Hasan Ali Nadwi
ed and Reviewed By:
yid Abdul Majid Ghouri



دمشق ـ ص . ب ٣١١
بيروت ـ ص. ب ٦٣١٨/ ١١٣